اعداد مكتبة الروضة الحيدرية

المكتبة الرقمية

الرسائل الجامعية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الكوفة/كلية الفقه

علوم القرآن والحديث الشريف

ظاهرة الاستدراج في النص القرآني

– دراسة تفسيرية –

رسالة تقدّمت بها إلى مجلس كلية الفقه في جامعة الكوفة
وهي جزء من متطلبات درجة الماجستير في علوم القرآن الكريم والحديث الشريف

الطالبة

زينب حكيم عبيد الوطيفي

بإشراف

الأستاذ المساعد الدكتور

سيروان عبد الزهرة الجنابي

١٤٣٥هـ ٢٠١٤م

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ القُرْآنَ ﴿٢﴾

خَلَقَ الإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ البَيَانَ ﴿٤﴾

صدق الله العليّ العظيم

سورة الرحمن

الإهداء

أ أقول اهدي وما عساي أن أُعطي فالقلم مُعسِر واللسان مُقصّر، ورغبة هل من مزيدٍ تتفجَّر . . .

فبقرطاسٍ ملؤه الحياء والتواضع أعرض نَزَر المجهود على سيّد الوجود

النبيّ المحمود (صلى الله عليه وآله وسلم) وحفيدته سيّدة الصمود زينب (عليها السلام)

وإلى من ترعرعت في كنفيهما وأفاضا عليَّ الحنان والأمان،

وأنارا بصيرتي وسددا خُطاي،

أبي وأمي

وإلى سندي وعوني أخوتي وأخواتي

الباحثة

شكر وعرفان

بدءاً بلغة الضاد والتي منحني اّيَاها المبتدأ للخلق والوجود ربي ووليي في كلِّ الأمور، والذي علَّمني ما لم أكن أعلم أحمده حمداً ازلياً وأشكره شكراً سرمدياً . . . .

وغير مُجدٍ لقرطاسٍ وقلمٍ عن مدح من هو أهل للمدح بَيدَ أن أقل ما يُرد به الجميل هو عسل الثناء والإقرار بالفضل لأُستاذي القدير (الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي)

كما أقدّم خالص شكري وتقديري إلى عمادة كلية الفقه، وإلى أساتذتي في قسم علوم القرآن ولجنة الدراسات العليا . . . .

ومن العرفان أن أخصّ كل الخاصة من أهل بيتي (أبي وأُمي وأخوتي وأخواتي)

وإلى كلّ من ذكرني بدعاء أو تمنّى الخير لي .

الإهداء

أ أقول اهدي وما عساي أن أُعطي فالقلم مُعسِر واللسان مُقصّر، ورغبة هل من مزيدٍ تتفجَّر . . .

فبقرطاسٍ ملؤه الحياء والتواضع أعرض نَزَر المجهود على سيّد الوجود

النبيّ المحمود (صلى الله عليه وآله وسلم) وحفيدته سيّدة الصمود زينب (عليها السلام)

وإلى من ترعرعت في كنفيهما وأفاضا عليَّ الحنان والأمان،

وأنارا بصيرتي وسددا خُطاي،

أبي وأمي

وإلى سندي وعوني أخوتي وأخواتي

الباحثة

شكر وعرفان

بدءاً بلغة الضاد والتي منحني اّيَاها المبتدأ للخلق والوجود ربي ووليي في كلِّ الأمور، والذي علَّمني ما لم أكن أعلم أحمده حمداً ازلياً وأشكره شكراً سرمدياً . . . .

وغير مُجدٍ لقرطاسٍ وقلمٍ عن مدح من هو أهل للمدح بَيدَ أن أقل ما يُرد به الجميل هو عسل الثناء والإقرار بالفضل لأُستاذي القدير (الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي)

كما أقدّم خالص شكري وتقديري إلى عمادة كلية الفقه، وإلى أساتذتي في قسم علوم القرآن ولجنة الدراسات العليا . . . .

ومن العرفان أن أخصّ كل الخاصة من أهل بيتي (أبي وأُمي وأخوتي وأخواتي)

وإلى كلّ من ذكرني بدعاء أو تمنّى الخير لي .

المحتويات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	١-٤
التمهيد	٥-١٣
معنى الاستدراج في اللغة	٥-٧
مفهوم الاستدراج في الاصطلاح	٨-١٣
الفصل الأول: الاستدراج في نطاق العقيدة	
توطئة	١٤
المبحث الأول: الاستدراج في نطاق إثبات وحدانية الله تعالى	١٤-٢٨
المبحث الثاني: الاستدراج في نطاق إثبات خالقيته تعالى	٢٩-٤٠
المبحث الثالث: الاستدراج في نطاق إثبات النبوة	٤١-٥٦
المبحث الرابع: الاستدراج في نطاق إثبات العصمة	٥٧-٦٩
المبحث الخامس: الاستدراج في نطاق إثبات البعث والنشور	٧٠-٨٣
الفصل الثاني: الاستدراج في نطاق الأخلاق	
توطئة	٨٤
المبحث الأول: الاستدراج في نطاق حفظ مكانة المرأة ومراعاتها	٨٤-٩٧
المبحث الثاني: الاستدراج في نطاق رعاية اليتيم	٩٨-١١٠
المبحث الثالث: الاستدراج في نطاق الحث عل الإنفاق في سبيل الله تعالى	١١١-١٢٠
المبحث الرابع: الاستدراج في نطاق نبذ النفاق	١٢١-١٣١
الفصل الثالث: الاستدراج في نطاق الأحكام الشرعية	
توطئة	١٣٢
المبحث الأول: الاستدراج في نطاق تحريم الخمر	١٣٢-١٤٥
المبحث الثاني: الاستدراج في نطاق تحريم الرِّبا	١٤٦-١٦٦
المبحث الثالث: الاستدراج في نطاق وجوب الصوم	١٦٧-١٨٣
المبحث الرابع: الاستدراج في نطاق تحريم الزِّنا	١٨٤-١٩١
الخاتمة	١٩٢-١٩٨
فهرس المصادر والمراجع	١٩٩-٢١١

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله على ما أنعم وله الشكر على ما تكرَّم، نحمده ونستعين به ونستغفره ونتوب إليه، وأزكى الصلاة وأتمّ التسليم على البشير النذير والسراج المنير الذي جاء رحمةً للعالمين محمدٍ النبيّ الأمين وعلى آله الهداة إلى الحق أطهر بيت في العالمين وعلى صحبه المنتجبين.... وبعد:

فلقد كان الخطاب الإلهي المعجِز وما زال مشغلةً لعُلماء التفسير ومُنظِّري علوم القرآن كما كان مثاراً لعقول علماء النحو العربي ومتذوِّقي جماليات الخطاب الإبداعي مِن البلاغيينَ وسواهم أولئك الذين أولِعُوا بالنص فاستحوذ على جهودهم وتعمّق في أغوار نفوسهم، فالنصّ القرآني المقدس نزل في مدة زمنية معينة بيد أنَّه قد تحرَّر من نطاق ذلك القيد الزمني ليُساير كلَّ الأزمنة ويسير مع كلِّ زمن في الوقت الذي هو فوق كلِّ زمن، فمهما استقت منه عقول العلماء والمتأملين من دلالة أو فهم مضموني يبقى ذلك الكتاب المقدَّس فوق مستوى الفهم الذي يدركه منه الإنسان على وفق محدودية عقله وإن اجتهد العقل في ذلك؛ لأنَّ النص القرآني يمثل أعلى درجات المضمون قياساً إلى عقول البشرية.

من هنا تجلى في ذهني أن أدرس ظاهرة تفسيرية خطابية في النصّ القرآني ألا وهي (ظاهرة الاستدراج) وذلك رغبة مني في إثبات وجه من الوجوه الإعجازية في هذا النصّ السماوي العظيم من جهة، وغاية في داخلي من جهة أخرى تسعى لإيجاد السمات الخطابية التي استعملها النصّ القرآني لإقناع المتلقي بما تريده السماء منه والبحث في الدلالات التفسيرية في تلك السمات، ذلك بأنَّ الغاية من نزول القرآن الكريم هي هداية الناس إلى سبيل الرشاد وما كان لهذه الغاية العظمى أن تتجسد إلا من خلال استثمار بعض الوسائل الخطابية الخاصة في مكنونات اللغة العربية لإستقطاب ذلك المتلقي وإيصاله الى نقطة المنتهى (الدلالة المرجوة).

من هنا استعمل النصَّ المقدَّس جملة من الأساليب الإبداعية من أجل بلوغ المتلقي إلى مرحلة استيعاب الدلالة القرآنية المبتغاة منه على سبيل الفهم وتبني ذلك المضمون سلوكاً عملياً؛ ولا يصل المتلقي الى هذه المرحلة من (الاقتناع) ما لم يؤثر فيه التعبير القرآني بسمات خطابية معينة، لذا انبثقت فكرة هذا الجهد البحثي ليسلط الضوء على دراسة مفهوم الاستدراج في النصّ القرآني

ووسائل ذلك الاستدراج زيادة على دراسة الدلالات التفسيرية لتلك الوسائل الخطابية لهذا جاء عنوان بحثي بـ (ظاهرة الاستدراج في النصّ القرآني - دراسة في المفهوم والدلالة التفسيرية)، وأقصد بالاستدراج هو عملية استعمال النصّ القرآني لمجموعة من الوسائل الخطابية والمنظومات الكلامية من أجل إيصال المتلقي مرحليا إلى الدلالة المرجوة منه تحقيقها عملياً.

وإذا كان لابدَّ لكل جهد علمي من أن يكوم على فرضيات إرتكازية ينطلق منها فإنَّه يمكن القول بأنَّ هذا التأسيس المعرفي ينهض على جملة من الفرضيات العلمية وهي على النحو الاتي:

الفرضية الأولى: التأسيس لـ (مفهوم الاستدراج في النص القرآني) بتشخيص ماهيته والعمل على بيان حدوده؛ ذلك بأنَّ السائد في النطاق التفسيري خاصة والمعرفي عامة أنَّ مفهوم (الاستدراج) هو عملية استدراج الله سبحانه للإنسان العاصي بأن يملي له خيراً ليزداد غياً فيحق عليه العذاب، على حين أنَّ مفهوم (الاستدراج) الذي تبتغيه الباحثة يبتعد عن هذا المنظور كثيرا؛ وتأسيسا عليه فإنَّ الظاهر لدى الباحثة أنَّ مفهوم (الاستدراج) في نطاق أبحاث علوم القرآن والنطاق التفسيري ما زال بكراً لم يسبق إليه شيوعا وينتشر تداولا؛ من هنا وجب – والحال هذه- أن تقف الباحثة على الخصائص الماهية لهذا المفهوم تشخيصاً لإزاحة الستار وإقصاء مفاصل اللبس فيه.

الفرضية الثانية: السعي وراء اكتشاف السمات الخطابية التي استثمرها التعبير القرآني في إيصال المتلقي تدريجا إلى المراد الدلالي الذي تبتغيه السماء، ذلك بأنَّ الإنسان في الجاهلية وقبل نزول النصّ المقدّس كان منغمسا في غيه سادراً عن حقائق الالوهية الحقة؛ لذا فمن الصعب بمكان أن ينتزعه الله سبحانه إلى حيثية دينية جديدة بصورة مباشرة من دون تمهيد أو تدريج.

لذا كان ذلك داعيا لوجود سمة الاستدراج في الخطاب القرآني ، بَيدَ أنَّ الفرضية التساؤلية في هذا النطاق تكمن في تقصي الوسائل الخطابية المعجزة التي وظَّفها ذلك النصُّ من أجل بلوغ هذه الغاية مع المتلقي ؛ ذلك بأنَّ المسالك العقلية للإنسان لا تتقبل الخطاب المباشر في حال قناعة ذلك العقل ابتداءً بمنحى مضموني آخر أو باتجاه دلالي مغاير؛ لذا وجب أن تكون مسالك الخطاب مغايرة للعادة والمألوف حتى تحقق ما هو خارج على السائد المتسالم عليه مضمونا لدى المتلقي؛ من هنا ألزمت الباحثة نفسها تكليفا علمياً بالبحث عن الوسائل الخطابية التي استعملها النصّ القرآني لتحقيق الاستدراج ومدى توافق هذه الوسائل الكلامية مع مرجعيات المنظومة اللغوية التي تعد المرتكز الأساس لإيصال المعنى التفسيري إلى المتلقي .

الفرضية الثالثة: تسعى الباحثة إلى معرفة النطاقات الموضوعية التي استعمل النصّ فيها هذا الجنس من الخطاب القرآني، بأي الموضوعات كان، أيوجد في نطاقات النص (العقائدية والأخلاقية والأحكامية) أم انَّه في جانب معين دون آخر، ولِمَ ينحصر في هذا الجانب إن وجد دون غيره.

وقد فرضت طبيعة البحث أن يتكون من تمهيد وثلاثة فصول تتلوها خاتمة، وقد تضمَّن التمهيد بياناً لمفهوم الاستدراج في اللغة والإصطلاح والتفريق بين المفهوم الشائع له وبين المفهوم الذي تقصده الباحثة، وقد خُصص الفصل الأول لدراسة (الاستدراج في نطاق العقيدة) وقد تضَّمن خمسة مباحث، درس الأول منها الاستدراج في نطاق إثبات وحدانية الله تعالى، وجاء الثاني لدراسة الاستدراج في نطاق إثبات خالقيته تعالى، على حين اعتنى الثالث بالبحث في الاستدراج في نطاق إثبات النبوة، أمَّا الرابع فقد كان خاصاً بموضوع الاستدراج في نطاق إثبات العصمة، على حين كان الخامس منحصراً في دراسة الاستدراج في نطاق إثبات البعث والنشور.

أمَّا الفصل الثاني فقد تكفل بـ (دراسة الاستدراج في نطاق الأخلاق) وقد اشتمل على أربعة مباحث، جاء الأول منها للحديث عن الاستدراج في نطاق حفظ مكانة المرأة ومراعاتها، على حين تكلم الثاني على موضوع الاستدراج في نطاق رعاية اليتيم، أمَّا الثالث فقد اختصَّ بدراسة الاستدراج في نطاق الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى، وجاء الرابع متحدثاً عن الاستدراج في نطاق نبذ النفاق.

ثمَّ تلا ذلك الفصل الثالث وقد تخصص بـ (دراسة الاستدراج في نطاق الأحكام الشرعية) وقد تكون من أربعة مباحث، كان الأول منها مختصاً بالاستدراج في نطاق تحريم الخمر، وجاء الثاني للبحث في الاستدراج في نطاق تحريم الرِّبا، على حين ورد الثالث لدراسة الاستدراج في نطاق وجوب الصوم، أمَّا المبحث الأخير من هذا الفصل فقد اختصَّ بالاستدراج في نطاق تحريم الزِّنا.

ومن ثم انتهت الباحثة الى خاتمة الدراسة وقد أودعت فيها النتائج التي اتَّضحت لها من خلال الجهد العلمي الذي بذلته في التفكُّر والتأمل وإعادة النظر في هذه الظاهرة الأسلوبية التي اعتمدها النصُّ القرآني وسيلة لأداء مرادات السماء، ثم أتبعت الباحثةُ الخاتمةَ بقائمة بأسماء المصادر والمراجع التي استعانت بها في كتابة هذا البحث.

أمَّا منهج البحث فقد سلكت في كتابته المنهج التحليلي في دراسة الآيات وتحليلها، ولابدَّ ههنا أن أذكر ان من الصعوبات التي واجهت الباحثة في الكتابة أولاً هي شحة المصادر والمراجع التي تتحدّث عن ظاهرة الاستدراج صراحةً، إذ إنَّ أغلب المصادر إنَّما تشير إليها ضمناً تارة وتلميحا

تارة أخرى، ولكن الله تعالى ذلل تلك الصعوبات بتوفيقه وتسديده، وقد كان لمشرفي الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي الفضل الكبير في تقديم العون والمساعدة المتواصلة لي من أجل تذليل تلك الصعوبات وتخطي كل المعوقات فجزاه الله تعالى خير الجزاء ووفقه لخير الدنيا والآخرة.

وأخيراً أقول إنَّه مهما يكن من أمر هذا البحث فقد بذلت فيه ما بوسعي ولم أدَّخر جهداً في البحث والدراسة مطلقا في هذا الميدان الكريم، وإنَّ الكمال لله وحده تعالى علواً كبيراً، وإنَّما أردت أن أخدم فيه القرآن الكريم ليكون لي شفيعاً يوم القيامة، فإن وفقت فيه وأصبت فإنَّ فضل ذلك يعود لله تعالى، وإن أخطأت ولم أصب فأسأل الله العفو والمغفرة﴿رَبَّنا لا تُؤاخِذْنا إِنْ نَسِينا أَوْ أَخْطَأْنا﴾[1] فأنت الموفق والمسدد لكل خير عليك توكلنا وأنت خير وكيل .

الباحثة

[1] ـ سورة البقرة:٢٨٦

التمهيد:

مفهوم (الاستدراج) في اللغة والاصطلاح:

معنى (الاستدراج) في اللغة:

إذا ما شئنا البحث عن المعطى المعجمي للفظة (الاستدراج) في اللغة فإنَّه سوف نجدها تحت مادة (درج)، وإذا كان الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ) هو أول من أسَّس معطيات دلالة المفردة بتصنيفها بين دفتي مُدوَّن سمِّي بـ (كتاب العين) فإنَّه – والحال هذه- تفرض الأولوية الرُّكون إليه ابتداءً لمعرفة معنى هذه المفردة حيث يقول: ((الدَّرَجَةُ في الرِّفْعَةِ والمنزِلةِ وتجمَعُ الدَّرَج ودَرَجاتُ الجِنانِ: مَنازِلُ ارفَعُ من مَنازِلَ، والصَّبِيِّ ودَرَجَ يَدْرُجُ دَرْجاً ودَرَجاناً....وكلُّ بُرْجٍ من بُرُوج السَّماءِ ثَلاثونَ دَرَجَةً، والمَدْرَجة : مَمَرُّ الأشياءِ على مَسْلَكِ الطَّريق ونحوِه))[1] وعند التأمل في مقولة الخليل نجد أنَّ الدرجة تعني المنزلة وان هذه المنزلة لابدَّ من أن يكون فيها مستويات وتفاوت فـ (الدرجة في الرفعة) تكون بعدها درجة أرفع وتكون بعدها الأشرف والأرفع وهكذا، من هنا نفهم بأنَّ الدرجة هي المنزلة المعينة التي تليها منزلة، ويبدو أن مشي الصبي سمي درجا ودرجانا لأنَّه يمشي مرحلة بعد أخرى أي منزلة يسيرة ثم منزلة أعلى إلى أن يستطيع السير بطلاقه شأنه شأن الكبير، وكذا الحال للمدرجة فهي تعني ممر الشيء على مسلك الطريق والظاهر أنَّها سميت مدرجة لأن الأشياء والناس يدرجون عليها أي يمشون عليها الشيء تلو الآخر؛ من هنا نصل إلى أن معنى الدرج هو الانتقال من مرحلة إلى أخرى.

ويبدو أنَّ الجوهري (ت٣٩٣هـ) لم يبتعد كثيرا عمَّا أسسه الخليل من معنى لغوي لـ (الدرج)، إذ ذكر أنَّ الاستدراج جاء من (درج) حيث يقول: ((درج الرجل والضب يدرج دروجاً ودرجانا، أي مشى، ودرج، أي مضى لسبيله، يقال: درج القوم، إذا انقرضوا، والإندراج مثله ... ودرجه الى كذا واستدرجه بمعنى؛ أي أدناه على التدريج فتدرج هو))[2]، بهذا نلحظ انَّ الجوهري لم يخرج عما قرره الخليل من الدرج يدل على الانتقال من منزلة الى أخرى، بيد انَّ الفارق بين الجوهري والخليل انَّ الجوهري ذكر لفظة (الاستدراج) في معجمه كما هي وعرض معناها بأنَّها تدل على استقطاب الآخر وتدنيته إلى الشيء حتى يدنو هو بنفسه، والظاهر انَّ هذا

---

[1] الفراهيدي: العين:٦/٧٧- ٧٨، مادة (درج).

[2] الجوهري: الصحاح: ١/٣١٣-٣١٤، مادة (درج).

المعنى المعجمي قريب جدا من المفهوم الإصطلاحي الذي نحن في صدد التأسيس اليه كما سيرد لاحقاً.

ويبدو أنَّ ابن منظور(ت٧١١هـ) قد سار على نهج الجوهري في ذكره للفظة (الاستدارج) صراحة في معجمه وعرض دلالتها اللغوية؛ إذ يقول: ((ودرجه الى كذا واستدرجه، بمعنى أي أدناه منه على التدريج، فتدرج هو، وفي التنزيل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]، قال بعضهم: معناه سنأخذهم قليلاً قليلاً ولا نباغتهم، وقيل: معناه سنأخذهم من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به فيركنون اليه ويأنسون به فلا يذكرون الموت، فيأخذهم على غرتهم أغفل ما كانوا))[2] فكأن معنى الاستدراج هو إدناء الآخر الى الشيء الذي تريده أن يتحقق أو الذي تريده منه حتى يقوم هو بما تريد بعد أن يقتنع باستدراجك إليه، أمَّا الآية الكريمة فتشير إلى انَّ الدلالة المرادة فيها من لفظة (الاستدراج) هي الأخذ بالشيء تلو الآخر من حيث لا يشعر المأخوذ بذلك، وهذا لا يخرج عن معنى المراحل أو المنازل التي سبق الحديث عنها في كلامنا على ما أسسه الخليل ذلك بأنَّ الأخذ هنا يكون على مراحل وليس دفعة واحدة لهذا سمي استدراج بهذا نفهم انَّ من ماهية الاستدراج اللغوية هي انطواءها على دلالة المنازل أو المراحل دون أداء الشيء دفعة واحدة بل يلمس فيها التأني والعمل الدؤوب حتى يصل المستدرِج الى مراده من المستَدرَج.

وينقل ابن منظور ما روي عن أبي الهيثم حيث يقول: ((وروى عن أبي الهيثم: امتنع فلان عن كذا وكذا حتى أتاه فلان فاستدرجه أي خدعه حتى حمله على أن درج في ذلك.... ويقال: استدرجت الناقة ولدها إذا استتبعته بعدما تلقيه من بطنها))[3]؛ نجد عند النظر في كلام ابي الهيثم انَّ الاستدراج هنا يعني الخدعة بَيدَ انَّه لم يخرج عن نطاق استقطاب الآخر لكي تنطلي عليه الخدعة أي ما يبتغيه المستدرِج منه، فهو اقناع أيضا لكن ينطوي على خبث وإضمار للتلاعب في الآخر، أمَّا فيما يخص الناقة فيعني الاستدراج معها انَّها حثت وليدها على أن يتبعها تدريجيا حتى تبعها وهذا بين من قوله (استتبعته) أي طلبت منه أن يتبعها الشيء تلو الآخر حتى تبعها.

---

[1] سورة الاعراف:١٨٢.

[2] ابن منظور: لسان العرب: ٢/٢٦٨- ٢٦٩ ، مادة (درج).

[3] م.ن: ٢/٢٦٨- ٢٦٩ ، مادة (درج).

أمَّا الفيروزآبادي(ت٨١٧هـ) فقد وافق ابن منظور فيما ذهب إليه من روايته عن أبي الهيثم حيث يقول الفيروزآبادي ما نصه: ((واستدرجه: خدعه وأدناه، كدرجه، وأقلقه حتى تركه يدرج على الأرض، والناقة: استتبعت ولدها بعدما ألقته من بطنها، واستدراج الله تعالى للعبد: أنَّه كلما جدد له نعمة، وأنساه الاستغفار، أو أن يأخذه قليلا قليلا، ولا يباغته ... واستدرجته: جعلته كأنه يدرج بنفسه))[1].

أما الزبيدي (ت١٢٠٥هـ) فهو كحال سابقيه من المعجميين لم يأتِ بجديد في نطاق دلالة لفظة (الاستدراج) غير ما قدمه الأولون عليه؛ إذ يقول: ((ودرجت العليل تدريجاً إذا أطعمته شيئاً قليلا وذلك إذا نقه حتى يتدرج إلى غاية أكله كان قبل العلة درجة درجة ... واستدرجه: رقّاه، وأدناه منه على التدريج، فتدرج هو كدرجه إلى كذا تدريجا: عوده إيَّاه كأنما رقاه منزلة بعد أخرى وهذا مجاز... واستدراج الله للعبد بمعنى أنه كلما جدد خطيئة جدد له نعمة وأنساه الاستغفار))[2].

يتَّضح مما تقدم من أقوال علماء المعجم العربي في عرضهم للمعطى المعجمي للفظة (الاستدراج) في اللغة أنَّهم يتفقون على أنَّ المقصود من قولهم (استدرجه إلى كذا) بمعنى قرَّبه وأدناه واستقطبه لشيء يريد إبلاغه إياه حتى يقتنع به على سبيل المرحلية والمنزلية فالمراد من التدريج هو فعل الشيء درجة بعد درجة ومنزلة بعد أخرى ومرحلة بعد أختها ولا يكون ذلك دفعة واحدة تحققاً، بل يحتاج إلى وقت وتأنٍ.

أمَّا معنى استدراج الله تعالى للعبد فإنَّما يكون بتجديد النعم وإسباغها على العبد من الله تعالى مع تجدد المعاصي والذنوب من العبد فينسى الاستغفار والتوبة فيستحق بذلك العذاب المهين من الله العزيز الجبار، وبهذا نجد أنَّ المحصلة النهائية لمعنى الاستدراج هي الانتقال من شيء إلى آخر ومن منزلة الى أخرى من أجل إقناع المتلقي بأمر ما أو لجعله يفعل شيئاً ما يريده المستدرِج منه ولكن لا يتحقق ذلك الشيء دفعة واحدة لهذا يقسمه عليه الشيء تلو الآخر حتى يبلغه المتلقي و يؤديه على وفق ما يبتغيه المستدرِج .

---

[1] الفيروزابادي: القاموس المحيط: ١٨٨/١، مادة (درج)، وينظر: الطريحي: مجمع البحرين: ٢١/٢- ٢٢، مادة (درج).

[2] الزبيدي: تاج العروس: ٣٦٤/٣- ٣٦٥، مادة (درج).

مفهوم (الاستدراج) في الإصطلاح:

بعد أن أوضحنا المعنى اللغوي للفظة (الاستدراج) استقاءً من بطون المعجمات العربية؛ ننتقل إلى بيان ماهية (الاستدراج) في الإصطلاح، والكشف عن حدود هذا المفهوم عند العلماء، ولابدَّ من الإشارة إلى أنَّ هناك مفهومين للاستدراج في التعريف الإصطلاحي له وهما:

المفهوم الأول لـ (الاستدراج):

إنَّ المقصود من مفهوم الاستدراج هو ما ورد في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[1]، إذ المراد من (الاستدراج) ههنا هو أنَّ الله عزَّ وجلَّ يفيض نعمه على العبد على الرغم من استمرار ذلك العبد بالمعاصي والذنوب فيغتر بها ويظن أنَّه إنَّما أعطاه الله إيَّاها لأنَّه راضٍ عنه فلا يلتفت العبد -والحال هذه- إلى ذنوبه فينشغل بالنعم مما يجعله مستحقاً للعذاب الإلهي بسبب تماديه في المعاصي وتعدي حدود الله، والظاهر ان أول من تحدث عن هذا المفهوم للاستدراج هو رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)؛ إذ يقول:((إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب فإنَّما هو استدراج، ثم تلا رسول الله (صلى الله عليه(وآله) و سلم) ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أَبْوابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذا فَرِحُوا بِما أُوتُوا أَخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإِذا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[2]))[3]، وقد تحدَّث الإمام عليٌّ (عليه السلام) عن مفهوم الاستدراج وذلك في مقولته: ((إذا رأيت الله سبحانه يتابع عليك النعم مع المعاصي فهو استدراج لك))[4]؛ فنلحظ انَّ الإمام(عليه السلام) لم يخرج عما قرره الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله وسلم) من مفهوم لـ (الاستدراج) إذ استعمال الإمام واستعمال الرسول(صلوات الله عليهما) جاءا بمنطق مضموني واحد، وقد وافقهم المفسرون في تفسيرهم للآية الكريمة التي سيق فيها لفظة (سنستدرجهم). يقول الشوكاني(ت١٢٥٠هـ) وهو في معرضه بيانه لمفهوم الاستدراج في الآية الكريمة ((المعنى: سنستدنيهم قليلاً قليلاً إلى ما يهلكهم وذلك بإدرار النعم عليهم وإنسائهم شكرها

---

[1] سورة الاعراف: ١٨٢، وسورة القلم: ٤٤.

[2] سورة الانعام: ٤٤.

[3] ابن حنبل : مسند أحمد :١٤٥/٤.

[4] الامدي: غرر الحكم ودرر الكلم : ١٠١، وللاستزادة: ينظر: نهج البلاغة للإمام علي (عليه السلام): ٢٧/٤-٢٨ و٨٤، والكليني: الكافي: ٩٧/٢ والاسكافي: كتاب التمحيص: ٤٨، والحراني: تحف العقول : ١٥٦، والطبرسي: مشكاة الأنوار:٦٦، ومحمد الريشهري: ميزان الحكمة : ٣٣١٥/٤، وقد وردت أحاديث كثيرة عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام) توثق هذا المفهوم للاستدراج لم نذكرها مراعاة للاختصار.

فينهمكون في الغواية ويتنكبون طرق الهداية لإغترارهم بذلك وأنَّه لم يحصل لهم إلا بما لهم عند الله من المنزلة والزلفة))[1]، وبهذا يأخذهم الله من حيث لا يشعرون، فـ ((الاستدراج أن يتدرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً فلا يباغت ولا يجاهر))[2] فيمنحهم الله النعم من دون أن يباغتهم بالعذاب ابتداء حتى اذا ما انغمسوا في المعصية صب عليهم عذابه دون فكاك، ويبدو أنَّ هذا هو المفهوم الشائع والرائج للاستدراج عند أرباب التفسير ومختصو الدراسات القرآنية[3]، وبذلك يظهر جلياً بأنَّ مفهوم (الاستدراج)الذي اتَّفق عليه أرباب التفسير القرآني موافق لدلالة (الاستدراج) في مقولة الرسول الأعظم الإمام علي (عليهما أفضل الصلاة والسلام) وهو انَّ الاستدراج يعني الاستمالة للولوج إلى عالم العذاب.

ولا بدَّ من الإشارة ههنا إلى أنَّ استعمال الرسول (صلى الله عليه وآله) والإمام علي (عليه السلام) لـ (الاستدراج) بهذا المفهوم إنَّما كان مستقى من منطوق الآية الكريمة إذ جرى كلامهم الشريف (عليهما أفضل الصلاة والسلام) على نهج مفهوم الاستدراج في النصّ القرآني والذي قصدته هذه الآية تحديداً وبهذا قد اقتصرا (عليهما افضل الصلاة والسلام) على وجه من وجوه الاستدراج دون الوجوه الأخرى، ذلك بأنَّ الاستدراج مفهوم واسع له وجوه متعددة وان استعمالهما (عليهما أفضل الصلاة والسلام) للاستدراج بهذا المفهوم لا ينفي أن يكون هناك مفهوم أوسع ومعانٍ أخرى يمكن أن تحسب لـ (الاستدراج) في القرآن الكريم، ذلك بأنَّ مفهوم الاستدراج هو ماهية واسعة له أساليب وغايات مرجوة من استعماله وقد استعمل في النصّ القرآني بأنماط مختلفة كل بحسب الدلالة المبتغاة منه، وعليه نقول إنَّ من العلماء من حاول وضع تعريفا لـ (الاستدراج) ويبدو أنَّ منهم من استقى تعريفه من مقولة الرسول الأكرم والإمام علي(عليهما أفضل الصلاة والسلام).

إذ عرّف أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ) الاستدراج بقوله: ((هو إنَّه كلما جدد العبد خطيئة جدد الله له نعمة، وأنساه الإستغفار إلى أن يأخذه قليلاً قليلاً ولا يباغته))[4]، وهذا لا يخرج عن مفهوم الاستدراج الذي قرره الرسول(صلى الله عليه وآله) في كلامه من ذي قبل.

---

[1] الشوكاني: فتح القدير: ٣٩٥/٢.

[2] البغوي: تفسير البغوي: ٣٠٨/١.

[3] ينظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي: ٧٨/١، والنسفي: تفسير النسفي: ٤٨/٢، والالوسي: روح المعاني:١٢٦/٩.

[4] ابو هلال العسكري: الفروق اللغوية: ٧٣.

وعرَّفه الجرجاني (ت٨١٦هـ) بقوله: ((الاستدراج هو أن تكون بعيدا من رحمة الله تعالى وقريباً إلى العقاب تدريجياً وأن يجعل الله تعالى العبد مقبول الحاجة وقتاً فوقتاً إلى أقصى عمره للإبتدال بالبلاء والعذاب، وقيل الإهانة بالنظر إلى المآل والدنو إلى عذاب الله بالإمهال قليلاً قليلاً))[١].

وذهب المنَّاوي (ت ١٠٣١هـ) في (التعاريف) إلى أنَّ ((الاستدراج: تلوين المنَّة بغير خوف الفتنة، وقيل: انتشار الذكر بدون خوف المكر، وقيل: تعليل برجاء وتأصيل بغير وفاء))[٢]، وعند النظر نجد انَّ كلام الجرجاني ومقولة المناوي يتفقان تماماً مع مقولة الامام علي (عليه السلام) ومقولة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وكذا الحال للكفوي فهو يتفق مع كل ما قيل من مفهوم لـ (الاستدراج) اذ يقو ل أبو البقاء الكفوي (ت١٠٩٤هـ): ((الاستدراج: هو أن يعطي الله العبد كل ما يريده في الدنيا ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده فيزداد كل يوم بعداً من الله تعالى))[٣].

وعرَّفه من المعاصرين صلاح الدين الحسيني بقوله: (الاستدراج هو الأخذ بالتدريج، وهو من عقوبات الطرد واللعن في الدنيا والآخرة، وهو نوع من إبتلاء الكاذبين، حيث يستكبر العبد على حقيقة العبودية لله تعالى ومعانيها وواجباتها، ويجحد آيات الله وحججه على عباده، فيقسى قلبه، ويقيم على معاصيه، ويزداد من الله بعدا ومن رحمته طردا.

فتنزل العقوبات الإلهية على مستحقي هذا النوع من الإبتلاء على شكل جمالي في ظاهرها، فيوسّع الله عليهم في الدنيا، ويبسط لهم في الرزق، يكثّر أموالهم وأولادهم، فيغترون بذلك فيقولون لولا أنّ الله عنّا راضٍ ما أعطانا، فيقيمون على كفرهم وجحودهم وظلمهم ومعاصيهم، ويفرحون بما أوتوا، ولا يزالون كذلك حتى يأخذهم الله))[٤].

مما تقدَّم يتّضح انَّ المفهوم الشائع لـ (الاستدراج) هو ما أشارت إليه الآيتان في سورتي الأعراف والقلم، وما جاء في مقولتي الرسول الأكرم والامام علي (عليهما أفضل الصلاة والسلام)، وهو انَّ الاستدراج هو إدناء العبد من العذاب من قبل الله تعالى تدريجياً من خلال

---

[١] الجرجاني: التعريفات،٢٠.

[٢] المناوي: التوقيف على مهمات التعاريف،٤٨.

[٣]ابو البقاء الكفوي: الكليات: ١١٣.

[٤] صلاح الدين الحسيني: الإبتلاء سنة الهية على بساط العبودية: ٧٣.

تتابع العطاء الإلهي للعبد على الرغم من استمراره بالمعاصي، فيفتتن بما أعطاه الله تعالى له فلا يستغفر من ذنوبه ولا يعود إلى الله تعالى فيستحق بذلك العقاب دون هوادة أو غفران البتة .

المفهوم الثاني لـ (الاستدراج) :

ويقتضي أن يكون الاستدراج لا ينحصر مفهوماً بما أشارت إليه الآيتان المباركتان من سورتي الأعراف والقلم فحسب، بل يتعدى هذه الحدود ليشكل ظاهرة أسلوبية عامة في التعبير القرآني لها أسسها وأساليبها، فإنَّ من العلماء من تنبَّه على هذا النمط من مفهوم الاستدراج كان من جنس أولئك ابن الأثير (ت٦٣٧هـ) والظاهر من كلامه انَّه أول من التفت إلى هذا النمط من الاستدراج؛ إذ يقول كاشفاً عن هذا المفهوم: ((وهذا الباب أنا استخرجتُهُ من كتاب الله تعالى، وهو مخادعات الأقوال التي تقوم مقام مخادعات الأفعال، والكلام فيه وإن تضمن بلاغة، فليس هاهنا ذكر بلاغته فقط، بل الغرض ذكرُ ما تضمَّنه من النكت الدقيقة في استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، وإذا حُقِّق النظر فيه عُلم أنَّه مدار البلاغة كلِّها عليه؛ لأنَّه انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة، دون أن تكون مُستَجلِبة لبلوغ غرض المخاطَب بها والكلام في مثل هذا ينبغي أن يكون قصيرا في خلابه، ولا قصيرا في خطابه .

فإذا لم يتصرف الكاتب في استدراج الخصم إلى إلقاء يده، وإلا فليس بكاتب و لا شبيه له إلا صاحبُ الجدل، فكما أنَّ ذاك يتصرف في المغالطات القيَّاسية، فكذلك هذا يتصرف في المغالطات الخطابية))[1]، عند التأمل في كلام ابن الأثير نفهم أنَّ الاستدراج مقدرة كلامية بليغة يوظفها المتكلم في خطابه من أجل استقطاب المتلقي الى أمر يريده المتكلم فكأنَّ الفعل الذي يبتغيه المتكلم من السامع أن يفعله يوصله إليه بالكلام البليغ ولهذا يحتاج الى توظيف أساليب لغوية وألفاظ مليحة وغاية في الروعة من أجل استجلاب المتلقي لكي يذعن بما يريد أن يمليه عليه المتكلم من عقيدة أو فعل مؤسس على تلك العقيدة.

وبهذا نفهم من مقولة ابن الأثير أنَّ الاستدراج ظاهرة أسلوبية ووسيلة اقناعية للمخاطَب تعتمد على قابلية المتكلم في بلوغ غايته من المتلقي، وعليه نقول: إذا كان الخطاب القرآني معجزاً فإنَّ هذا يقتضي أن يكون مكتنزا بأسلوب الاستدراج وفنونه ذلك بأنَّ النصّ القرآني مؤسس على إيصال العقيدة التي تريدها السماء إلى المتلقي ليقوم الأخير ما تمليه عليه تلك العقيدة الحقَّة؛ من هنا

---

[1] ابن الاثير: المثل السائر: ٢/٢٥٠- ٢٥١.

كان النصّ القرآني المعجز بليغا في توظيفه لفن الاستدراج من أجل إذعان المتلقي وجعله يؤمن بعقيدة السماء الحقّة؛ بهذا ندرك أنَّ مفهوم الاستدراج أوسع من حصره في نطاق استجلاب العبد للعذاب ولا غضاضة أو مشاحة ما بين المنطوقين ذلك بأنَّ الاستدراج الذي يقصده النصّ القرآني بقوله (سنستدرجهم) هو نمط من أنماط الاستدراج السماوي القائم على أساس الاملاء لاستحقاق العذاب الأمثل، فهذا الاستدراج استدراج فعلي عملي لا استدراج كلامي؛ فهو استدراج أيضا إلا أنَّه استدراج تعاملي مع العبد تطبيقي؛ على حين إنَّ الذي تبتغيه الباحثة هو الاستدراج الكلامي القائم على أساس فن الإقناع اللفظي لاستحصال المبتغى من المتلقي، والفارق ما بين المفهومين فارق.

وقد عرّفه ابن الأثير أيضا في كتابه الجامع الكبير بقوله: ((وهو التوصل إلى وصول الغرض من المخاطب، و الملاطفة له في بلوغ المعنى المقصود، من حيث لا يشعر به، وفي ذلك من الغرائب والدقائق ما يوثق السامع، و يطربه ؛ لأن مبنى صناعة التأليف عليه، ومنشأها منه))[1]، بهذا ندرك تمام الإدراك إنَّ المبتغى من مفهوم الاستدراج ههنا هو الاستدراج الكلامي بدليل قوله (وهو التوصل إلى وصول الغرض من المخاطب) وهذا لا يكون تحققا إلا في الخطاب الكلامي.

وقد تحدَّث عن هذا المفهوم أيضا العلوي (ت ٧٤٩هـ)في (الطراز) قائلاً: ((الاستدراج استفعالٌ من قولهم : استدرجته الى كذا اذا نزَّلته درجةً درجةً حتى تستدعيه اليك وينقاد لما قلته من ذلك، قال الله تعالى (سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ)؛ فالاستدراج لهم إنَّما هو بإعطاء الصحة والنعمة والإمهال ليزدادوا في الكفر والفسوق، وهذا اللقب إنَّما يطلق على بعض أساليب الكلام، وهو ما يكون موضوعاً لتقريب المخاطب والتلطّف به والاحتيال عليه بالإذعان إلى المقصود منه و مساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيقة، كما يحتال على خصمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات، والإنتماء إليه بفنون الافحامات، ليكون مُسرعاً الى قبول المسألة والعمل عليها، وكَمن يتلطَّف في اقتناص الصيد فإنَّه يعمل في الحبالة كلَّ حيلة ليكون ذلك سبيلاً الى ما يقصده من الاصطياد، فهكذا ما نحنُ فيه، اذا أراد تحصيل مقصد من المقاصد فإنَّه يحتال بإيراد ألطف القول وأحسنه، فما هذا حالُه من الكلام يقال له الاستدراج))[2]، فنجد العلوي يوثق كون

---

[1] ابن الاثير: الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام و المنثور: ٢٣٥، وينظر: ابن قيم الجوزية: الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان: ٢١٢.

[2] العلوي: الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الاعجاز: ٢٨١/٢-٢٨٢.

هذا المفهوم تابعا للفن الكلامي بقوله: (وهذا اللقب إنَّما يطلق على بعض أساليب الكلام) وقد كان تعريفه أكثر وضوحا وتبيانا لمفهوم الاستدراج من ابن الأثير.

وقد عدّه الزركشي (ت٧٩٤هـ) أيضا من أساليب القرآن وفنونه البليغة عندما ذكرها لكنه لم يفصل القول فيه واكتفى بذكره حينما عدد أساليب القرآن وفنونه البليغة[1].

بهذا نجد أنَّ لمفهوم الاستدراج منطقين:

المفهوم الاول: ويقصد به إملاء النعم من الله تعالى على العبد كي يستدنيه إلى العذاب شيئا فشيئا فيحق عليه العذاب والحال هذه من دون أن يشعر العبد بذلك،و هذا النمط من الاستدراج هو الذي ذكره النصّ القرآني في سورتي الأعراف والقلم، وما نصَّ عليه الرسول الاعظم (صلى اله عليه وآله وسلم) والامام علي (عليه السلام) وسار عليه المفسرون شيوعا بعد ذلك، وهذا النوع من أنواع الاستدراج هو الاستدراج الفعلي العملي التطبيقي من السماء إلى العبد الآبق.

المفهوم الثاني: وينصُّ على أنَّ الاستدراج هو استعمال النصّ القرآني لمجموعة من الوسائل الخطابية والمنظومات الكلامية بأساليب غاية في البلاغة وروعة في الانتقاء من أجل إيصال المتلقي تدريجياً الى المراد القرآني والعقيدة التي تبتغيها السماء من غير أن يشعر المتلقي بذلك؛ وبهذا فإنَّ الاستدراج – على وفق هذا المفهوم – هو ظاهرة أسلوبية نصيَّة غايتها إخضاع المتلقي لما يريده النصّ باستعمال مهارات خطابية عالية الدقة في إيصال ذلك المخاطَب إلى الإيمان والقناعة الكافية لأداء المطلب المضموني الذي يمليه عليه ذلك النصّ المعجز من دون تردد أو هوادة، وهذا المفهوم الأخير هو الذي تبتغيه الباحثة تحديداً.

وفي ضوء إجراء الموازنة بين المعنى اللغوي للاستدراج والمفهوم الإصطلاحي له نجد أنَّ هناك علاقة دلالية بينهما فكلاهما يعطي معنى التدرج في الوصول إلى المراد درجة بعد درجة سواء كان هذا المراد هو العذاب الإلهي لمستحقيه من العاصين الغافلين عن ذكر الله، أو إقناع المتلقي بالحقائق والغايات التي يريدها النص القرآني، إذ كلا المنطقين يدور على أداء المبتغى الشيء تلو الآخر من دون أن يشعر المتلقي بهذا التدرج.

---

[1] ينظر: الزركشي: البرهان في علوم القرآن: ٣٨٣/٢.

الفصل الأول

الاستدراج في نطاق العقيدة

المبحث الأول/ الاستدراج في نطاق إثبات وحدانية الله تعالى

المبحث الثاني/ الاستدراج في نطاق إثبات خالقيته تعالى

المبحث الثالث/ الاستدراج في نطاق إثبات النبوة

المبحث الرابع/ الاستدراج في نطاق إثبات العصمة

المبحث الخامس/ الاستدراج في نطاق إثبات البعث والنشور

توطئة

إنَّ ظاهرة الاستدراج في نصوص القرآن الكريم كانت موجودة في مجال العقيدة، فالنصّ المقدَّس عندما يريد أن يتحدث عن وحدانية الله تعالى أو خالقيته أو عن النبوة وغيرها من مباحث العقيدة فإنَّه يعتمد من أجل إثبات ذلك الأساليب الخطابية التي من شأنها أن تقنع المتلقي بفساد عقيدته وأحقيّة ما جاء به القرآن الكريم، وإنَّ هذا الفصل سيكون البحث فيه عن بعض جوانب الاستدراج في إثبات وحدانية الله تعالى وخالقيته، وفي إثبات النبوة والعصمة، وأخيراً في إثبات البعث والنشور.

المبحث الأول: الاستدراج في نطاق إثبات وحدانية الله تعالى:

إنَّ الدعوة إلى عبادة الإله الواحد الأحد، وترك عبادة الآلهة من الأصنام وغيرها مما تعبد، لهيَ الدعوة التي جاء بها الأنبياء(عليهم السلام) جميعاً، إذ أرسل سبحانه وتعالى الرسل وبعث الأنبياء ليدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، فالتوحيد هو الغاية التي جاءت جميع الأديان من أجلها وانطلقت منها وانتهت إليها البتة، ذلك بأنَّه المنطلق الأصل الذي بنيت عليه جميع التعاليم والتشريعات السماوية التي جاء بها الأنبياء(عليهم السلام)[1]، وقد فتح القرآن الكريم أمامهم أبواب البحث والتأمل للوصول إلى هذه الحقيقة[2] فقد روي عن الإمام علي بن موسى الرضا(عليه السلام) قوله في التوحيد:((بصنع الله يستدل عليه، وبالعقول يعتقد معرفته))[3]، فالقرآن الكريم عندما أنكر على المشركين إشراكهم بالله تعالى وبطلان هذه العقيدة التي يقدسونها لم يصرح لهم مباشرة بذلك لأنَّ ردة فعلهم ستكون برفض كل ما جاء فيه ولن يستمعوا إليه أصالة؛ لذا جاء التعبير القرآني بالحجج الباهرة والبراهين الواضحة التي يقنعهم بها يقول تعالى ذكره: ﴿وما كانَ مَعَهُ مِنْ إِلهٍ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلهٍ بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ﴾[4].

فإنَّ النصّ القرآني وظَّف ظاهرة الاستدراج الدلالي لإستقطاب الكفار والمشركين من أجل الإيمان بالله تعالى وقد قام بمهمة الاستدراج الأنبياء(عليهم السلام) أنفسهم فهم من استدرجوا

١ـ ينظر: السبحاني: التوحيد والشرك في القرآن:٥.

٢ـ محمد باقر الملكي: توحيد الامامية:٢٩.

٣ـ الصدوق: التوحيد:٣٥و٣٩.

٤ـ سورة المؤمنون:٩١.

أقوامهم للإيمان بما جاءوا به من عند الله تعالى ولتوحيد الله سبحانه والابتعاد عن كل شريك له وكان من جنس مصاديق ذلك في النصّ القرآني ما يأتي:

اولاً: استدراج النبي إبراهيم (عليه السلام) لقومه:

قال تعالى في محكم كتابه العزيز : ﴿وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لأَبِيهِ آزَرَ أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ❖ وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ❖ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأى كَوْكَباً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ ❖ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بازِغاً قالَ هذا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ❖ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بازِغَةً قالَ هذا رَبِّي هذا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قالَ يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ❖ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ حَنِيفاً وَما أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [1].

تتحدّث هذه الآيات المباركات عن الحوار الذي دار بين النبي إبراهيم (عليه السلام) وأبيه آزر بحسب ما ذكر القرآن الكريم وممّا تجدر الإشارة إليه ((إن آزر كان جد إبراهيم لأمه، أو كان عمه))[2]، فإنَّ لفظة الأب في اللغة يمكن أن تطلق على الأب والجد والعم وزوج الأم وكل من يقوم بتحمل مسؤولية شخص ما وتدبير أمره[3] وأن اسم والده(تارح)[4].

وعند التأمل في هذا الحوار الدائر بينهما نقف على جملة من مفاصل استدراج نبي الله ابراهيم (عليه السلام) لأبيه ولقومه، فقد بدأ (عليه السلام) الحوار مع أبيه مستنكراً عليه عبادة الأصنام واتخاذها آلهة يعبدونها من دون الله تعالى فإنَّ هذا الإعتقاد هو عين الجهل والخطأ والضلال، فالله تعالى يقول:(وَكَذلِكَ نُرِي إِبْراهِيمَ مَلَكُوتَ السَّماواتِ وَالأَرْضِ) فقد أطلعه على(ملكوت السماوات والأرض) وقد بيَّن أبو السعود(ت٩٥١هـ) معناها بقوله: ((أي ربوبيته تعالى ومالكيته لهما وسلطانه القاهر عليهما وكونهما بما فيهما مربوبا ومملوكا له تعالى لا تبصيرا آخر أدنى منه))[5] فقد منَّ الله تعالى عليه بالعلم والإيمان، حيث نجد أنَّ النبيّ ابراهيم(عليه السلام)

١ـ سورة الأنعام : ٧٤-٧٩.

٢ ـ الطبرسي: مجمع البيان:٤/٩٠،والطباطبائي: الميزان:٧/١٦٥.

٣ ـ ينظر: الطباطبائي: الميزان:٧/ ١٦٤-١٦٥.

٤ ـ ينظر: الطبرسي: جوامع الجامع:١/٥٨٥، والفيض الكاشاني: التفسير الصافي:٢/١٣١، والطباطبائي: الميزان:٧/١٦٢، وقد جرت الباحثة على تسمية (آزر) بأنَّه أبو النبي إبراهيم(عليه السلام) جريا على الخطاب القرآني.

٥ ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٣/١٥٢.

يقول لأبيه: (أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) إذ استعمل أسلوب ((الاستفهام للإنكار: أي أتجعلها آلهة لك تعبدها))[1]فهو لم يخاطبه مباشرة فيقول له (لا تعبد الأصنام) لأنَّ هذا الحوار على هذه الشاكلة سوف يؤدي إلى إحداث تراجع نفسي لدى أبيه وردة فعل شديدة تجاهه (عليه السلام) لأنَّه واجهه بالحقيقة التي لا يريد أن يعرفها أبوه؛ ذلك بأنَّ أباه متشبع كليا وعقائديا من عبادة الأصنام إلى الحد الذي لا يسمح هذا الوضع لنبي الله إبراهيم(عليه السلام) بأن يعرض عليه دينه عن طريق نهيه عن دينه الأول؛ لذا عدل (عليه السلام) فاستعمل الخطاب غير المباشر من أجل أن يقنع أباه فهي وسيلة تلطُّفية في التعبير تكسب المتلقي وتشد انتباهه وتفتح معه بابا للحوار من دون أن تحدث لديه ردة فعل معينة تجاه المتكلم لأنَّ غايته (عليه السلام) سامية وهي الدعوة إلى عبادة الله الإله الواحد لذا لم يكن له أن يفسد هذه الغاية بالحوار المتشنج الشديد من هنا استعمل السؤال الإنكاري فالمراد (لا تعبد الأصنام).

وقد أراد أن ينبههم إلى أنَّ هذه الأصنام لا تصلح للعبادة ولكن بطريقة غير مباشرة حيث ((جئ بلفظة الأصنام في قوله المحكى: (أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً آلِهَةً) نكرة ليدل على هوان أمرها وحقارته من جهة أنَّها مصنوعة لهم مخلوقة بأيديهم كما يشير إليه قوله (عليه السلام) لقومه فيما حكى الله: ﴿أَ تَعْبُدُونَ ما تَنْحِتُونَ﴾ (الصافات : ٩٥) ومن جهة أنها فاقدة لأظهر صفات الربوبية وهو العلم والقدرة كما في قوله لأبيه: ﴿إِذْ قالَ لِأَبِيهِ يا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ ما لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً﴾ (مريم :٤٢) . فقوله: (أَ تَتَّخِذُ أَصْناماً) الخ ، معناه: (أتخذ أصناما لا خطر في أمرها آلهة والاله هو الذي في أمره خطر عظيم))[2].

ثم عقب النبيُّ ابراهيم(عليه السلام) قائلا: (إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) فنرى أنَّ هذه العبارة استعمل فيها الأسلوب غير المباشر فالنبي إبراهيم(عليه السلام) لم يقل لأبيه (أنت وقومك في ضلال مبين) فيحسم الأمر ويبتعد عن أبيه لأنَّه كافر بل قال له: (إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) فهو لم يحسم الأمر معه بعد ولم يتهمه بالضلالة على وجه القطعية؛ بل كأنَّه قال له: (أحسب أنَّك وقومك في ضلال) ونستشعر من خطابه (عليه السلام) هذا دعوى لأبيه لكي يسأله لماذا ترانا هكذا، فيتحقق الاستدراج من نبي الله ابراهيم(عليه السلام) لأبيه بأن سحب إليه انتباهه بهذا التعبير فلو قال له (أنت في ضلال مبين) لما ردَّ عليه أبوه بل لطرده؛ ولكن قال له (إِنِّي أَراكَ وَقَوْمَكَ

---

[1] ـ الشوكاني: فتح القدير: ١٩٢/٢، والنسفي: تفسير النسفي: ٣٣٠/١، الآلوسي: روح المعاني: ١٩٤/٧.

٢ ـ الطباطبائي: الميزان:١٦٨/٧-١٦٩.

فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) ليسأله عن سبب رؤيته هذه فيجيبه النبي ابراهيم(عليه السلام) مستدلاً على ذلك فيستدرجه إلى نطاق الإيمان بهذا الأسلوب الجميل.

وذهب بعض المفسرين إلى أنَّ عبارة النبي إبراهيم(عليه السلام) لأبيه (إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) تدل على الغلظة والشدة وليس هي أسلوب جميل غايته الاستدراج لأبيه ليؤمن بوحدانية الله تعالى وينبذ الأصنام، فمقولته (عليه السلام) ((هذه دالة على أنَّه (عليه السلام) شافهه بالغلظة والجفاء لقوله تعالى: إني أراك وقومك أي الذين يتبعونك في عباداتها في ضلال عظيم عن الحق مبين))[1] ولا يمكن الإنصياع وراء هذا القول وقد أشار الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) إلى عدم قبول هذا القول بقوله: ((ومشافهة الأب بالجفاء لا يجوز لما فيه من الإيذاء وآية التأفيف بفحواها تعم سائر أنواع الإيذاءات كعمومها للأب الكافر والمسلم وأيضا إنَّ الله تعالى لما بعث موسى (عليه السلام) إلى فرعون أمره بالرفق معه والقول اللّين له رعاية لحق التربية وهي في الوالد أتم، وأيضا الدعوة بالرفق أكثر تأثيرا فإنَّ الخشونة توجب النفرة فلا تليق من غير ابراهيم (عليه السلام) مع الأجانب فكيف تليق منه مع أبيه وهو الأواه الحليم))[2] وبهذا تميل الباحثة إلى القول بأنَّ هذا الأسلوب إنَّما هو من أساليب الاستدراج لذا جاء خطاب نبي الله ابراهيم(عليه السلام) لأبيه ليّناً ليستميله إليه من جهة، ولأنَّ النبي ابراهيم(عليه السلام) يتمتع بخلق عالٍ يملي عليه مخاطبة أبيه بطريقة مهذبة من جهة أخرى، لذا لا نتفق ومن يرى بأنَّ هذا الخطاب كان على سبيل الغلظة البتة.

ثم استدرجهم نبي الله ابراهيم(عليه السلام) ليسمعوا خطابه للكواكب ليوصلهم إلى قناعة بأنَّ هذه الكواكب لا تعدُّ آلهة وان الإله الواحد هو الله تعالى خالقها، حيث يرى الزمخشري (ت٥٣٨هـ) أن كلام النبي إبراهيم (عليه السلام) كان على سبيل الإنكار والاستدراج ويبين ماذا فعل (عليه السلام) عندما رأى الكواكب فيقول في تفسيره : (((فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ) ... كان أبوه آزر وقومه يعبدون الأصنام والشمس والقمر والكواكب فأراد أن ينبههم على الخطأ في دينهم وأن يرشدهم إلى طريق النظر والاستدلال، ويعّرفهم أنَّ النظر الصحيح مؤد إلى أنَّ شيئا منها لا يصح

---

[1]- الالوسي: روح المعاني: ١٩٦/٧.

[2]- الآلوسي: روح المعاني: ١٩٦/٧.

أن يكون إلهاً لقيام دليل الحدوث فيها، وأنَّ وراءها مُحدِث أحدثها وصانع صنعها ومدبر دبر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها وسائر أحوالها))[1].

ونجد أنَّ السمرقندي (ت٣٨٣هـ) يبيِّن الغاية من قول النبي إبراهيم (عليه السلام) حينما رأى الكوكب طالعاً (هذا رَبِّي) حيث يؤكد إنه هذا الخطاب لاستدراجهم للإيمان بوحدانية الله تعالى فيكتشفوا فساد عقيدتهم وبطلان ادِّعاءاتهم؛ إذ يقول ما نصه: ((قوله (هذا رَبِّي) قال ذلك قوله لقومه على جهة الاستهزاء بهم كما قال ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ﴾[2]. ويقال أراد بهذا أن يستدرجهم فيظهر قبح قولهم وفعلهم وخطأ مذهبهم وجهلهم لأنَّهم كانوا يعبدون النجوم والشمس والقمر فلمّا رأى الكوكب قال لهم (هذا رَبِّي) وأظهر لهم أنَّه يعبد ما يعبدون فلمّا غاب الكوكب قال لهم (لا أُحِبُّ الآفِلِينَ) فأخبرهم بأنَّ الآفل لا يصلح أن يكون إلهاً ثم قال في الشمس والقمر هكذا كما روي عن عيسى (عليه السلام) أنه بعث رسولا إلى ملك أرض الروم فلما انتهى إليهم جعل يصلي عند الصنم ويريهم انَّه يعبد الصنم وهو يريد عبادة الله تعالى ثم أنَّ الملك ظهر له عدو فقالوا لهذا الرسول أشِر علينا بشيء في هذا الأمر فقال لهم نتشفع إلى هذا الذي تعبدونه فجعلوا يسجدون له ويتشفعون إليه فلا يسمعون منه جوابا فقالوا أنَّه لا ينفعنا شيئا قال لهم لم نعبد من لا يدفع عنا ضرا ارجعوا حتى نعبد من ينفعنا فقالوا له من نعبد قال لرب السماء فجعل يدعو ويدعون حتى فرج الله عنهم فآمن به بعضهم، وكذلك هاهنا أراد إبراهيم أن يريهم قبح ما يعبدون من دون الله لعلهم يرجعون فلمَّا لم يرجعوا قال (يا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ)))[3].

ويبدو أنَّ الثعلبي (ت٤٢٧هـ) يتفق مع السمرقندي و لا يبتعد كثيراً عما ذكره فذكر أربعة وجوه لتأويل موقف النبي إبراهيم (عليه السلام) فأول وجه في التأويل ذكره هو إنَّما فعل (عليه السلام) ذلك لاستدراج قومه إلى الاعتراف بضلالهم وبعدهم عن الحق واتباعهم للباطل حيث يقول: ((الوجه الأول : أنَّ إبراهيم (عليه السلام) أراد أن يستدرجهم بهذا القول ويعرفهم خطأهم وجهلهم في تعظيم ما عظموا ويقيم الحجة ويريهم أنَّه معظم ما يعظموه ويلتمس الهدى من حيث التمسوا فلما أفل رأيهم النقص الداخل في النجوم ليتبينوا خطأ ما يدعون وكانوا يعظمون النجوم

---

[1]- الزمخشري: الكشاف: ٢/٢٩-٣١، وينظر: الطبرسي: جوامع الجامع: ١/ ٥٨٥-٥٨٦، والفيض الكاشاني: التفسير الأصفى: ١/ ٣٢٨-١٣٣٠، والطباطبائي: الميزان:٧/ ١٧٦-١٧٧.

[2]- سورة الأنبياء: ٦٣.

[3]- السمرقندي: تفسير السمرقندي: ٤٨٢/١.

ويعبدونها ويحكمونها))[1] ولولا أهمية هذا الوجه عند الثعلبي واقتناعه به لما قدمه على سائر الوجوه الأخرى.

وقد نقل الآلوسي: (ت١٢٧٠هـ) قول بعضهم إنَّ ذلك على سبيل الاستهزاء بهم أو أن ما قام به نبي الله إبراهيم (عليه السلام) هو من أجل اقناعهم ببطلان إعتقادهم بألوهية النجوم واستدراجهم إلى الإعتقاد بإله السماوات والأرض العزيز الجبار، حيث انَّه (عليه السلام) لم يكن منه ذلك لأنَّه كان شاكا فقد كان (عليه السلام) راسخ العقيدة وقد وصل إلى اليقين فيما يعتقده؛ إذ يقول: (((قالَ هذا رَبِّي) ... وهذا منه (عليه السلام) على سبيل الفرض وإرخاء العنان مجاراة مع أبيه وقومه الذين كانوا يعبدون الأصنام والكواكب فإنَّ المستدل على فساد قول يحكيه ثم يكر عليه بالإبطال وهذا هو الحق الحقيق بالقبول ... وقيل: إنَّه (عليه السلام) أراد أن يبطل قولهم بربوبية الكواكب إلا أنَّه (عليه السلام) قد عرف من تقليدهم لأسلافهم وبعد طباعهم عن قبول الدلائل أنَّه لو صرح بالدعوة إلى الله تعالى لم يقبلوا ولم يلتفتوا فمال إلى طريق يستدرجهم إلى استماع الحجة وذلك بأنَّ ذكر كلاما يوهم كونه مساعدا لهم على مذهبهم مع أنَّ قلبه كان مطمئنا بالإيمان، ومقصوده من ذلك أن يتمكن من ذكر الدليل على إبطاله وإن لم يقبلوا))[2].

وفي ضوء ما تقدّم يتبيَّن سعي النبي إبراهيم (عليه السلام) في استدراج قومه إلى الإعتراف بأنَّ الأصنام لا تصلح أن تكون آلهة تعبد من دون الله تعالى وان عليهم أن يعبدوا الله تعالى ولقد استدل على ذلك بإستعماله أسلوب الاستدراج من أجل أن تحدث لديهم عملية التَّفكُّر والتفكير حتى يصلوا إلى الحقيقية من تلقاء أنفسهم ، فالنبي إبراهيم (عليه السلام) رسول الله إليهم ليخرجهم من ظلمات الجهل وعبادة الأوثان إلى نور التوحيد الذي فيه صلاح دينهم ودنياهم وآخرتهم، لكنّه (عليه السلام) إن قال لهم إنَّ هذه الأصنام جمادات لا تضر ولا تنفع وكذلك الكواكب لأنها تزول وتتغير فاتركوا عبادتها لم يقبلوا منه ذلك، لأنَّهم كانوا يقلدون آباءهم بعبادتها منذ عشرات السنين، فكيف يستطيع أن يغيِّر ما ترسّخ في نفوسهم في ليلة وضحاها؛ فكان لا بدَّ من أن يتدرج معهم في الاستدلال على بطلان ما اعتقدوا ومجاراتهم وإظهار أنَّه كان يعبد النجوم ثم أثبت لهم أنَّها لا تصلح لأن تكون آلهة تعبد وتقدس؛ حتى استدرجهم إلى الإله الجدير بالعبادة وهو الذي خلق الكواكب وسيَّرها بديع السماوات والأرض وهو رب العالمين.

---

[1]- الثعلبي: تفسير الثعلبي: ١٦٤/٤.

[2]- الآلوسي: روح المعاني: ٧/ ١٩٩.

استدراج النبي يوسف(عليه السلام) لصاحبيه للإيمان بوحدانية الله تعالى:

يحكي التعبير القرآني لنا قصة النبي يوسف (عليه السلام) مع صاحبيه في السجن، وينقل لنا النصّ المقدس حواره (عليه السلام) معهما، فنجد أنَّ ظاهرة الاستدراج جلية في حديثه (عليه السلام) مع الفتيين اللذين دخلا السجن معه وكانت غاية الاستدراج هو إثبات وحدانية الله تعالى وإقناعهما بأنَّ الله تعالى هو الإله الأوحد على وجه الإطلاق، ودعوتهم إلى ترك عبادة الأصنام والأوثان وهدايتهم إلى دينه.

لأنَّ أمر العبادة والدين لله وحده وأوامره تعالى هي النافذة، وقد أمرنا بعبادته وحده لا شريك له وهي الحقيقة الثابتة التي لا شكّ فيها ولا ريب، وقد أرسل تعالى رسله إلى الناس يدعونهم إلى عبادة الله الواحد وقد أيدهم تعالى بالمعجزات من عنده، ولكن أكثر الناس لا يعلمون هذه الحقيقة بسبب كفرهم وعنادهم وابتعادهم عن التفكر والتأمل[1].

يقول سبحانه ((وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيانِ قالَ أَحَدُهُما إِنِّي أَرانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقالَ الآخَرُ إِنِّي أَرانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَراكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ❖ قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ ❖ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا وَعَلَى النَّاسِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَشْكُرُونَ ❖ يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ ❖ ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لله أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ❖ يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُما فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً وَأَمَّا الآخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيانِ))[2]

إذ ابتدأ معهما الحديث بأنَّه(عليه السلام) يعلم ماذا يرد اليهما من طعام (قالَ لا يَأْتِيكُما طَعامٌ تُرْزَقانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُما بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُما ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ) فإعلامه(عليه السلام) اياهما بالطعام يعد أمراً عجيبا لأنَّه لا يقوى أحد على علم الغيب البتة، فكأنَّه يريد أن يقول لهما إنَّ الإله الواحد الذي خلق الناس جميعا هو العالم

---

[1] ـ ينظر: السمرقندي: تفسير السمرقندي: ١٩٣/٢، والطوسي: التبيان: ٦/ ١٤٢ـ١٤٣، والبغوي: تفسير البغوي: ٤٢٧/٢، والنسفي: تفسير النسفي : ١٨٩/٢ـ١٩٠، والزمخشري: الكشاف : ٢/ ٣٢١، وابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز: ٢٤٥/٣-٢٤٦، والطبرسي : مجمع البيان : ٤٠٣/٥.

[2] ـ سورة يوسف: ٣٦- ٤١.

بالغيب وحده، ومن لا يملك الغيب فلا يمكن أن يكون إلهاً مطلقاً؛ لذا ابتدأ بمسألة علمه الغيب من الله تعالى ليدركوا حقيقية الإله وأنَّ هذه الأصنام التي يعبدونها ليست بآلهة لأنَّهم لا يعلمون الغيب وإذا لم يكونوا يعلمون الغيب فهذا يعني أنَّهم ليسوا بخالقين، وإذا كانوا كذلك تجردوا من صفة الألوهية مطلقا، ومن روعة أسلوب الاستدراج ليؤمنا بأنَّه يعلم الغيب من الله تعالى انَّه استعمل لفظة (طعام) على سبيل النكرة في سياق النفي مما يدل على العموم أي: المراد أي طعام يأتيكم أنا أخبركم به وهذا يوحي بأنَّه يعلم الغيب بكل الأطعمة من جهة، وانَّه يعلم ذلك على الدوام من جهة أخرى وهذا ما لا يقوم به إنسان البتة، فإذا علم بطعام واحد فقد يحتمل انَّه يكون من باب التخمين أو الحدس ولكن إذا كان يعرف كل الأطعمة التي تأتيهم فإنَّ هذا يدل بالمحصلة بأنَّه من علم الله تعالى وحده فنلحظ أنَّ هذا أول استدراج لهم للإيمان ثم علل هذا العلم بالغيب بقوله (ذلِكُما مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ) فقوله (مِمَّا عَلَّمَنِي) يدل دلالة واضحة على أنَّ هذا العلم (الغيب) هو من الله لا غير وانَّه جزء ضئيل من علمه بدلالة (من) و(ما) أي بعض ما علمني مما يوحي أنَّ الله تعالى يعلمه الكثير من جهة، ويدل على أنَّ الله تعالى علمه أعظم من هذا من جهة أخرى، فاذا كان عجبا لديهم العلم بالأطعمة فإنَّ هناك أبعد من تصورهم لا يعلمها إلاَّ النبي ومنها ما لا يعملها إلاَّ الله وحده، ثمَّ بيَّن داعي هذا الإكرام بعلم الغيب بقوله (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كافِرُونَ) فهذا يعني انه لا يعبد إلا الله تعالى ومن اللطيف أن يستدرجهم بقوله (إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ) فكأنَّه يوحي اليهم إنَّه كان على ملتهم بَيدَ أنَّ ملتهم ليست صحيحة لهذا عدل عنها الى غيرها وهي الأحق وهي عبادة الله تعالى وحده فلو قال لهم: أنتم كافرون مباشرة لما استجابوا له بل قال لهم تركت ملتكم ففهموا انَّه تركها وعبد الإله الواحد بدليل أنَّ ربه علَّمه الغيب وهذا ما لا يوجد عند آلهتهم التي يؤمنون بها.

ثم بيَّن(عليه السلام) لهم أي الشرائع قد اتبع بقوله (وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبائِي إِبْراهِيمَ وَإِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ ذلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنا)فنجد ان لفظة (ملة) مجملة في النصّ القرآني بها حاجة إلى تفصيل لذا فصلها في الآية نفسها بقوله (ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ) فهذه هي الملة الصحيحة بل أساس كل ملة من السماء لأنَّ التوحيد هو المنطلق الأساس لكل ديانة سماوية ونجده استعمل التركيب بالنفي المطلق إذ قال (ما كانَ لَنا أَنْ نُشْرِكَ بِاللهِ مِنْ شَيْءٍ) فقدم النفي بـ (ما) ثم (كان) ثم الحدث المنفي وهو الشرك (أن نشرك) ليبين لهم أن هؤلاء الأنبياء وهو منهم من المستحيل أن يشركوا بالله البتة فهذا أمر منفٍ مطلقاً عنهم لعلمهم ويقينهم بأنَّ

الله تعالى هو الخالق وهو الواحد الأحد فخاطبهم بهكذا تعبير ليدركوا حقيقية الأمر جليا بعد أن هيأهم لهذا المضمون ابتداءً.

بعدها استعمل أسلوبا آخر من الاستدراج وهو أسلوب الاستفهام الإنكاري الداعي الى المخاطَب للتفكير وإعادة النظر إذ قال (يا صاحِبَيِ السِّجْنِ أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) فقدم النداء أولا بقوله(يا صاحِبَيِ السِّجْنِ) لكي يستميل قلوبهم باعتبار أنَّهما صاحباه من جهة وباعتبار اشتراكهم في محنة شديدة وهي السجن فكأنه(عليه السلام) يريد أن يقول لهما نحن في محنة وشدة وأنا أريد أن أهديكما وليس من غايتي أن أستغلكما في شيء البتة فليس هذا مجال الخداع أو الاستغلال، ثم فتح كلامه بالاستفهام الإنكاري ليثبت لهما بأنَّ الأرباب المتفرقين ليسوا بآلهة بل الإله هو الواحد الأحد فكأنَّه قال: (ليس أرباب متفرقون خيرا من الله الواحد القهار)، ونجده أضاف صفة متفرقون للأرباب وعلة ذلك أنَّ ((قوله: (متفرقون) إشارة إلى كونها مختلفة في الكبر والصغر، واللون والشكل، وكل ذلك إنَّما حصل بسبب أن الناحت والصانع يجعله على تلك الصورة فقوله: (متفرقون) إشارة إلى كونها مقهورة عاجزة وجعل في مقابلته كونه تعالى قهارا))[1] وهو الله تعالى الذي ليس كمثله شيء.

وعند النظر يظهر أنَّه قد أضاف صفتين إلى الله تعالى وهي (الواحد) ليدل على أنَّه لا شريك له البتة، وصفة (القهار) أي الذي يقهر عباده بالموت وهذا يوحي بأنَّ الأصنام والأرباب الأخرى لا تمتلك سلطة الإماتة أبدا وهذا يدل على أنَّهم ليسوا بآلهة؛ لـ((أنَّ هذه الأصنام معمولة لا عاملة ومقهورة لا قاهرة، فإنَّ الإنسان إذا أراد كسرها وإبطالها قدر عليها فهي مقهورة لا تأثير لها، ولا يتوقع حصول منفعة ولا مضرة من جهتها وإله العالم فعال قهار قادر يقدر على إيصال الخيرات ودفع الشرور والآفات فكان المراد أنَّ عبادة الآلهة المقهورة الذليلة خير أم عبادة الله الواحد القهار))[2]، فضلا عن أنَّ استعمال (القهار) مع الله تعالى فيه دلالة جلية على أنَّ الآلهة المدعاة هي ليس آلهة حقيقية ((وذلك لأنَّ شرط القهار أن لا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهارا لكل ما سواه وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكنا لكان مقهورا لا قاهرا

---

[1] ـ الرازي: التفسير الكبير: ١٨/١٣٩-١٤١.

[2] ـ م.ن: ١٨/١٣٩-١٤١، وينظر: الطباطبائي: الميزان: ١١/١٧٤-١٧٩.

ويجب أن يكون واحدا، إذ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهرا لكل ما سواه فالإله لا يكون قهارا إلا إذا كان واجبا لذاته وكان واحدا))[1].

وبهذا نلحظ أنَّ النبي يوسف(عليه السلام) قد استعمل حجة قاهرة وهي ((قوله : (أَ أَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) وتقرير هذه الحجة أن نقول : إنَّ الله تعالى بين أن كثرة الآلهة توجب الخلل والفساد في هذا العالم وهو قوله : ﴿لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا﴾[2] والمراد منه الإستفهام على سبيل الإنكار))[3]فكأنَّه (عليه السلام) قدح قدحة في أذهان الفتيين لكي يتفكروا فيهديهم تفكيرهم إلى الحق ووحدانية الله تعالى.

يتَّضح ممّا تقدَّم أنَّ الأسلوب غير المباشر أجدى نفعاً من غيره في استقطاب المتلقي لأنَّه يدعو المتلقي ليبدأ بالتفكير وإثارة العقل فيصل إلى المضمون بنفسه فيؤمن عن يقين ودراية لأنَّ ما كان عبده أولئك مجرد أسماء لا حقيقة لها فقد أتى عليها ونسفها تماما فلم يقل(عليه السلام) لهم:{أصناما} فيحفظ واقعها المادي، بل تعاطى معها على أساس أنَّها أوهام إذ يقول لهم نبي الله يوسف(عليه السلام) (ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلاَّ أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ للهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ) فنجده أمرهم بالعبادة في نهاية الاستدراج لأنَّهم أصبحوا مستعدين لتقبل الأمر وههنا تتضح فائدة الاستدراج في الدعوة إلى الله تعالى والإيمان بوحدانيته مطلقا.

ممَّا تقدَّم يتَّضح جليا ما تضمنته هذه الآيات المباركات من الاستدراج الذي قام به نبي الله يوسف (عليه السلام) لصاحبيه في السجن حيث أراد أن يدعوهما إلى عبادة الله الواحد الأحد الفرد الصمد وترك عبادة الأوثان، فلم يصرح بذلك من أول الأمر لأنَّ ذلك سيواجه بالرفض منهما، فقام باستدراجهما إلى الإيمان بالله تعالى من خلال إثبات أنَّ عبادة الآلهة المتفرقة اعتقاد باطل إذا ما قوبل بعبادة الإله الواحد القهار الذي بيده كل شيء، وكيف يعبد الإنسان صنما صنعه بيده ثم أطلق عليه تسميات لا حقيقة لها فكيف يعبد ما لا يضر ولا ينفع وهو محتاج إلى من يدافع

---

[1] ـ الرازي: التفسير الكبير: ١٣٩/١٨-١٤١، وينظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي: ٢٨٨/٣-٢٨٩، الطباطبائي: الميزان: ١٧٤/١١-١٧٩.

٢ ـ سورة الأنبياء:٢٢.

[3] ـ الرازي: التفسير الكبير: ١٣٩/١٨-١٤١، وينظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي: ٢٨٨/٣-٢٨٩، الطباطبائي: الميزان: ١٧٤/١١-١٧٩.

عنه، فكيف يعبد المحتاج محتاجاً ؟ فلا بدّ من أن يكون الإله قادراً قوياً قهاراً لا يعجزه شيء، خالقاً لا مخلوقاً فإذا عبد الإنسان المخلوق مخلوقاً مثله فما الفرق بين العبد وإلهه؟

استدراج النبيّ محمّد (صلى الله عليه وآله وسلم) للمشركين:

اذا كانت مهمة النبيُّ هي الدعوة الى الله تعالى فإنَّه لابدَّ والحال هذه من أن يستعمل اسلوب الاستدراج ليدعو قومه الى ما تريده السماء، ومن جنس ذلك الاستدراج هو استدراج الرسول الاكرم محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) لقومه وذلك في قوله تعالى: ﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ❖ لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ❖ لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ❖ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هاتُوا بُرْهانَكُمْ هذا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ❖ وَما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [1].

من الواضح أنَّ النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله) استعمل الاستدراج لإثبات وحدانية الله تعالى في الألوهية في توظيفه صفة الانشار للآلهة المدعاة في قوله (أمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ)إذ يقول النسفي(ت٥٣٧هـ): (((أمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً... هُمْ يُنْشِرُونَ) يحيون الموتى ومن الأرض صفة الآلهة لأنَّ آلهتهم كانت متخذة من جواهر الأرض كالذهب والفضة والحجر وتعبد في الأرض فنسبت إليها ... وفي قوله (هُمْ يُنْشِرُونَ) زيادة توبيخ وإن لم يدّعوا أنَّ أصنامهم تحيي الموتى، وكيف يدّعون ومن أعظم المنكرات أن ينشر الموتى بعض الموات أنَّه يلزم من دعوى الألوهية لها دعوى الإنشار لأنَّ العاجز عنه لا يصح أن يكون إلها إذ لا يستحق هذا الإسم إلاَّ القادر على كل مقدور والإنشار من جملة المقدورات))[2].

ثم أثار أذهانهم استدراجا إلى وحدانيته سبحانه بقوله (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا فَسُبْحانَ اللهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) فـ ((المعنى: لوكان يتولاهما ويدبر أمرهما آلهة شتى غير الواحد الذي هو فاطرهما لفسدتا وفيه دلالة على أمرين: أحدهما: وجوب أن لا يكون مدبرهما إلا إله واحد، والثاني: أن لا يكون ذلك الواحد إلا إياه وحده لقوله إلا الله. وإن قلت: لم وجب الأمران؟ قلت: لعلمنا أنَّ الرعية تفسد بتدبير الملكين لما يحدث بينهما من التغالب والتناكر والاختلاف ... إذا كانت عادة الملوك والجبابرة أن لا يسألهم من في مملكتهم عن أفعالهم وعما يوردون ويصدرون من تدبير ملكهم تهيبا وإجلالا مع جواز الخطأ والزلل وأنواع الفساد عليهم

---

[1]- سورة الأنبياء: ٢١-٢٥.

[2]- النسفي: تفسير النسفي: ٣/٧٧، وينظر: الزمخشري: الكشاف: ٢/٥٦٦-٥٦٧.

كان ملك الملوك ورب الأرباب خالقهم ورازقهم أولى بأن لا يسئل عن أفعاله مع ما علم واستقر في العقول من أنَّ ما يفعله كله مفعول بدواعي الحكمة ولا يجوز عليه الخطأ ولا فعل القبائح (وَهُمْ يُسْئَلُونَ) أي هم مملوكون مستعبدون خطّاءون فما أخلقهم بأن يقال لهم لم فعلتم في كل شيء فعلوه))[1] فكأنَّ النبي الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) كشف لهم عن أهم صفات الإله وهي الوحدانية لأنَّ الشركة تؤول إلى النزاع والتصارع على السلطة والملك وما دام الأمر يجري منتظما ومدبرا بإتقان فهذا لدليل قاطع لمن يتفكر على عدم وجود أكثر من إله، فضلا عن أنَّ الإله لا يسأل عن فعله لأنَّه حكيم ولا حكمة للأصنام التي لا تنطق ولا تفكر ولا ترى البتة، من هنا وجب تركها عقلا.

وقد أضاف صاحب الأمثل على ما قاله المفسرون في قوله تعالى: (لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلاَّ اللهُ لَفَسَدَتا) بقوله: ((إذا كانت هناك إرادتان أو عدة إرادات حاكمة في العالم ، فإن لكل واحدة قضاء، وكانت الأخرى تمحو أثر الأولى، وسيؤول العالم إلى الفساد عندئذ،... وهنا يثار سؤال ... وهو : إن تعدد الآلهة يكون منشأ للفساد عندما يحارب أحدها الآخر، أما إذا إعتقدنا بأنَّ هؤلاء أفراد حكماء عالمون، فإنهم يتعاونون فيما بينهم ويديرون العالم، وجواب هذا السؤال لا لبس فيه:

فإنَّ كونهم حكماء لا يزيل تعددهم، فعندما نقول : إنَّهم متعددون، فإنَّ معناه إنهم ليسوا متحدين من جميع الجهات، لأنهم إن اتَّحدوا من كل الجوانب أصبحوا إلها واحدا، وبناء على ذلك فأينما وجد التعدد وجد الاختلاف الذي يؤثر في الإدارة والعمل شئنا أم أبينا، وهذا سيجر عالم الوجود إلى الهرج والمرج . وقد استند في بعض هذه الاستدلالات إلى أنَّه لو كان هناك إرادتان حاكمتان على الخلق، لما كان هناك عالم أصلا. في حين ان هذه الآية تتحدث عن فساد العالم واختلال النظام، لا عن عدم وجود العالم. ومن اللطيف أن نقرأ في حديث يرويه هشام بن الحكم عن الإمام الصادق (عليه السلام) في جواب الرجل الملحد الذي كان يتحدث عن تعدد الآلهة أنَّه قال : (لا يخلو قولك أنهما إثنان من أن يكونا قويين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويا والآخر ضعيفا، فإن كانا قويين فلم لا يدفع كل واحد منهم صاحبه وينفرد بالتدبير، وإن زعمت أنَّ أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنَّه واحد كما تقول، للعجز الظاهري للثاني ، وإن قلت: إنَّهما اثنان، لا يخلو من أن يكونا متفقين من كل جهة أو مفترقين من كل جهة، فلما رأينا الخلق منتظما،

[1] ـ الزمخشري: الكشاف : ٢/٥٦٨-٥٦٩.

والفلك جاريا، واختلاف الليل والنهار، والشمس والقمر، دلّ صحة الأمر والتدبير وائتلاف الأمر أن المدبر واحد)[1]))[2] .

بهذا نلحظ أن النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) باستدراجهم بمقولة الإلهين قد أثار عقول الكفرة والمشركين إلى الأمور التي لم يفكروا بها وقد غابت عن أذهانهم بسبب غيِّهم وتماديهم في الكفر من دون إعمال عقولهم منطقيا لفهم حقيقة كيفية جريان الكون على نظام واحد ومشيئة واحدة؛ لذا عليهم أن يعيدوا النظر بها ليدركوا حقيقة الوهم الذي هم واقعون فيه، وبعد إثارة تفكيرهم تسنَّى له (صلوات الله عليه) أن يطالبهم بالبرهان لينتهوا إلى انَّهم لا برهان لهم فيعلموا انهم على باطل حينئذ دون أدنى شك، يقول الزمخشري انه تعالى قال: (((أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً) استفظاعا لشأنهم واستعظاما لكفرهم: أي وصفتم الله بأن يكون له شريكا فهاتوا برهانكم على ذلك))[3] أي على وجود شركاء وحيث لا شركاء ولا برهان يثبت لديهم انَّهم غير منصفين وانهم على ضلالة، فإن بحثتم ((فإنكم لا تجدون كتابا من كتب الأولين إلا وتوحيد الله وتنزيهه عن الأنداد مدعو إليه والأشراك به منهي عنه متوعد عليه أي (هذا) الوحي الوارد في معنى توحيد الله ونفي الشركاء عنه كما ورد فقد ورد على جميع الأنبياء، فهو ذكر: أي عظة للذين معي: يعني أمته، وذكر للذين من قبلي: يريد أمم الأنبياء (عليهم السلام) ... والمعنى: أنَّ إعراضهم بسبب الجهل هو الحق لا الباطل ... (يوحى) ونوحي مشهورتان، وهذه الآية مقررة لما سبقها من آي التوحيد))[4].

لقد اتَّضح من كلام المفسرين في تفسيرهم لهذه الآيات المباركات التي صوّرت لنا الاستدراج ، حيث أن القرآن الكريم استدرج المشركين إلى إثبات وحدانية الله تعالى وإنه لا شريك له ولا ظهير، إذ استنكر القرآن الكريم عليهم عبادتهم للأصنام التي يصنعونها بأيديهم فهي مخلوقة وليست خالقة، فهي لا تصلح لأن تكون آلهة لأنَّ الإله لا بدّ من أن يكون قادرا لا يعجزه شيء، فكيف يمكن للصنم المصنوع من الأرض أن يكون إلهاً يدبر أمور عبيده وهو يحتاج إلى من يرعاه؟

وإذا كان هناك أكثر من إله فلا بدّ من أن يقع التضاد والاختلاف بينهم فينعكس ذلك على إدارة أمر الكون فيضطرب أمره ويصيبه الخراب والدمار.

---

[1]- الكليني: الكافي: ٨١/١.

[2]- الشيرازي: الأمثل: ١٤٦/١٠-١٤٧.

[3] - الزمخشري: الكشاف: ٥٦٨/٢-٥٦٩.

[4]- الزمخشري: الكشاف: ٥٦٨/٢-٥٦٩، وينظر: ابن الجوزي: زاد المسير: ٢٣٨/٥-٢٣٩، الغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل: ٢٤/٣-٢٥، الفيض الكاشاني: التفسير الصافي: ٣٣٤/٣-٣٣٥، عبد الرحمن بن ناصر السعدي : تيسير الكريم الرحمن: ٥٢١.

وكرَّر القرآن الكريم ذلك الإستنكار لعلهم ينتبهون من غفلتهم ويعودون إلى رشدهم، وأمر الله تعالى نبيه الكريم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) يطالبهم بالدليل على صحة عبادتها فلا بدّ من أن يكون هناك دليل على ذلك وبما أنَّهم لا يملكون دليلا فقد ثبت أنَّهم على باطل، ثم قال لهم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنَّه جاء داعيا إلى توحيد الله تعالى كما دعا الأنبياء (عليهم السلام) من قبله، وبذلك فقد استدرجهم القرآن الكريم إلى أنَّ عبادتهم للأصنام من دون الله تعالى إنَّما هي باطل يفتقر إلى الدليل، وإنَّ الحق الذي يجب عليهم اتباعه هو القرآن الكريم الذي يدعوهم إلى التوحيد مصدقا للأنبياء (عليهم السلام) الذين جاءوا من قبل لهداية البشر.

بهذا نجد أنّ الاستدراج الذي أثبت أنَّ الله تعالى واحدٌ أحدٌ لا شريك له ولا ظهير كان يعتمد جملة من الوسائل الإقناعية المودعة في التعبير المعجز التي من شأنها أن تجعل المتلقي يسلم بذلك، وقد كانت على النحو الآتي:

١. استعمل القرآن الكريم الملاطفة واللين في حواره مع الكفار والمشركين مع أسلوب الاستفهام الإنكاري الذي يدعو المتلقي إلى التأمل وإعادة النظر فيما يعتقد، وبيّن الأدلة التي تثبت بطلان عبادة الأصنام والكواكب فكلاهما محدودان الأصنام بالمكان والكواكب بالزمان؛ فالصنم الذي يكون في مكانٍ ما لا يمكنه أن يرعى عبيده الذين هم بعيدين عنه فمن يهتم بهم؟! والكوكب الذي يظهر بالليل أو بالنهار لوقت معين ثم يغيب فمن يرعى عباده في أثناء غيابه؟! فالإله لا بدّ من أن يكون راعيا ومدبراً لشؤون عبيده في كل الأوقات وهذه صفة الإله؛ بهذا ثبت أنّ الذي صفته الحاجة إلى الزمان والمكان لا يصلح أن يكون إلهاً فإذا ثبت ذلك فقد ثبت بأنّ الله تعالى هو وحده من يستحق العبادة كما في قوله تعالى:﴿ اللهُ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ﴾[1].

٢. إلفات أنظارهم إلى أنّ الإله يجب أن يكون واحداً لا شريك له لأنَّ تعدد الآلهة وتفرقها يؤدي إلى النزاع والاختلاف ومن ثم فساد نظام الكون؛ وبما أنّ كل ما في الكون يجري على وفق تدبير محكم ونظام دقيق فإنَّ ذلك يدل بالحتمية على أنّ هناك إلهاً واحداً بيده مقاليد السماوات والأرض وبذلك فقد ثبت أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ولا وزير.

٣. إنَّ استدراج النبيين إبراهيم ويوسف(عليهما السلام) كان في سياق العبادة فالنبي ابراهيم(عليه السلام) أنكر عليهم عبادتهم للأصنام من دون الله تعالى، وكذلك فعل نبي

[1] ـ سورة البقرة:٢٥٥.

الله يوسف(عليه السلام)حينما سألهم عن الذي يستحق العبادة فهل هم الأرباب المتفرقون المختلفون؟ أم الإله الواحد القاهر الذي لا يعجزه شيء.

٤. إنَّ النبيَّ محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) كان استدراجه لقومه في سياق نظام الكون فإنَّ إنتظام أمر الكون ودقة تدبيره يدلان على وحدانيته تعالى.

المبحث الثاني: الاستدراج في نطاق إثبات خالقية الله تعالى:

إنَّ القرآن الكريم المعجز المنزل من السماء ينصُّ على أنَّ خالق هذا الكون ومبدعه هو الله الذي لا إله إلا هو؛ فليس هناك خالق بمعنى الإيجاد من العدم سواه جلَّ وعلا قال تعالى: ﴿قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1]، وقال أيضاً : ﴿ذلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾[2].

والظاهر أنَّ هذه الحقيقة الماثلة لا ينحصر طريق إثباتها بما أنزله الله تعالى من الآيات القرآنية صراحةً؛ بل إنَّ العقل يؤكد ذلك ويقرُّه، لأنَّ كل ما في الوجود من موجودات مفتقر الى الله في خلقه وإيجاده وكذلك في بقائه، فالله تعالى هو الخالق الوحيد بلا منازع أو شريك[3] .

وإنَّنا حينما نريد أن نبحث عما تضمنه القرآن الكريم من أساليب كلامية لاستدراج الكفار والمشركين للإيمان بخالقيته سبحانه وتعالى وتوحيده نجد أنَّ هناك كثيراً من الآيات القرآنية التي تتحدث عن هذا الموضوع، ومن جنس الاستدراج في التعبير القرآني للإيمان بخالقية الله تعالى لهذا الكون قوله تعالى: ((هذا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ))[4]

يقول الطبري(ت٣١٠هـ) في تفسيره لهذه الآية: ((هذا الذي عددت عليكم أيها الناس أني خلقته في هذه الآية خلق الله الذي له ألوهة كل شيء وعبادة كل خلق الذي لا تصلح العبادة لغيره، ولا تنبغي لشيء سواه؛ فأروني أيها المشركون في عبادتكم إيَّاه من دونه من الآلهة والأوثان أي شيء خلق الذين من دونه من آلهتكم وأصنامكم حتى استحقت عليكم العبادة فعبدتموها من دونه؛ كما استحق ذلك عليكم خالقكم وخالق هذه الأشياء التي عددتها عليكم))[5] .

نجد أنَّ الله تعالى قد أثبت لنفسه الخلق بالجملة الإسمية بقوله {هذا خَلْقُ اللهِ} بَيد انَّه لم يكتفِ بهذا الإخبار بل استرسل من أجل اثبات هذه الخالقية على سبيل توظيف أسلوب استدراج المتلقي لإقناعة بحقيقة هذه الخالقية وانَّه ليس لأحد أن يخلق أي شيء سواه؛ لذلك فقد أتمَّ تعالى

---

[1]- سورة الرعد:١٦.

[2]- سورة غافر:٦٢.

[3]- ينظر: السبحاني: العقيدة الإسلامية:٤٩،والتوحيد والشرك في القرآن للمؤلف نفسه:٧-٨.

[4] سورة لقمان :١١.

[5] الطبري: جامع البيان:٢١/٨٠،وينظر: الطوسي: التبيان:٨/٢٧٤ـ٢٧٨،والنسفي: تفسير النسفي:٣/٢٨٢، والزمخشري: الكشاف:٣/٣٣٠-٣٣١، والشوكاني: فتح القدير:٤/٢٣٥.

قوله فقال:{فَأَرُونِي ماذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} فهنا طالبهم بالدليل على وجود خلق للذين من دونه؛ فإن كنتم أيُّها الكافرون والمنكرون بأنَّ الله تعالى قد خلق الخلق وأوجد الوجود فإني أقول لكم بأنَّ الله تعالى هو الخالق الوحيد؛ فإن كنتم لا تؤمنون وترون بأنَّ هناك خالقا آخر {فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} فاستعمل أسلوب الطلب بقوله {فَأَرُونِي}وقد ذهب الآلوسي(ت١٢٧٠هـ) إلى القول بأنَّ((والفاء واقعة في جواب شرط مقدر أي: إذا علمتم ذلك فأورني))[1] لكنَّ الأظهر لدى الباحثة انَّ الفاء المتصدرة للفعل {أروني} إنَّما هي تعليلية لإثبات خالقيته سبحانه أي أن المراد هو القول: أنا خالقهم جميعا لذا أروني ماذا خلق الذين من دوني.

وعند معاودة النظر الى فعل الأمر (الطلب) { فَأَرُونِي} نلحظ انَّ فيه إجهاض لأي قناعة تنصرف إلى القول بأنَّ ثمة خلقاً لغير الله تعالى ذلك بأن لو كان فعلا هناك خلق لغير الله تعالى فأين هو، هيا أروني إيَّاه، ولكن حينما يُخاطَب الكافرون بهذه الحيثية الطلبية على صيغة الأمر التبكيتي فإنهم يقعون –حتماً – في حيرة كبيرة لأنَّه لا إثبات ولا دليل مطلقا على أن ثمة خالق لله تعالى.

فضلاً عن أنَّ هذا الاستدراج للإيمان بالخالقية لله تعالى قد انطوى على دليل قطعي يثبت الخالقية للخالق سواء أكان الله تعالى أم غيره ممَّن هم دونه، وهو وجود الخلق الماثل أمامهم فحينما قال تعالى (فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) فإنَّه أثبت بأنَّ الله تعالى هو الخالق وأن دليل الخالق هو وجود الخلق عينه، وبهذا فإن كان هناك غير الله من خالق فأين خلقه لأنَّ الوجود يدل على الواجد، وحينما لا يوجد وجود غير الوجود الذي أوجده سبحانه خلقاً ثبت بالدليل أنَّه لا خالق غيره البتة، إذ حينما يركن الكافرون الى ما دون الله تعالى ويتأملون أين الخلق الذي خلقه هؤلاء سيصلون إلى نتيجة حتمية وهي عدم وجود خلق (الدليل) وبفقدان الخلق يُفقتد الخالق (انتفاء المدلول عليه) مطلقاً، فكان هذا الاسلوب الأمري ببيان الدليل على الخالقية يستدرج المتلقي للتفكير لبناء قناعة تأخذ بيديه للوقوف على حقيقة الخلق (الدليل) وحقيقة نسبة هذا الخلق الى الله تعالى (الخالق المستدل على خالقيته بخلقه)، وبهذا يثبت عدم وجود خالق غيره، ومن الجميل أن يعبر النصّ عن الآخرين بقوله {الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ} فهذه إشارة الى أن الكل هم دون الله تعالى ولَّما كان الله تعالى هو الخالق والوحيد وأن الكل دونه دلَّ ذلك على أنَّه لا خالق إلا هو لأنَّهم الكل دونه فالخلق له وحده.

وبهذا الاستدراج يثبت القرآن الكريم قدرة الله تعالى على الخلق وإيجاد الأشياء من العدم فكل ما في الوجود من مخلوقات هي لله تعالى فهو الذي خلق الكون بكل دقة وإتقان فهم يرون

[1] ـ الآلوسي: روح المعاني:٨٢/٢١.

خلق أنفسهم أولاً فالله تعالى قد خلق الإنسان من التراب ووهب كل القدرات والإمكانات التي تمكنه من عمارة الأرض واستصلاحها وسخّر له كل ما في الكون من حيوان ونبات فهو سيِّد المخلوقات فقد فضله الله تعالى بالعقل، ومن ثمَّ لينظر الإنسان ويتفكر في خلق السماوات والأرض والجبال والأنهار وكل المخلوقات من حوله لتتجلى له عظمة الخالق وقدرته فكل ما في الوجود يحكي عن بديع صنع الله تعالى وقدرته المطلقة التي لا تقف عند حدٍ معين ؛ فكل ما يراه الإنسان في هذا الوجود هو ما خلقه الله تعالى فهو الخالق العظيم الذي نرى عظمة خالقيته في كل ما حولنا، وبعد أن بيَّن القرآن الكريم خالقية الله تعالى قال لهم (فَأَرُونِي ما ذا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) فإذا كان كل ما نشاهده هو خلق الله تعالى فأين المخلوقات التي خلقتها آلهتكم؟ فهل خلقت شيئاً لتستحق العبادة من دون الله تعالى؟

وبما أنَّ آلهتهم من أصنام وغيرها ممّا يعبد عاجزة عن خلق شيء وإنها تحتاج لمن يخلقها فالصنم يصنعه صاحبه ثمَّ يعكف على عبادته فهو في هذه الحالة إنّما يستهزيء بنفسه فكيف يعبد الصنم الذي خلقه بيده؟ أليس من الواجب أن يكون الإله خالقاً ليُعبد!! وإذا لم تكن لآلهتم القدرة على الخلق فكيف يدّعون لها الربوبية ويعكفون على عبادتها ويقدمون لها القرابين؟

وقد قال أبو السعود (ت٩٥١هـ) في تفسير آخر هذه الآية: ((وقوله تعالى (بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ) اضراب عن تبكيتهم بما ذكر إلى التسجيل عليهم بالضلال البيِّن المستدعي للإعراض عن مخاطبتهم بالمقدمات المعقولة الحقَّة لاستحالة أن يفهموا منها شيئا فيهتدوا به إلى العلم ببطلان ما هم عليه أو يتأثروا من الالزام والتبكيت فينزجروا عنه ووضع الظاهر موضع ضميرهم للدلالة على أنَّهم بإشراكهم واضعون للشيء في غير موضعه ومتعدون عن الحدود وظالمون لأنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد))[1].

وبذلك يتبين كيف أنَّ القرآن الكريم استدرجهم باسلوبه الرائع إلى أنَّ الله تعالى هو الخالق المدبر وإنَّ عبادتهم للأصنام هي ظلم لأنفسهم أولاً لابتعادهم وانحرافهم عن الطريق المستقيم فالعقل يحكم بوجوب عبادة الإله الذي له القدرة على الخلق وترك عبادة الأصنام التي تحتاج الى خالق أو صانع يصنعها .

[1] أبو السعود: تفسير أبي السعود:٧/٧٠-٧١،وينظر:الشيرازي: الأمثل:١٣/٣١.

ومن الآيات الأخرى التي تتحدث عن خالقية الله تعالى هي قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾ [1]

فعندما نعود إلى كتب التفسير لنرى بماذا فسروا هذه الآية المباركة نجد أنَّهم ذكروا أنَّ الله تعالى يذكِّر الناس بالنعم التي أنعم تعالى بها عليهم؛ فإنَّ هذا التذكر والتأمل يوصلهم إلى معرفة خالقهم ورازقهم وبذلك يستدرجهم إلى الإيمان بأنَّه تعالى هو الخالق الذي لا شريك له .

يقول ابن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) في تفسيره: ((يا أيُّها الناس اذكروا نعمة الله التي أنعمها عليكم بفتحه لكم من خيراته ما فتح وبسطه لكم من العيش ما بسط وفكروا فانظروا هل من خالق سوى فاطر السماوات والأرض الذي بيده مفاتيح أرزاقكم ومغالقها يرزقكم من السماء والأرض فتعبدوه دونه لا إله إلا هو يقول: لا معبود تنبغي له العبادة إلا الذي فطر السماوات والأرض، القادر على كل شئ، الذي بيده مفاتح الأشياء وخزائنها، ومغالق ذلك كله، فلا تعبدوا أيها الناس شيئا سواه، فإنَّه لا يقدر على نفعكم وضركم سواه، فله فأخلصوا العبادة، وإياه فأفردوا بالألوهة (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) يقول: فأي وجه عن خالقكم ورازقكم الذي بيده نفعكم وضركم تصرفون))[2].

وقد أشار الطوسي (ت٤٦٠هـ) في تفسيره للآية المباركة إلى إنَّ هذا الخطاب للمؤمنين وليس لجميع الناس كما قال الطبري حيث يقول: ((ثم خاطب المؤمنين فقال (يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) بأن خلقكم وأوجدكم وأحياكم وأقدركم وشهاكم، وخلق لكم المنافع التي تنتفعون بها (هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ) تقريرا لهم على أنه لا خالق غير الله في السماوات والأرض (يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ) بالمطر ومن {الأرض} بالنبات (لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ) أي لا معبود يستحق العبادة سواه تعالى (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أي كيف تقلبون عن طريق الحق إلى الضلال . وإنما قال (هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ)وإن كان أحدنا يخلق الشيء لأن هذه الصفة لا تطلق إلا عليه تعالى، فأما غيره فإنها تقيد له . وأيضا فقد فسر ما أراد وهو أنه هل من خالق رازق للخلق من السماوات والأرض غير الله أي لا خالق على هذه الصفة إلا هو . هذا صحيح لأنه لا أحد يقدر على أن يرزق غيره من السماء والأرض بالمطر والنبات وأنواع الثمار))[3].

---

[1]- سورة فاطر:٣.

[2]الطبري: جامع البيان:١٣٩/٢٢، وينظر: ابن زمنين: تفسير ابن زمنين:٢٤/٤،وابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز:٤٢٩/٤،والغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل:١٥٤/٣.

[3]الطوسي:التبيان:٤١٢/٨-٤١٣، وينظر: الطبرسي: مجمع البيان:٢٣٢/٨.

في ضوء ما تقدَّم من أقوال المفسرين يتبين أنَّ هناك رأيين في المقصود بالخطاب، فبعض المفسرين قالوا: بأنَّها خطاب للمشركين، وبعضهم الآخر قال: بأنَّها خطاب للمؤمنين.

أما الرازي(ت٦٠٦هـ) فعندما شرع في تفسير هذه الآية لم يخصص خطابها بالمؤمنين أو الكفار والمشركين وإنَّما جعلها عامة لجميع الناس[1]، والذي ترجِّحه الباحثة هو رأي الرازي لأنَّه خطاب الآية عام موجه للناس جميعا ولا قرينة تدلُّ على تخصيصه.

إنّنا عندما نتأمل قليلاً في هذه الآية المباركة نرى فيها مفاصل الاستدراج واضحة فالقرآن الكريم يتدرج معهم في الحديث حتى يقنعهم شيئاً فشيئاً بأن الله تعالى هو خالقهم لا غيره ممّا يعبدون .

ففي بداية الآية يخاطب القرآن الكريم جميع الناس يذكرهم بنعم الله تعالى عليهم حيث يقول:(. يا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ) فهو يذكِّرهم بالنعم التي منّ الله تعالى بها عليهم فهم يتمتعون بها ومهما عملوا فلن يستطيعوا أن يؤدوا شكرها، ثم خاطبهم بقوله:(((هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ) ...وهذا استفهام تقرير وتوبيخ، والمعنى : لا خالق سواه (يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ) المطر (وَ) من (الأَرْضِ) النبات))[2] فقد استعمل القرآن الكريم أسلوب الاستفهام فيسألهم عن وجود خالق غير الله تعالى ليحرك عقولهم فلا يوجد إله في هذا الوجود له القدرة على الخلق والرزق غيره؛ ولم يقل لهم مباشرة إن الخالق واحد لا غيره وهو الله تعالى فقد يحدث هذا ردة فعل لديهم؛ لذا استعمل سبحانه أسلوب الاستدراج لأنَّه تعالى أرادهم أن يتوصلوا إلى هذه الحقيقة بأنفسهم من خلال بحثهم عن الجواب لسؤال القرآن الكريم وما توصلت اليه النفس بنفسها أولى بالقناعة مما وجِّه اليها مباشرة من دون تفكر وتأمل وعمق في التصور.

وأمّا قوله (((هَلْ مِنْ خالِقٍ) ليكون إشارة إلى برهان ثان ينقطع به الخصام، فإنَّهم يرون تدبير العالم لآلهتهم بإذن الله فلو قيل: هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام وأمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله إليهم لكن لما قيل : (هَلْ مِنْ خالِقٍ) أشير بالوصف إلى أنَّ الرازق والمدبر هو خالق الرزق لا غير فانقطع الخصام ولم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفي خالق غير الله يرزقهم من السماء والأرض. وقوله : (لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ) اعتراض بالتوحيد يفيد التعظيم نظير قوله :

---

[1] ينظر: الرازي: التفسير الكبير:٤/٢٦، وأبو السعود: تفسير أبي السعود:١٤٢/٧، وعبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٦٨٤،والطباطبائي:الميزان:١٦/١٧.

[2] ابن الجوزي: زاد المسير:٢٤٦/٦.

﴿وَقالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَداً سُبْحانَهُ﴾[1] . أي لا معبود بالحق إلا هو لأنَّ المستحق للعبادة هو الذي ينعم عليكم ويرزقكم وليس إلا الله . وقوله : (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) توبيخ متفرع على ما سبق من البرهان أي فإذا كان الأمر هكذا وأنتم تقرون بذلك فإلى متى تصرفون عن الحق إلى الباطل ومن التوحيد إلى الاشراك))[2].

إن المتأمل لهذه الآية وما قاله المفسرون يجد الاستدراج واضحاً جلياً، فإنَّ الله تعالى يخاطب الناس سواء كانوا مؤمنين أم مشركين فيذكرهم بالنعم التي أنعم بها عليهم فما يتنعمون به من العطاء الإلهي الذي لا يعد ولا يحصى إنَّما هو من الله الخالق والرازق لا من سواه ممن عبدوه، فهو تعالى الذي خلقهم أولاً ثم خلق هذه النعم لهم ثانياً فهو وحده الذي يستحق العبادة، وأنكر تعالى عليهم ميلهم وانحرافهم عن التوحيد إلى الشرك به تعالى، فإنَّ الله تعالى عندما ذكرهم بنعمه عليهم وسألهم تعالى عن الخالق الذي يخلقهم ويرزقهم من دونه وسكوتهم عن الإجابة دليل على أنهم لا يعرفون من له القدرة على الخلق والرزق غيره؛ بهذا ثبت أن لا خالق ولا رازق إلا الله وحده فهو الذي تجب على جميع الخلق عبادته وطاعته، وبذلك فقد استدرجهم إلى الإيمان بخالقية الله تعالى .

ومن الآيات القرآنية المباركة التي تستدرج المشركين والكفار إلى الإيمان بأنَّ الله تعالى هو الخالق الذي خلق الكون وقدره هي قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ❖ أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾ [3]

لقد تحدَّث المفسرون عن المعنى الذي أشارت إليه الآيتان المباركتان؛ إذ يقول البغوي(ت٥١٠هـ) في تفسيره:(((أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ) قال ابن عباس: من غير رب ومعناه: أخلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق؟ وذلك مما لا يجوز أن يكون لأنَّ تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الإسم فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق (أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ) لأنفسهم وذلك في البطلان أشد لأنَّ ما لا وجود له كيف يخلق؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأنَّ لهم خالقا فليؤمنوا به ... (أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالأَرْضَ) فيكونوا هم الخالقين ليس الأمر كذلك (بَلْ لا يُوقِنُونَ)))[4].

---

١ ـ سورة البقرة:١١٦.

[2]الطباطبائي: الميزان:١٦/١٧.

[3]ـ سورة الطور:٣٥-٣٦.

[4] البغوي: تفسير البغوي: ٢٤١/٤،وينظر: النسفي: تفسير النسفي:١٨٦/٤،والطبرسي: مجمع البيان:٢٨٠/٩،والطبابائي: الميزان:٢٠/١٩.

ويبدو أن أبا حيّان الأندلسي(ت٧٤٥هـ) لا يخرج عمّا قاله المفسرون لكنَّه عقَّب على كون الافتراضين باطلين أي إنَّهم خلقوا عبثاً أو من غير مقدر فيقول: ((والقسمان باطلان، وهم يعترفون بذلك، فدلَّ على بطلانهم . وقال ابن عطية: ثم وقفهم على جهة التوبيخ على أنفسهم، أهم الذين خلقوا الأشياء فهم لذلك يتكبرون؟ ثم خصص من تلك الأشياء السماوات والأرض لعظمها وشرفها في المخلوقات، ثم حكم عليهم بأنَّهم لا يوقنون ولا ينظرون نظرا يؤديهم إلى اليقين))[1].

ويبدو أن الشنقيطي(ت١٣٩٣هـ) لم يخرج عمّا ذكره المفسرون لكنَّه لخصَّ تفسير الآية بأنَّ الله تعالى أقام الحجة عليهم بأنَّ أمر خلقهم لا يعدو ثلاث أحوال وبيَّن تعالى لهم بطلان الحالين فلم تبق الاّ حال واحدة يجب على كل عاقل أن يؤمن بها فيقول ما نصه: ((فكأنه تعالى يقول: لا يخلو الأمر من واحدة من ثلاث حالات بالتقسيم الصحيح، الأولى: أن يكونوا خلقوا من غير شيء أي بدون خالق أصلا. الثانية: أن يكونوا خلقوا أنفسهم . الثالثة: أن يكون خلقهم خالق غير أنفسهم . ولا شك أن القسمين الأولين باطلان، وبطلانهما ضروري كما ترى، فلا حاجة إلى إقامة الدليل عليه لوضوحه. والثالث هو الحق الذي لا شك فيه، وهو جلَّ وعلا خالقهم المستحق منهم أن يعبدوه وحده جلَّ وعلا))[2]

ويظهر أنَّ الشيرازي اقتصر في تفسيره لهذه الآية الموجزة على ما تضمنته هذه الآية من إستدلالات على خالقية الله تعالى وتوحيده فيقول في ذلك: ((وهي آيات تبدأ جميعها بـ {أم} التي تفيد الاستفهام وتشكل سلسلة من الاستدلال في أحد عشر سؤالا متتابعا (بصورة الاستفهام الإنكاري)، وبتعبير أجلى: إنَّ هذه الآيات تسد جميع الطرق بوجه المخالفين فلا تدع لهم مهربا في عبارات موجزة ومؤثرة جدا بحيث ينحني الإنسان لها من دون اختياره إعظاما ويعترف ويقر بانسجامها وعظمتها . فأول ما تبدأ به هو موضوع الخلق فتقول : (أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ). وهذه العبارة الموجزة والمقتضبة في الحقيقة هي إشارة إلى (برهان العلية) المعروف الوارد في الفلسفة وعلم الكلام لإثبات وجود الله، وهو أنَّ العالم الذي نعيش فيه مما لا شك - فيه - حادث (لأنَّه في تغيير دائم، وكل ما هو متغير فهو في معرض الحوادث، وكل ما هو في معرض الحوادث محال أن يكون قديما وأزليا) . والآن ينقدح هذا السؤال، وهو إذا كان العالم حادثا فلا يخرج عن الحالات الخمس التالية :

١- وجد من دون علة !

٢ - هو نفسه علة لنفسه .

---

[1]- أبوحيّان الأندلسي: البحر المحيط:١٤٩/٨.

[2]- الشنقيطي: أضواء البيان:٤٩٤/٣.

٣ - معلولات العالم علة لوجوده .
٤ - إنَّ هذا العالم معلول لعلة أخرى وهي معلولة لعلة أخرى إلى ما لا نهاية .
٥- إنَّ هذا العالم مخلوق لواجب الوجود الذي يكون وجوده ذاتيا له. وبطلان الاحتمالات الأربع المتقدمة واضح، لأنَّ وجود المعلول من دون علة محال، وإلا فينبغي أن يكون كل شئ موجودا في أي ظرف كان، والأمر ليس كذلك! والاحتمال الثاني: وهو أن يوجد الشئ من نفسه محال أيضا، لأنَّ مفهومه أن يكون موجودا قبل وجوده، ويلزم منه إجتماع النقيضين ... وكذلك الاحتمال الثالث: وهو أنَّ مخلوقات الإنسان خلقته، وهو واضح البطلان إذ يلزم منه الدور!. وكذلك الاحتمال الرابع: وهو تسلسل العلل وترتب العلل والمعلول إلى ما لا نهاية أيضا محال، لأنَّ سلسلة المعلولات اللا محدودة مخلوقة، والمخلوق مخلوق ويحتاج إلى خالق أوجده، ترى هل تتحول الأصفار التي لا نهاية لها إلى عدد ؟ ! أو ينفلق النور من ما لا نهاية الظلمة ؟ ! وهل يولد الغنى من ما لا نهاية له في الفقر والفاقة ؟ فبناء على ذلك لا طريق إلا القبول بالاحتمال الخامس: أي خالقية واجب الوجود ... وحيث أنَّ الركن الأصلي لهذا البرهان هو نفي الاحتمالين الأول والثاني فإنَّ القرآن اقتنع به فحسب . والآن ندرك جيدا وجه الاستدلال في هذه العبارات الموجزة ! الآية التالية تثير سؤالا آخر على الادعاء في المرحلة الأدنى من المرحلة السابقة فتقول: (أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالأَرْضَ) فإذا لم يوجدوا من دون علة ولم يكونوا علة أنفسهم أيضا، فهل هم واجبو الوجود فخلقوا السماوات والأرض؟! وإذا لم يكونوا قد خلقوا الوجود، فهل أوكل الله إليهم أمر خلق السماء والأرض؟ فعلى هذا هم مخلوقون وبيدهم أمر الخلق أيضا!! . من الواضح أنهم لا يستطيعون أن يدَّعوا هذا الادِّعاء الباطل، لذلك فإن الآية تختتم بالقول: بل لا يوقنون! أجل، فهم يتذرعون بالحجج الواهية فرارا من الإيمان!))[1]

لقد تبيَّن من خلال ما تقدّم أن الله تعالى قد استدرجهم من خلال خطابه لهم عن طريق القرآن الكريم إلى الإيمان بأنه تعالى خالقهم لا غيره ممن زعموا أنهم فيهم شركاء، فقد قال لهم إنَّهم إما أنْ يكونوا خلقوا عن طريق الصدفة من دون خالق، أو خلقوا من دون هدف من خلقهم بحيث لم يكلفوا بأية تكاليف، أو أنهم خلقوا أنفسهم، ومن الواضح بطلان هذه الإفتراضات الثلاثة لأنَّه من غير المعقول أن يخلقوا عبثاً فلا بدَّ أن يكون هناك هدفٌ من خلقهم، ولا يمكن أن يكونوا قد خلقوا أنفسهم من قبل لأنَّ المعدوم لا يمنح الوجود والميت لا يعطي الحياة فكيف يدّعون بأنهم خلقوا أنفسهم ؟

[1]- الشيرازي: الأمثل:١٧/١٨٧-١٨٨.

ولا يمكن أن يخلقوا من دون خالق فكيف يوجد شيء من غير موجِد له وهذا الأمر من البديهيات عند بني البشر، فلا بدّ أن يكون هناك خالق قد خلقهم من غير جنسهم فهو الذي خلق الخلق وأوجده من العدم ولم يدّعِ أحدٌ منهم بأنَّه خلق السماوات والأرض فهم عاجزون عن تدبير أمورهم إذا لم يوفقهم الله تعالى لذلك وهو الذي خلقهم والسماء والأرض وكل ما في عالم الوجود هو مما أبدعه تعالى من الخلق.

وبذلك فقد استدرجتهم الآية الكريمة إلى الإقرار ببطلان ما اعتقدوه، وهم وإنْ لم يؤمنوا به ولكنَّه أقام الحجة عليهم وأثبت لهم أنَّ الله تعالى هو الذي خلقهم من العدم ووهب لهم الحياة ثم أرسل لهم الأنبياء والمرسلين(عليهم السلام) مبشرين ومنذرين وداعين إلى توحيده.

ومن آيات القرآن الكريمة التي أنكرت على المشركين اعتقادهم بأنَّ الأصنام شركاء لله تعالى في الألوهية والخلق وأبطلت ذلك بالاستدلال على عجزها عن أن تخلق شيئاً يشبه ما خلق الله تعالى وبذلك تستدرجهم الآيات المباركات إلى أن الله تعالى هو الخالق الذي لا يعجزه شيء وهو على كل شيء قدير.

قال تعالى: ﴿أَمْ جَعَلُوا لله شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ﴾[1]

يقول الطوسي(ت٤٦٠هـ) في تفسيره لهذه الآية الكريمة:((ثم قال هل جعلوا يعني هؤلاء الكفار لله شركاء في العبادة خلقوا أفعالا مثل خلق الله، من خلق الأجسام والألوان والطعوم والأراجيح، والموت والحياة، والشهوة والنفار، وغير ذلك من الأفعال التي مختص تعالى بالقدرة عليها فاشتبه ذلك عليهم، فظنوا أنها تستحق العبادة، لأنَّ افعالها مثل أفعال الله، فإذا لم يكن ذلك شبيها بل كان معلوما لهم أنَّ جميع ذلك ليست من جهة الأصنام، فقل لهم: الله خالق كل شيء أي هو خالق جميع ذلك يعني ما تقدم من الأفعال التي يستحق بها العبادة. وقوله (وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ) أي الخالق لذلك واحد لا ثاني له وهو الذي يقهر كل قادر سواه لا يقدر على امتناعه منه))[2].

---

[1]- سورة الرعد:١٦.

[2]- الطوسي: التبيان: ٢٣٧/٦،وينظر:السمعاني: تفسير السمعاني:٨٧/٣،والنسفي: تفسير النسفي:٢١٤/٢،والزمخشري: الكشاف:٣٥٥/٢،والطبرسي: مجمع البيان:٢٦/٦ـ٢٧،والشنقيطي: أضواء البيان:٢٣٩/٢-٢٤٠.

ووافقه على هذا أبو السعود(ت٩٥١هـ) فهو لم يخرج عن سابقه إلاّ أنَّه قال بأنَّ هذا الخطاب قد تضمن التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم حيث يقول ما نصه: (((أَمْ جَعَلُوا للهِ) أي بل أجعلوا له (شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) سبحانه والهمزة لإنكار الوقوع لا لإنكار الواقع مع وقوعه وقوله (خَلَقُوا كَخَلْقِهِ) هو الذي يتوجه إليه الإنكار، وأما نفس الجعل فهو واقع لا يتعلق به الإنكار بهذا المعنى، والمعنى أنهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه (فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ) بسبب ذلك وقالوا هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى فاستحقوا بذلك العبادة كما استحقها ليكون ذلك منشأ لخطئهم بل إنَّما جعلوا له شركاء ما هو بمعزل من ذلك بالمرة وفيه ما لا يخفى من التعريض بركاكة رأيهم والتهكم بهم (قل) تحقيقا للحق وإرشادا لهم إليه (اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ) كافة لا خالق سواه فيشاركه في استحقاق العبادة (وَهُوَ الْواحِدُ) المتوحد بالألوهية المتفرد بالربوبية (الْقَهَّارُ) لكل ما سواه فكيف يتوهم أن يكون له شريك))[1] .

أمّا الآلوسي (ت١٢٧٠هـ) فقد تحدث عمَّا تضمنه قوله تعالى: (كَخَلْقِهِ) من معانٍ فقال: ((وههنا {كخلقه} جيء به مبالغة في إثبات العجز لآلهتهم على سبيل الاستدراج وارخاء العنان، فإنَّه تعالى لما أنكر عليهم أولا اتّخاذهم من دونه شركاء ووصفها بأنّها لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا فكيف تملك ذلك لغيرها، أنكر عليهم ثانيا على سبيل التدرج وصف الخلق أيضا، يعني هب أنَّ أولئك الشركاء قادرون على نفع أنفسهم وعلى نفع عبدتهم فهل يقدرون على أن يخلقوا شيئا، وهب أنهم قادرون على خلق بعض الأشياء فهل يقدرون على ما يقدر عليه الخالق من خلق السموات والأرض... والحق أن الآية ناعية عليهم متهكمة بهم فإنَّ من لا يملك لنفسه شيئا من النفع والضر أبعد من أن يفيدهم ذلك، وكيف يتوهم فيه أنَّه خالق وأن يشتبه على ذي عقل فينبه على نفيه))[2].

ويبدو أن السيد الطباطبائي (ت١٤١٢هـ) يرى بأنَّ المشركين يقرُّون بأنَّ الله تعالى خالق السماوات والأرض كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾[3]، ولكن هم يقولون بأنَّ أصنامنا يشاركونه في الخلق، وفي هذه الآية أثبت القرآن الكريم بطلان دعواهم وأقام الحجة عليهم فيقول ما نصُّه: ((فكأنه تعالى: إذ يقول (أَمْ جَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ)يقول لنبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) هؤلاء تمَّت عليهم الحجة في توحيد الربوبية من جهة اختصاصه تعالى بالخلق والإيجاد فلم يبق لهم إلاَّ أن يقولوا بشركة شركائهم في

---

[1]- أبو السعود: تفسير أبي السعود:١٣/٥، وينظر: الآلوسي: روح المعاني: ١٢٨/١٣-١٢٩.

[2]- الآلوسي: روح المعاني: ١٢٨/١٣-١٢٩.

[3]- سورة لقمان:٢٥وسورة الزمر:٣٨.

الخلق والإيجاد فهل هم قائلون بأنَّ شركائهم خلقوا خلقا كخلقه ثم تشابه الخلق عليهم فقالوا بربوبيتهم اجمالا مع الله. ثم أمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يلقي إليهم ما يقطع دابر هذا الاحتمال فقال: (قُلِ اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْواحِدُ الْقَهَّارُ)والجملة صدرها دعوى دليلها ذيلها أي انَّه تعالى واحد في خالقيته لا شريك له فيها وكيف يكون له فيها شريك وله وحدة يقهر كل عدد وكثرة))[1].

ويبدو واضحاً لكل متأمل ما تضمنته هذه الآية من استدراج للمشركين واقناعهم بوحدانية الله تعالى وتفرده بالخلق والإيجاد؛ فالقرآن الكريم يخاطبهم إذا كنتم تعتقدون بأن آلهتكم التي تعبدون وتعتقدون أنَّها شريكة له تعالى في خلق المخلوقات فهذا إدِّعاء يحتاج إلى إقامة الدليل الذي يثبت صدقه، فهل أنَّ هذه الأصنام خلقت مخلوقاً يشبه مخلوقات الله تعالى بحيث لم يستطيعوا أن يميزوا بين ما خلقه الله تعالى وبين ما خلقته أصنامهم ؟

وحيث إنَّهم لم يجدوا ما يجيبوا به القرآن الكريم فقد بيَّن لهم زيف عقائدهم وبطلانها، ثم قال لهم إنَّ الله تعالى هو الخالق لكل شيء في السماء وفي الأرض وما بينهما وهو خالقهم الذي يدبر أمورهم لا شريك له في ذلك ولا يحتاج إلى من يعينه فهو الواحد القهار فإنَّ إرادته تعالى لا تقهر وهو الذي ينفذ في الكون حكمه وتجري إرادته قال تعالى: ﴿وَهُوَ الْقاهِرُ فَوْقَ عِبادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[2] .

وهكذا فإنَّ الاستدراج الذي أثبت خالقية الله تعالى كان يعتمد جملة من الأساليب والمنظومات الخطابية في الآيات الدالَّة على الخالقية وهي على النحو الاتي:

١- التساؤل عن الخلق الذي خلقه الآخرون الذي يزعمونهم آلهة؛ وهذا يثبت بأنَّ الإله لا يكون إلهاً ما لم يكن خالقا فالعبادة لا يستحقها الإله إلا اذا كان خالق الخلق، وبفقدان هذه الصفة تفتقد الألهوية وبإثباتها الى الله تعالى تثبت له الألوهية وحده وهي حقّاً له وحقيقة إليه وحده لا شريك له البتة.

٢- إنَّ الدليل على الخالقية ليس الإدِّعاء فحسب بل الدليل هو الوجود الخلقي الماثل أمام العين؛ لذا استعمل سبحانه في الغالب أفعال الطلب على إعطاء دليل عيني على خالقية غير الله تعالى.

---

[1]- الطباطبائي: الميزان:٣٢٦/١١.

[2]- سورة الأنعام:١٨.

٣- إقران الخالقية في الخطاب مع الرزق للمخلوقين، إذ ان الخالقية ترتبط بمنح النعم فليست صفة الالوهية ترتبط بالخالقية وحدها بل ترتبط ايضا بما بعد الخالقية وهي إعطاء النعم للخلق وامدادهم بالرزق؛ ذلك لأنَّ الرازق لابد من يكون خالقهم فهو الوحيد القادر على ذلك مطلقا، لأنه الإله الأوحد، لهذا كان يقرن سبحانه اثبات الخالقية بوجوب الرزق فليس لأحد أن يرزق إلا الخالق لذا استدرجهم سبحانه للتساؤل عن الرازق فإن ثبت بأنَّ الأصنام لا ترزقهم شيئا دلَّ ذلك قطعا على أنَّ الرازق هو الله تعالى وهذا يعني بالحتمية بأنَّه الخالق وهذا يدل بالإثبات بأنَّه الإله الأوحد الذي يستحق العبادة مطلقاً.

المبحث الثالث: الاستدراج في نطاق إثبات النبوة وتصديق الأنبياء(عليهم السلام)

حينما نتحدث عن الاستدراج في نطاق النبوة لا بدّ لنا ابتداءً من أن نتحدث عن مفهوم النبوة والنبيّ في كتب اللغة والإصطلاح، وذلك من أجل تقريب المنطق الدلالي للنبوة إلى الأذهان وبيان المراد منها؛ ذلك بأنَّ العروض إلى المعنى اللغوي والاصطلاحي للمفردة البحثية يعدُّ من الأهمية بمكان ما يدعو إلى تيسير الأمر على المتلقي لإيضاح المراد من الاستدراج في نطاق هذا المفهوم.

وبناءً عليه نقول أن الفراهيدي (ت١٧٠هـ) قد عرض للمعطى المعجمي للـ (النبوة والنبيّ) إذ يخبرنا بأنَّها مشتقة من (النبأ) بمعنى الإخبار؛ إذ يقول ما نصّه: ((نبأ : النبأ، مهموز : الخبر، وإن لفلان نبأ، أي : خبرا، والفعل : نبأته و أنبأته و إستنبأته، والجميع : الأنباء ... والنبوة، والنبيّ {صلى الله عليه وآله وسلم} ينبيء الأنباء عن الله عز وجل؛ والنبيّ؛ يقال: الطريق الواضح يأخذك إلى حيث تريد))[١].

والظاهر أنَّ الجوهري (ت ٣٩٣هـ) لم يذهب بعيداً في تقديمه للمعنى اللغوي للنبيّ عمَّا قدَّمه الفراهيدي؛ إذ يقول: ((والنبأ: الخبر، تقول نبأ ونبأ، أي: أخبر، ومنه أخذ النبيّ لأنه أنبأ عن الله تعالى، وهو فعيل، بمعنى فاعل، قال سيبويه: ليس أحد من العرب إلاَّ ويقول: تنبأ مسيلمة بالهمز، غير أنهم تركوا الهمز في النبيِّ كما تركوه في الذرية والبرية والخابية، إلاَّ أهل مكة فإنَّهم يهمزون هذه الأحرف، ولا يهمزون في غيرها، ويخالفون العرب في ذلك))[٢].

وقد زاد ابن منظور (ت ٧١١هـ) على ما ذكره الجوهري وهو ينقل كلام ابن بري؛ إذ يقول : ((قال ابن بري : صوابه أن يقول فعيل بمعنى مفعل مثل نذير بمعنى منذر ... قال : والهمز في النبيء لغة رديئة، يعني لقلة استعمالها، لا لأنَّ القياس يمنع من ذلك ألا ترى إلى قول سيدنا رسول الله، {صلى الله عليه (وآله)وسلم}: وقد (قيل يا نبيء الله، فقال له : لا تنبر باسمي، إنما أنا نبي الله)[٣]... قال الفرَّاء : النبيّ : هو من أنبأ عن الله، فترك همزه، قال: وإن أخذ من النبوة والنباوة، وهي الإرتفاع عن الأرض، أي إنَّه أشرف على سائر الخلق ... يقال: تنبى الكذاب إذا ادّعى النبوة))[٤].

---

[١]- الفراهيدي: كتاب العين: ٨/ ٣٨٢- ٣٨٣.

[٢]- الجوهري: الصحاح: ١/ ٧٤-٧٥.

[٣]- الزمخشري: الفائق في غريب الحديث: ٣/ ٢٧٢.

[٤]- ابن منظور: لسان العرب: ١/ ١٦٢-١٦٣.

يتضح مما تقدم أنَّ للنبيِّ معنيين في اللغة:

المعنى الأول: مأخوذ من النبأ أي الخبر، فالنبيّ: هو الإنسان الذي يخبر عن الله تعالى.

أمّا المعنى الثاني: فهو المأخوذ من النباوة التي تعني الإرتفاع عن الأرض، أي : انه له مقام يسمو على جميع مقامات الخلق جميعا، وتحسب الباحثة أن المعنى الأول أقرب وألصق بالمفهوم الاصطلاحي للنبيّ والنبوة ذلك بأنَّ النبي إنَّما سمي بذلك لأنه ينبيءُ عن السماء فيبلغ أهل الأرض بما تريده منهم .

أمّا المعنى الاصطلاحي لـ (النبوة والنبي) فقد ذكره العلماء في كتبهم، إذ يقول الشيخ المفيد (ت٤١٣هـ) : ((النبيّ: هو الإنسان المخبر عن الله تعالى بغير واسطة أحد من البشر أعم من أن يكون له شريعة كمحمد (عليه السلام) أو ليس له شريعة كيحيى (عليه السلام) مأموراً من الله تعالى بتبليغ الأوامر والنواهي إلى قوم أم لا))[1].

و تحدّث الشيخ المظفر(ت١٣٨٣هـ) عن النبوة بقوله: ((نعتقد أن (النبوة) وظيفة إلهية وسفارة ربانية، يجعلها الله لمن ينتجبه ويختاره من عباده الصالحين وأوليائه الكاملين في انسانيتهم فيرسلهم إلى سائر الناس لغاية إرشادهم إلى ما فيه منافعهم ومصالحهم في الدنيا والآخرة، ولغرض تنزيههم وتزكيتهم من درن مساويء الأخلاق ومفاسد العادات وتعليمهم الحكمة والمعرفة وبيان طرق السعادة والخير، لتبلغ الإنسانية كمالها اللائق بها، فترتفع إلى درجاتها الرفيعة في الدارين دار الدنيا ودار الآخرة...))[2].

يتَّضح مما تقدم أنَّ المقصود بالنبوة ما هي إلا تكليف من الله تعالى للمصطَفين من عباده الصالحين الذين اختارهم ليكونوا سفراء الله تعالى في الأرض يرسلهم ليبلغوا الناس بما أراده تعالى من أوامر ونواهٍ ليخرجونهم من الظلمات الى النور ويعلمونهم ما يحققون به صلاح دينهم ودنياهم، وهناك سؤال يتبادر إلى الأذهان هو هل إنّ هناك فرقاً بين النبيّ والرسول؟

وقد ذكر العلماء أنَّ هناك فرقاً بين النبيّ والرسول؛ فالنبيّ: هو الذي يبيِّن للناس العقائد الصحيحة التي يجب الاعتقاد بها والأحكام الشرعية التي تنظِّم حياتهم بما يحقق هدايتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة.

---

[1]- المفيد: النكت الإعتقادية: ٣٤ وينظر: العلامة الحلي : النافع يوم الحشر: ٨١

[2] محمد رضا المظفر: عقائد الإمامية: ٤٨

وأمّا الرسول: فهو الذي يأتي للناس برسالة من الله تعالى يقيم الحجة بها على الناس ويجب عليهم إتّباعه ليفوزوا برضوان الله تعالى وينجو من الهلاك الذي يصيب المكذبين للرسل[1].

وممّا تقدّم يتّضح أنّ هناك نسبة بين النبي الرسول وهي (نسبة العموم والخصوص المطلق موردا) فإنّ كل رسول لا بدّ أن يكون نبياً وليس كل نبيّ رسول فمن الجائز أن يكون النبي غير رسول[2].

وقد ذكر العلماء أنَّ النبي الذي يتولى هذه المهمة الالهية المقدسة لا بدّ أن يتّصف بمجموعة من الصفات اللائقة بمقام النبوة، منها الآتي [3]:

١. يجب أن يكون النبي معصوماً من الخطأ .

٢. يجب أن يكون متصفاً بأكمل الصفات الخلقية والعقلية و أفضلها كالشجاعة والسياسة وحسن التدبير والصبر والفطنة والذكاء بحيث يكون متميزاً عن جميع الخلق بما أعطاه الله تعالى من الصفات الحميدة .

٣. وكذلك يجب أن يكون طاهر المولد .

٤. ويجب أن يكون أميناً صادقاً منزهاً عن الرذائل قبل البعثة وبعدها .

فبتحقق جميع هذه الصفات في شخصية النبي الذي يبعثه الله تعالى لهداية البشر يكون قادراً على أداء مهمته وتنجذب قلوب الناس اليه .

الاستدراج في حوار مؤمن آل فرعون مع قومه:

ومن الآيات التي تضمنت الاستدراج في مجال استقطاب المتلقي إلى الإيمان بالنبوة وتصديق الأنبياء(عليهم السلام) هو الحوار الذي دار بين مؤمن آل فرعون وقومه حينما أرادوا قتل نبي الله موسى (عليه السلام) وذلك تحديدا في قوله تعالى : ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾[4].

---

١ ـ ينظر: محسن الخزازي: بداية المعارف الإلهية:٢١٣/١،وجعفر السبحاني: محاضرات في الإلهيات:٣٣٠

٢ ـ ينظر: محسن الخزازي: بداية المعارف الإلهية:٢١٣/١

(٣)ـ محمد رضا المظفر: عقائدالإمامية : ٥٥

❖ المراد بالتعداد ههنا تعداد الابناء والنساء والانفس في الآية الكريمة .

(٤)ـ سورة غافر : ٢٨.

فأول مظهر من مظاهر الاستدراج يتجلَّى في قوله تعالى:(يَكْتُمُ إِيمانَهُ) فاخفاؤه لإيمانه إنَّما كان((رفقا بقومه ثم أظهره بعد ذلك))[1] لأنَّه لو صرَّح بإيمانه لم يسمعوا نصيحته ولقتلوه منذ البداية، وقد لمح بعض المفسرين مظهر آخر للاستدراج في هذه الآية في مقولة: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ)، ذلك بأنَّ هذا الرجل قال لهم عندما علم بعزمهم على قتل النبي موسى(عليه السلام) هذه المقولة وبهذا استطاع هذا الرجل المؤمن اقناع قومه بعدم صواب رأيهم بقتله (عليه السلام) من خلال استعماله لأسلوب الاستفهام للإنكار؛ يقول الرازي(ت٦٠٦هـ) في تفسيره لهذه الآية: إنَّه ((استفهام على سبيل الإنكار، وقد ذكر في هذا الكلام ما يدل على حسن ذلك الاستنكار، وذلك لأنَّه ما زاد على أن قال: (رَبِّيَ اللهُ)))[2] فإنَّه لم يقل لهم (لا تقتلوا) موسى صراحةً؛ لأنَّه نبيٌّ الله ولأنَّه مرسل إليكم من السماء؛ لأنَّه لو قال لهذا هذا بهذه الكيفية فإنَّه لامحالة سيقتلونه؛ لأنَّهم لا يؤمنون بأنَّه نبي من الله تعالى؛ بل إنَّ الداعي الذي كان يكمن وراء رغبتهم بل اصرارهم على قتله هو ادِّعاءه النبوة التي لا يوقنون بها منه البتة؛ لهذا احتيج الى وسيلة لكي يثبت نبوته فحينما حاول القوم قتله تدخل هذا الرجل الصالح ووجه إليهم عبارة كلامية ذات إستفهام إنكاري فقال :(أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ) دون أن ينهاهم وينهرهم عن قتله مباشرة من أجل أن يرتدعوا لأنَّ المباشرة في النهي عليهم تزيدهم من الإصرار على قتله وعدم ايمانهم بنبوته؛ لذا تحدَّث معهم بلطف ولين من أجل أن يستدرجهم إلى الإيمان بنبوة النبي موسى (عليه السلام) والارتداع عنه بإرتكاب جريمة نكراء بحقه، ومن الجميل أن نجد التعبير عن موسى (عليه السلام) بقوله (رجلاً) فهو قال : (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ)، ولم يقل :{أتقتلون نبيا أن يقول ربي الله }؛ لأنَّ مفردة (نبيا) يستثير لديهم الحقد والثورة لقتله ذلك بأنَّهم يريدون قتله لأنَّه يدَّعي النبوة أو لأنَّه نبي من الله حقا؛ لذا آثر عدم استعمال هذه المفردة كي لا يثير حفيظتهم وهم غاصبون والحال هذه فيؤدي الأثر الدلالي لهذه المفردة الى قتل موسى (عليه السلام) بدلا من الإبقاء عليه والإيمان بصدق نبوته، ولكن هذا الرجل المؤمن كان ذكيا إذ عقب عن داعي القتل لا لأنَّه نبيّ ؛ بل انَّه يقول (رَبِّيَ اللهُ) فهذه ليست بجريمة يقتل من أجلها بل يجب أن نستمع إليه لنعرف من الله ومن ثمّ ماذا يريد منا وماذا علينا فعله وكيف يثبت لنا موسى بأنَّه نبي فعلا بالأدلة والقرائن الشاهدة على ذلك، وبهذا نلحظ أنَّ الرجل المؤمن قد طالبهم أو طلب منهم منح النبي موسى(عليه السلام) فرصة من أجل الاستماع إليه وإثبات نبوته، وإذا ما مُنح هذه الفرصة فإنَّه سوف يثبت نبوته لهم فعلا، فكأنَّ الرجل المؤمن كان يسعى وراء منح النبي موسى(عليه السلام) تمهيدا زمنيا ليثبت لهم صدق دعواه وان

---

١ ـ عز الدين عبد السلام: تفسير العز بن عبد السلام:١٥/٣.

[2]ـ الرازي: التفسير الكبير:٥٧/٢٧.

الله واحد لا شريك له، ولكن إذا ما قتلوا موسى(عليه السلام) انتهت الدعوة وضاعت نبوته قبل أن يثبتها؛ لذا كان الرجل حصيفا وحكيما في بناء كلامه على سبيل الاستفهام الإنكاري أي لا تقتلوا رجلا قال ربي الله حتى تفهموا منه ماذا يريد وكيف يثبت ما يريد لنا لذا امنحوه فرصة لعلَّه يقنعنا بما يريد.

وقد عقب النسفي(ت٥٣٧هـ) على قوله (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ): ((لأن يقول وهذا إنكار منه عظيم كأنّه قيل أترتكبون الفعلة الشنعاء التي هي قتل نفس محرمة وما لكم علة في ارتكابها الا كلمة الحق وهي قوله (رَبِّيَ اللهُ) وهو ربكم أيضا لا ربه وحده (وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ) يعني إنَّه لم يحضر لتصحيح قوله ببينة واحدة و لكن ببينات من عند من نسب إليه الربوبية وهو استدراج لهم إلى الاعتراف به))[1].

ويبدو أنَّ الآلوسي(ت١٢٧٠هـ) قد وجد أن كلامه معهم تضمن نكته جليلة إذ يقول :((وفي (أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ) إلى (مِنْ رَبِّكُمْ) نكتة جليلة وهي أن من يقول ربي الله أو فلان لا يقتضي أن يقابل بالقتل كما لا تقابلون بالقتل إذا قلتم: ربنا فرعون كيف وقد جعل ربه من هو ربكم فكان عليكم بأن تعزروه وتوقروه لا أن تخذلوه وتقتلوه))[2].

وقد أضاف الشيرازي على ما قاله المفسرون في قوله تعالى: (وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ) ((هل فيكم من يستطيع أن ينكر معاجزه، مثل معجزة العصا واليد البيضاء ؟ ألم تشاهدوا بأعينكم انتصاره على السحرة، بحيث أن جميعهم استسلموا له وأذعنوا لعقيدته عن قناعة تامة، ولم يرضخوا لا لتهديدات فرعون ووعيده، ولا لإغراءاته وأمنياته، بل استرخصوا الأرواح في سبيل الحق، في سبيل دعوة موسى، وإله موسى . . . هل يمكن أن نسمي مثل هذا الشخص بالساحر؟ فكروا جيدا، لا تقوموا بعمل عجول، تحسبوا لعواقب الأمور وإلا فالندم حليفكم))[3].

ويقول النسفي في تفسيره:(((وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ) احتج عليهم بطريق التقسيم فإنَّه لا يخلو من أن يكون كاذبا أو صادقا فإن يك كاذبا فعليه وبال كذبه ولا يتخطاه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم من العذاب، ولم يقل: (كل الذي يعدكم)، مع أنَّه نبي صادق القول مداراة لهم وسلوكا لطريق الإنصاف، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له وليس فيه نفي إصابة الكل فكأنَّه قال لهم: لعل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض

---

[1]- النسفي: تفسير النسفي:٧٢/٤، وينظر: الزمخشري: الكشاف:٤٢٤/٣.

[2]- الآلوسي: روح المعاني:٦٤/٢٤.

[3] - الشيرازي: الأمثل : ٢٤٧/١٥.

ما يعدكم وهو العذاب العاجل وفي ذلك هلاككم وكان وعدهم عذاب الدنيا و الآخرة وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل أيضا و تفسير البعض بالكل مزيف (إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) مجاوز للحد (كَذَّابٌ) في ادّعائه وهذا أيضا من باب المجاملة والمعنى انَّه إن كان مسرفا كذابا خذله الله واهلكه فتتخلصون منه أو لو كان مسرفا كذابا لما هداه الله بالنبوة ولما عضده بالبينات وقيل أوهم انه عنى بالمسرف موسى وهو يعني فرعون))[1].

ولم يدَّخر ذلك الرجل المؤمن جهدا لإقناعهم فقد استعمل وسائل متعددة فقد ((أوضح لهم أولا إنَّ عمل موسى (عليه السلام) لا يحتاج إلى ردة فعل شديدة كهذه . ثم عليكم أن لا تنسوا أن الرجل يملك " بعض " الأدلة، و يظهر أنها أدلة معتبرة، لذا فإن محاربة مثل هذا الرجل تعتبر خطرا واضحا، والموضوع برمته لا يحتاج إلى موقف منكم، فإذا كان كاذبا فسينال جزاءه من قبل الله، و لكن يحتمل أن يكون صادقا، و عندها لن يتركنا الله لحالنا . و لم يكتف مؤمن آل فرعون " بهذا القدر"، وانما استمر يحاول معهم بلين وحكمة، حيث قال لهم كما يحكي ذلك القرآن من أنَّه قال لهم أن بيدكم حكومة مصر الواسعة مع خيراتها و نعيمها فلا تكفروا بهذه النعم فيصيبكم العذاب الإلهي﴿ يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللهِ إِنْ جاءَنا﴾[2]، ويحتمل أن يكون غرضه: إنَّكم اليوم تملكون كل أنواع القوة، و تستطيعون اتخاذ أي تصميم تريدونه اتجاه موسى (عليه السلام)، و لكن لا تغرَّنكم هذه القوة، ولا تنسوا النتائج المحتملة وعواقب الأمور، ويظهر أنَّ هذا الكلام أثّر في حاشية فرعون وبطانته، فقلل من غضبهم وغيظهم، لكن فرعون لم يسكت و لم يقتنع، فقطع الكلام بالقول : ﴿قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلاَّ ما أَرى﴾[3]وهو إني أرى من المصلحة قتل موسى ولا حل لهذه المشكلة سوى هذا الحل))[4].

لقد تبيّن من خلال الرجوع إلى أقوال المفسرين في تفسيرهم لهذه الآية إن مؤمن آل فرعون كان مؤمناً بالنبي موسى (عليه السلام) و لكنّه لم يصرح بذلك فلم يقل لهم إنّه نبي مرسل من الله تعالى ولكن استدرجهم إلى الإيمان بنبوته (عليه السلام) حيث أنه انكر عليهم قرارهم بقتله لأنه يعبد الله وحده ويكفر بفرعون، فقد استعمل أساليب خطابية متعددة لإقناعهم بعدم قتله :

---

[1]- النسفي: تفسير النسفي: ٤/ ٧٢-٧٣ ، و ينظر: الزمخشري : الكشاف: ٤٢٤/٣- ٤٢٥، الطبرسي: مجمع البيان: ٤٣٧/٨- ٤٣٨، ابن الجوزي: زاد المسير : ٧/ ٤٠- ٤١، البيضاوي: تفسير البيضاوي: ٩٠/٥ - ٩١، الغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل: ٤/ ٥-٦، الطباطبائي: الميزان: ١٧/ ٣٢٨-٣٢٩.

[2]- سورة غافر: ٢٩.

[3]- سورة غافر: ٢٩.

[4]- الشيرازي : الأمثل : ٢٤٩/١٥.

١. استعمل اسلوب الاستفهام الإنكاري لإقناعهم بمنحة فرصة جديدة لإثبات صدق نبوته، فهو لم يوجه الكلام اليهم مباشرة بالنهي عن قتله ليتعنَّدوا ويتشدَّدوا أكثر.

٢. استعماله الخطاب المنصف معهم إذ لم يشير الى مصطلح النبوة ، فهو لم يقل: (أتقتلون نبيا أن يقول ربي الله) بل قال: (أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ)والفارق ما بين الخطابين فارق لكل ذي نظر.

٣. قال لهم: لقد جاءكم موسى (عليه السلام) بالمعجزات التي تدل على أنَّه مرسل من الله تعالى وذلك باستعماله لفظة (البينات) في قوله (وَقَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ) ونلحظ أنَّه نسب البينات الى (ربكم) ولم ينسبها الى موسى كي يثير حفيظتهم فهو أبعد عنه نسبة أي شيء حتى لا يكون موضع تحدي ومجابهة معهم بل نسب البينات إلى الله تعالى وقال (ربكم) حتى يفهموا بأنَّ هذه الدلائل من الله تعالى وليس لموسى فليس موسى(عليه السلام) سوى نبي مأمور بأداء مهمة السماء والأمر بيد الخالق ربكم وحده، فكان بنسبة البينات إلى (ربكم) تخلصاً لموسى من أن يتحداهم من جهة فيهدأ غضبهم عليه والحال هذه، وإشارة إلى نبوته إيكال السماء إليه مهمة إبلاغ الرسالة الإلهية لهم لإنقاذهم من الضلال لحق من جهة أخرى.

٤. مع إيمانه بنبوته وصدقه داراهم وجاملهم حيث قال لهم: إنَّه (عليه السلام) إمّا أن يكون كاذباً أو صادقاً، فإن كان كاذباً فستحل به عقوبة الكاذب من الله تعالى، وإن كان صادقاً فإن من المؤكد انَّه سيحل بكم ولو بعض ما وعدكم به من العذاب مع علمه بتحقق جميع ما وعدهم به.

٥. قال لهم: إنَّ الله تعالى لا يهدي إلى طريق الرشاد من كان متجاوزاً لحدود الله فإن كان ممن تعدى الحدود الإلهية فسينزل عليه العذاب الإلهي .

وبذلك فقد استدرجهم من خلال خطابه معهم إلى أنَّ موسى (عليه السلام) نبي مرسل من الله تعالى وقد أيده تعالى بالمعجزات التي تدلّ على صدقه في دعواه النبوة، وهو(عليه السلام) ممن ليس ممن تجاوز أوامر الله ونواهيه، وهو(عليه السلام) صادق في كلِّ ما يقول ويفعل لأنَّه نبيّ الله تعالى فهو تعالى لا يعطي النبوة لمن كان مسرفاً كذّاباً لا يلتزم بحدوده .

الاستدراج في قصة مؤمن قرية أنطاكية مع قومه

ومن الخطابات التي تضمنت الاستدراج للإيمان بالنبوة و تصديق المرسلين (عليهم السلام) هو ما دار بين ذلك الرجل الذي تحدّث عنه القرآن الكريم في قرية أنطاكية حيث صدّق الرسل وآمن بهم ودعا قومه للإيمان بهم .

قال تعالى : ﴿وَجاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعى قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ❖ اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [1]

وقد تحدّث المفسرون عن هذه القصة القرآنية وما جرى فيها من أحداث ومواقف، فقد قال الرازي(ت٦٠٦هـ) في تفسيره لهاتين الآيتين :

((الرجل هو حبيب النجار كان ينحت الأصنام و قد آمن بمحمد (صلى الله عليه(وآله) وسلم) قبل وجوده حيث صار من العلماء بكتاب الله، ورأى فيه نعت محمد (صلى الله عليه(وآله) وسلم) و بعثته ... وقوله تعالى: (قالَ يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) فيه معانٍ لطيفة الأول: في قوله: (يا قوم) فإنه ينبيء عن إشفاقه عليهم وشفقة فإنَّ إضافتهم إلى نفسه بقوله: (يا قوم) يفيد أنَّه لا يريد بهم إلاّ خيرا، و هذا مثل قول مؤمن آل فرعون ﴿يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ﴾[2] فإن قيل قال هذا الرجل (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) وقال ذلك (اتبعون) فما الفرق؟ نقول هذا الرجل جاءهم وفي أول مجيئه نصحهم وما رأوا سيرته، فقال: اتبعوا هؤلاء الذين أظهروا لكم الدليل وأوضحوا لكم السبيل، وأمَّا مؤمن آل فرعون فكان فيهم واتبع موسى نصحهم مرارا فقال اتبعوني في الإيمان بموسى وهارون (عليهما السلام)، واعلموا أنَّه لو لم يكن خيرا لما اخترته لنفسي وأنتم تعلمون أني اخترته، ولم يكن للرجل الذي جاء من أقصى المدينة أن يقول أنتم اتباعي لهم، الثاني: جمع بين اظهار النصيحة واظهار إيمانه فقوله: (اتبعوا) نصيحة وقوله : (المرسلين) إظهار أنه آمن، الثالث: قدم إظهار النصيحة على إظهار الإيمان لأنه كان ساعيا في النصح، وأما الإيمان فكان قد آمن من قبل، وقوله: (رجل يسعى) يدل على كونه مريدا للنصح وما ذكر في حكايته أنَّه كان يُقتل وهو يقول : " اللهم اهد قومي " . ثم قال تعالى : ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ وهذا في غاية الحسن من حيث إنه لما قال : (اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) كأنهم منعوا كونهم مرسلين فنزل درجة وقال ألا أنَّ الخلق في الدنيا سالكون طريقة وطالبون، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل وجب اتباعه، والإمتناع من الإتباع لا يحسن إلا عند أمرين، إما مغالاة الدليل في طلب الأجرة، وإما عند عدم

---

[1]- سورة يس : ٢٠-٢١.

[2] - سورة غافر:٣٨.

الإعتماد على اهتدائه ومعرفة الطريق، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرة وهم مهتدون عالمون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين؟))[1].

ويبدو أنَّ أبا السعود (ت٩٥١هـ) يتفق في تفسيره لهذه الآية المباركة مع الرازي لكنّه يتحدّث عن دلالة مخاطبته لقومه بـ (يا قوم اتّبعوا المرسلين) وما تضمنه هذا الخطاب من استدراج لقومه وتأثيره في قلوبهم وانجذابهم إليه فيقول ما نصه :(((يا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ) تعرض لعنوان رسالتهم حثا على اتباعهم كما أنَّ خطابهم بـ (يا قوم) لتأليف قلوبهم و استمالتهم نحو قبول نصيحته وقوله تعالى (اتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ) تكرير للتأكيد والتوسل به إلى وصفهم بما يرغبهم من التنزه عن الغرض الدنيوي والاهتداء إلى خير الدارين))[2].

إنَّ هذا الرجل الذي منّ الله تعالى عليه بنعمة التصديق بالرسل والإيمان بما جاءوا به من التوحيد والتشريعات الإلهية، لكنَّه لم يكتف بإيمانه لوحده فقد كان يسعى لاستدراج قومه الى التصديق بالرسل فعلى الرغم من أنَّه كان مصدقاً ومتبعاً للرسل لكنَّه في خطابه مع قومه استدرجهم شيئاً فشيئاً الى تصديق الرسل والإيمان بالله تعالى؛ فقدمَّ مايشير إلى النصح على ما يشير إلى الإيمان، فقد كان يحمل في قلبه الحب والود لهم والخوف عليهم من عذاب الله الذي سينزل عليهم إذا أصروا على تكذيبهم للرسل وعدم الإيمان بنبوتهم، ولكنَّه إذا واجههم بالحقيقة وهي أنَّ هؤلاء رسل الله تعالى وهم على حق وهو قد آمن بهم وصدّقهم وإنَّهم(أي قومه) على باطل وضلال لأنَّهم يعبدون ما لم ينزل الله به سلطان ففي هذه الحال سيرفضون ما يقوله ويقتلونه فلا يستطيع أن يدعوهم إلى الإيمان بالأنبياء(عليهم السلام) وتصديقهم، ولكنّه من خلال التلطف ولين الكلام معهم استطاع أن يدعوهم إلى الإيمان بالرسل بطريق غير مباشر فقد حقق ما أراده من خلال استدراجهم بكلامه وإقامة الحجة عليهم .

فكان يمارس دور الناصح المرشد لقومه، فقد قال لهم :

١- إنَّ ممّا يؤكد إنَّهم مرسلون من الله تعالى إنَّهم لا يطلبون منكم اجراً على هدايتكم، فضلاً عن ذلك فإنَّهم مهتدون إلى طريق الحق، ولما كان الأمر لا يتعلق بالمصلحة الشخصية لهم أي لا يبتغون أجرا مما يدعونكم إليه دلَّ ذلك بالدليل الواضح والبيِّن على أنَّ المسألة هي لخيركم وفائدتكم وإلا لو طالبوكم بأجر لدلَّ ذلك على أنَّهم منتفعون وليسوا مهتدين أو يرغبون بهدايتكم فعلا فأثار هذا

---

[1]- الرازي: التفسير الكبير: ٢٦/ ٥٥، وينظر: أبو حيّان الأندلسي: البحر المحيط: ٣١٤/٧-٣١٥، عبد الرحمن بن ناصر السعدي :٦٩٤، الطباطبائي: الميزان: ٧٦/١٧، الشيرازي: الأمثل: ١٥٦/١٤-١٥٧.

[2]- أبو السعود: تفسير أبي السعود: ٧/ ١٦٣، وينظر: الآلوسي: روح المعاني: ٢٢٦/٢٢.

التوجيه الخطابي للنصّ الكريم تفكيرا عميقا في أذهان المتلقين ليأخذ بأيديهم الى التساؤل عن السبب والمكمن الحقيقي الذي يريده هؤلاء الأنبياء منهم نعم انَّهم لا يريدون الفائدة منا ولم يسألونا عن أجر مطلقا إذن ما نفعهم وماذا يبتغون؟، وبهذا سيصلون إلى نتيجة انهم يريدون الهداية لأنَّهم مهتدون أصالة ومن سمات المهتدي عدم الإنسياق وراء طلب الأجر حينما يهدي إنسانا الى الله تعالى وإلى طريق الحق.

٢-فما الذي يمنعكم من اتباعهم إذا كانوا صادقين في دعواهم مخلصين لكم لا يريدون أجراً على ذلك وهم سائرون على طريق الهدى لا طريق الردى؟ إذن لا خوف منهم ما داموا لا يرغبون بمنفعة، وإنَّما يحذر المرء من أن يطالبه الآخر بشيء لأنَّ الانبياء(عليهم السلام) لو طالبوا الناس بمنفعة شخصية فإنَّ هذا يشير الى خروجهم من نطاق النبوة لأنَّهم جاؤوا من أجل منفعة الناس وهديتهم إلى الحق لا الإفادة من الناس والتماس ما بأيدهم من خير، فلما كانوا طالبين الخبر الى الناس وليسوا طالبين الخير من الناس دلَّ ذلك على عدم استشعار خوف من الاستماع إليهم بل دلَّ ذلك على أنهم أنبياء من الله تعالى فعلا لأنَّ هذه هي أجلى سماتهم التكليفية وهي إفادة الناس وعدم الإفادة من الناس.

وبهذا تثبت الآية الكريمة من خلال ظاهرة الاستدراج للمتلقي بأنَّ هؤلاء الانبياء(عليهم السلام) أحق بالإتباع لأنَّهم عالمون هادون مهديون ولأنَّهم مرسلون من الله تعالى فعلا بدليل اتسامهم بسمات التكاليف الإلهية الحقيقية.

الاستدراج في حادثة المباهلة:

إنَّ الأنبياء (عليهم السلام) الذين بعثهم الله تعالى لهداية البشر وإنقاذهم من الضلال والضياع كانوا على الدوام يجابهون بالتكذيب والتهديد بالقتل من قبل أقوامهم تارة، وتارة أخرى يواجهون بالإتهام بالجنون والشعر والكهانة كما حصل مع نبينا محمد(صلى الله عليه وآله) حينما دعاهم إلى ترك عبادة الأصنام وغيرها مما يعبد وعبادة الله تعالى وحده لا شريك له؛ فقد وقفوا بوجه النبي محمد (صلى الله عليه وآله) وقد كذبوا نبوته واتهموه بأنه شاعر ومجنون وكاهن[1]، ولم

---

[1]- وذلك في قوله تعالى ((بَلْ قالُوا أَضْغاثُ أَحْلامٍ بَلِ افْتَراهُ بَلْ هُوَ شاعِرٌ فَلْيَأْتِنا بِآيَةٍ كَما أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ)) سورة الانبياء:٥، وقوله أيضاً ((وَيَقُولُونَ أَ إِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ ❖ بَلْ جاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ)) سورة الصافات:٣٦- ٣٧، وقله كذلك: ((إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ❖ وَما هُوَ بِقَوْلِ شاعِرٍ قَلِيلاً ما تُؤْمِنُونَ ❖ وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ ❖ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ)) سورة الحاقة: ٤٠- ٤٢.

يكن المشركين وحدهم من كذبوا بالنبوة الخاتمة بل إنَّ اليهود والنصارى كذلك كان موقفهم من النبي محمد (صلى الله عليه وآله) إلاّ من نوّر الله قلبه بنور التوحيد وحفظه من الزيغ والضلال.

فقد ذكر أرباب التفسير انَّ وفداً من النصارى جاء إلى المدينة المنورة ليختبر صدق النبي (صلى الله عليه وآله) هل أنَّه مرسل من الله تعالى حقيقة مع العلم أنَّهم كانوا يعلمون بأنَّه رسول السماء حقاً لكنهم أرادوا أن يحرجوه كما كانوا يتوهمون، فدخلوا المسجد النبوي وتحدثوا بشأن النبي عيسى (عليه السلام) وما كانوا يعتقدون في أنَّه هو الله أو ابن الله وإنَّه ثالث ثلاثة، وقد اعترضوا على النبي (صلى الله عليه وآله) لأنَّه يقول إنَّ عيسى ابن مريم (عليهما السلام) كان عبدا من عباد الله تعالى وليس إلها كما يزعمون وهذا الكلام جاء به من الله تعالى، فقالوا للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم): إن كنت صادقاً فيما تقول فأرنا مَثله فنزلت هذه الآية : ((إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ))[1] تذكّرهم بخلق النبي آدم (عليه السلام) من قبل وقد خلق من غير أب ولا أم، فالقرآن الكريم أعطى كلمة الفصل في قضية النبي عيسى (عليه السلام) وأبطل مزاعم النصارى وفضح عقائدهم الكاذبة[2].

وعندما نتأمل في الحوار الذي دار بين النبي(صلى الله عليه وآله) والنصارى يظهرلنا الاستدراج فيه واضحاً جلياً، فإنَّه (صلى الله عليه وآله) عندما واجه النصارى الذين كانوا يرون أنَّ النبيّ عيسى(عليه السلام) لا يمكن أن يكون إنساناً عادياً كعامة الناس لأنَّه لم يخلق وفقاً للأسباب الطبيعية حيث ولد (عليه السلام) من غير أب فلا بدّ أن يكون من جنس الآلهة لا البشر؛ فإنّه- والحال هذه -كان عليه (صلى الله عليه وآله) أن يستدرجهم إلى الإيمان بأنَّ المسيح ابن مريم (عليه السلام) هو عبد الله ورسوله وخصوصاً إنَّهم كانوا يكذبون بما جاء به النبي (صلى الله عليه وآله) من عند الله تعالى لذا فكان لا بدّ من استدراجهم إلى الإيمان بحقيقة خلق النبي عيسى(عليه السلام)وبأنَّه عبد من عباده الله تعالى فقال لهم (إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فيذكرهم بخلق النبي آدم(عليه السلام) من قبل فكما أنّهم يعتقدون بأن الله تعالى خلق النبي آدم (عليه السلام) وهو أبو البشر من غير أب ولا أم فكذلك خلق نبيه عيسى(عليه السلام) من غير أب فقد أثار عقولهم بهذا التذكير فالذي قدر على خلق الإنسان الأول من غير أب و أم فإنَّه أقدر على خلق غيره سواء كخلقه النبي عيسى(عليه السلام) أو إيجاد كليهما كعامة

---

[1]- سورة آل عمران : ٥٩.

[2]- ينظر: الطبري : جامع البيان : ٣/٢٢٠-٢٢١.

البشر، وبهذا فقد أقام الحجة عليهم بما جاء به من عند الله تعالى مصدقاً لنبوته(صلى الله عليه وآله).

فعند النظر يظهر جليا أنَّ الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) يثبت نبوته من خلال بيان أنَّ المسيح عيسى ابن مريم (عليه السلام) هو مخلوق من عند الله تعالى وانَّه ليس بإله ذلك بأنَّه(صلوات الله عليه) أخبرهم بذلك، بَيدَ أنَّ النصارى كذبوه من هنا استدعى الأمر إثبات ما ادَّعاه الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) من عبودية عيسى(عليه السلام) وصحة خلقه من الله تعالى لهذا استدرجهم النصُّ القرآني لإثبات صدق مقال الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) حتى يثبت لهم بأنَّه نبيّ فعلا وإنّ عيسى(عليه السلام) نبيّ أيضا وليس بإله؛ من هنا وقعت المقارنة بين خلق عيسى وخلق آدم (عليهما السلام) حيث قال سبحانه: (إنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) فاستعماله لفظة (مثل عيسى) وقوله (مثل آدم) فيه دلالة جلية على أنَّ كليهما من سنخ واحد ومن صنف واحد وانَّ ماهيتهما هي دون أي تعديل أو تغيير فإذا كان آدم(عليه السلام) خلق من دون أب ولا أم فإنَّ خلق عيسى(عليه السلام) يجري بذات المجرى ويقع في سياق القدرة الإلهية نفسها التي استطاعت خلق آدم(عليه السلام) لأنَّ كلاهما مثل الآخر؛ والذي وحَّد هذه المثلية هو قوله تعالى (خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ)؛ ذلك بأنَّ قوله ((﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ﴾ جملة مفسرة للتمثيل مبينة لما به الشبه وهو أنه خلق بلا أبٍ كما خلق آدم من التراب بلا أب وأم شبه حاله بما هو أغرب منه إفحاما للخصم وقطعا لمواد الشبهة والمعنى خلق قالبه من التراب ﴿ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ﴾ أي: أنشأه بشرا))[1].

يقول الزمخشري(ت٥٣٨هـ): ((فإن قلت: كيف شبَّه به وقد وجد هو بغير أب ووجد آدم من غير أب وأم ؟ قلت: هو مثيله في إحدى الطرفين فلا يمنع اختصاصه دونه بالطرف الآخر من تشبيهه به لأنَّ المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ولأنه شبه به في أنه وجد وجودا خارجا عن العادة المستمرة وهما في ذلك نظيران ولأنَّ الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق للعادة من الوجود بغير أب فشبه الغريب بالأغرب؛ ليكون أقطع للخصم وأحسم لمادة شبهته إذا نظر فيما هو أغرب مما استغربه))[2] .

من هنا استدلَّ النص على صدق كلام الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) باعتماده مبدأ المثلية فإذا ما استجذبهم النصُّ المقدَّس إلى الاقتناع بالمثلية من خلال المقايسة والمناظرة بين عيسى

---

[1] ـ البيضاوي: تفسير البيضاوي: ٤٦/١، وينظر: النسفي: تفسير النسفي:١٥٧/١.

[2] ـ الزمخشري: الكشاف: ٤٣٣/١.

وآدم(عليهما السلام) تحقق المراد وثبت صدق كلام الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله)، ذلك بأنّ النصارى سوف يتأملون في هذه الآية الكريمة ويعقدون المناظرة بين عيسى وآدم(عليهما السلام) وبهذا سيستدرجهم إلى الإقرار لا محالة فإن اقروا تحقق أمران الأول: صدق الرسول(صلى الله عليه وآله) والصدق من أهم سمات الإيمان بكونه رسولاً، الثانية: إنَّ عيسى(عليه السلام) ليس بإله البتة، لأنه مخلوق مثل آدم وما دام مخلوقا فهو فانٍ وإذا تحقق الفناء سلبت منه صفة الألوهية مطلقاً لأنَّ من صفات الإله عدم الفناء مطلقاً.

وبعدما أنزل الله تعالى هذه الآية التي استدرجت النصارى للإيمان بصدق الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) ممَّا يدلُّ هذا على صدق نبوته؛ طلب النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) بمباهلة الذين لم يؤمنوا بما أنزله تعالى في حقيقة خلق المسيح (عليه السلام) من أجل اثبات صدق دعواه النبوة، والمباهلة((هي الدعاء على الظالم من الفريقين))[1] فيدعون الله تعالى بأن تحلّ لعنته تعالى على الكاذبين كما في قوله تعالى : ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[2]

فلما قرأ (صلى الله عليه وآله وسلم) هذه الآية عليهم ودعاهم إلى المباهلة امتثالاً لأمر الله تعالى، قالوا أمهلنا الى يوم غدٍ حتى نتشاور فيما بيننا بهذا الأمر[3]، وعندما رجعوا الى كبيرهم ويدعى (العاقب) قال لهم:

((والله يا معشر النصارى لقد عرفتم أن محمداً نبي مرسل ولقد جاءكم بالفصل من أمر صاحبكم، والله ما لَاعنَ قوم نبياً قط فعاش كبيرهم ولا نبت صغيرهم ولئن نعمل ذلك لنهلكن .

فإن أبيتم إلاّ البقاء لدينكم والإقامة على ما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله (صلى الله عليه (وآله) وسلم) وقد غدا رسول الله (صلى الله عليه (وآله) وسلم) محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي (رضي الله عنه) خلفها وهو يقول لهم : إذا دعوت فأمنوا. فقال اسقف نجران: يا معشر النصارى إني لأرى وجوهاً لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة.

---

[1] ـ الواحدي: تفسير الواحدي:٢١٥/١.

[2] ـ سورة آل عمران:٦١.

[3] ـ ينظر: الثعلبي: تفسير الثعلبي: ٣/ ٨٣-٨٥.

فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا الاّ نلاعنك وأن نتركك على دينك ونثبت على ديننا، فقال لهم رسول الله (صلى الله عليه (وآله) وسلم) فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ما للمسلمين، وعليكم ما عليهم، فأبوا. قال: فإنّي أنابذكم بالحرب، فقالوا: ما لنا بحرب العرب طاقة ولكنّا نصالحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا على أن نؤدي اليك كل عام ألفي سكة ألفاً في صفر وألفاً في رجب، فصالحهم رسول الله (صلى الله عليه (وآله) وسلم) على ذلك وقال :

والذي نفسي بيده إنَّ العذاب قد نزل في أهل نجران ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير ولإضطرم عليهم الوادي نارا، ولاستأصل الله نجران وأهله حتى الطير على الشجر ولما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا))[1] .

إنَّ المتأمل يلحظ الاستدراج واضحاً في هذه الحادثة فإنَّ النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله) عندما علم انَّهم لم يؤمنوا بنبوته وتكذيبهم بما جاء به من خبر النبي عيسى(عليه السلام) من عند الله تعالى شاهدا على صدق نبوته فقال لهم: ليأتي كل واحد منا بأهل بيته من الأبناء والنساء وندعوا الله تعالى ونبالغ في الدعاء والمسألة لله تعالى لينزل لعنته على الكاذب منّا فيتبين الصادق من الكاذب، فالنبي(صلى الله عليه وآله) لم يقل لهم من أول الأمر أنا رسول الله وخاتم الأنبياء وأنتم الكاذبون لأنّكم تعلمون ذلك وتنكرونه وتكتمون الحق في صدوركم وإنما تغاضى (صلى الله عليه وآله) عن ذلك وتعامل معهم بلطف ولين حتى استطاع أن يقيم الحجة عليهم ويسلموا له فيما أراد من المباهلة لإظهار الحق ودحض الباطل فعندما جاءوا في اليوم التالي ورأوا النبي (صلى الله عليه وآله) ومعه أهل بيته الكرام(عليهم السلام) تراجعوا عن المباهلة لعلمهم أنه رسول الله جاء بالبينات من ربه وإنَّ اللعنة والعذاب سيحل بهم لأنَّهم هم الكاذبون .

إنَّنا حينما نقف على حادثة المباهلة وما جرى بين النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) نرى أن وفد نصارى نجران جاء ليختبر صدق النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في إدعائه النبوة، وإنَّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان يعلم بأنَّ قساوسة النصارى يعلمون إنَّه (صلى الله عليه وآله وسلم) رسول لأنَّ البشارة بمجيء النبي الخاتم موجودة عندهم بالإنجيل وقد أخبرهم النبي عيسى (عليه السلام) بذلك .

فلما جاءوا اليه (صلى الله عليه وآله وسلم) وسألوه عن قوله في النبي عيسى (عليه السلام) أجابهم (صلى الله عليه وآله وسلم) بما جاء في القرآن الكريم ، وعندما لم يؤمنوا بذلك ، وذكرهم

---

[1]- الثعلبي: تفسير الثعلبي: ٣/٨٤-٨٥ وينظر: الطوسي: التبيان : ٢/ ٤٨٤-٤٨٥، البغوي: تفسير البغوي: ١/٣١٠-٣١١، الطبرسي: مجمع البيان: ٢/٣٠٩-٣١٠، الرازي: التفسير الكبير: ٨/٨٥.

القرآن الكريم بخلق النبي آدم (عليه السلام) من قبل من التراب فإنَّ الله تعالى قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء في الأرض و لا في السماء ليستدرجهم إلى الإيمان بنبوته (صلى الله عليه و آله وسلم)، فعندما لم يؤمنوا دعاهم إلى المباهلة لأنَّ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لو لم يكن على يقين بأنّه مرسل من الله تعالى وهو نبيه الذي أرسله خاتماً للأنبياء لما دعاهم للمباهلة والدعاء الى الله تعالى بلعن الكاذب منهم .

وبهذا يتَّضح بأنَّ الدعوة إلى المباهلة ما هي إلاَّ أسلوب من أساليب الاستدراج الذي أراد الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)منه اثبات صدق نبوته بها، والدليل على أنَّه سمة من سمات الخطاب الاستدراجي وان الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) واثق من قدرته على تقرير النصارى بصدق نبوته هو أنَّ النصّ القرآني ذكر دعوة الأبناء والنساء والأنفس فهذه الدعوة توحي للمتحدين للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بأنَّه واثق مما سيجري وانَّه الغالب وانَّ نبوته هي الحق وإلاَّ من المحال بمكان أن يعرِّض الشخص أهل بيته وخاصته إلى العذاب والملاعنة في حال عدم وثوقه بما يجري وما ستكون عليه النتيجة لهذا نصصَّ النص آمراً إيَّاهم بقوله (فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكاذِبِينَ) فهذه المباهلة تهدف لاستدراج المتلقي وإذعانه عن طريق إشاعة الخسران في نفس المتلقي بناءً على الإيحاء إليه بشدة ثقة المتحدي الأول وصدق دعواه ولذا طالبه بدعوة الأهل جميعا بما فيهم النساء والأبناء.

ويبدو أنَّ الطباطبائي(ت١٤١٢هـ) قد استشعر هذا الملحظ الدلالي في نطاق الاستدراج للخصم إذ يقول: ((والملاعنة وإن كانت بحسب الظاهر كالمحاجة بين رسول الله وبين رجال النصارى؛ لكن عممت الدعوة للأبناء والنساء ليكون أدل على اطمينان الداعي بصدق دعواه وكونه على الحق لما أودعه الله سبحانه في قلب الإنسان من محبتهم والشفقة عليهم فتراه يقيهم بنفسه ويركب الأهوال والمخاطرات دونهم وفي سبيل حمايتهم والغيرة عليهم والذبّ عنهم ولذلك بعينه قدَّم الأبناء على النساء؛ لأنَّ محبة الانسان بالنسبة إليهم أشد وأدوم))[1]؛ إذ المراد لا مشاركتهم في المباهلة والمجادلة بل لبيان مدى شدة ثقة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) بما ستؤول إليه الأمور؛ لذا عليهم – أي النصارى- أن يذعنوا ويعلنوا اعترافهم بنبوته وقد انسحبوا فعلا واعترفوا من خلال انسحابهم من المباهلة بأنَّه نبيّ على وجه الحقيقة وذلك لخوفهم مما فعل بدعوته الأبناء والنساء فكانت هذه الدعوة أسلوباً ناجعاً لاستدراجهم الى الإذعان والاعتراف بالخسران وبأنَّه نبيٌّ على وجه الحقيقة، ذلك بأنَّ ((في تفصيل التعداد❖ دلالة أخرى على اعتماد الداعي وركونه إلى الحق كأنه يقول ليباهل الجمع

[1] الطباطبائي: الميزان: ٢٢٣/٣.

الجمع فيجعل الجمعان لعنة الله على الكاذبين حتى يشمل اللعن والعذاب الأبناء والنساء والأنفس فينقطع بذلك دابر المعاندين وينبت أصل المبطلين . وبذلك يظهر أن الكلام لا يتوقف في صدقه على كثرة الابناء ولا على كثرة النساء ولا على كثرة الانفس فإن المقصود الاخير أن يهلك أحد الطرفين بمن عنده من صغير وكبير))[1]؛ ولهذا خافوا من مغبة هذا الأمر؛ فغلبهم الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله وسلم) بأسلوب الاستدراج هذا فأذعنوا واعترفوا وانصرفوا خائبين.

ولقد تحصَّل من مجموع الآيات التي تضمنت الاستدراج الذي أثبت صدق بعث الأنبياء(عليهم السلام) و المرسلين من الله تعالى بأنَّ تلك الآيات الكريمات كانت تعمد الى مجموعة طرائق خطابية لإثبات مصداقية بعثة الانبياء والرسل(عليهم السلام) من السماء إلى الناس لهدايتهم وقد كانت تلك الطرائق على النحو الآتي:

١. الإجابة عن الأسئلة التي يتبناها أبناء الديانات الأخر واستعمال أسلوب المثل لإقناعهم بشأن الحقائق التي جاء بها نبينا محمد(صلى الله عليه وآله) كما حصل مع النصارى الذين سألوه(صلى الله عليه وآله) عن خلق النبي عيسى(عليه السلام) فكما أنّهم يقرون بأنّ الله تعالى خلق آدم من غير أبٍ ولا أم فبذلك يثبت بأن المسيح(عليه السلام) ليس ابن الله تعالى؛ بل خلقه الله تعالى بقدرته من دون أب.

٢. استعمال منهجية الإبتهال إلى الله تعالى في إنزال العذاب على الكاذبين ليقيم الحجة على المكذبين والمشككين في قدرته سبحانه؛ وبهذا الابتهال ثبت صدق النبي الأعظم(صلى الله عليه وآله) لأنَّه خرج ومعه أهل بيته فلو لم يكن موقناً بأنّه على حق لما أخرجهم معه وهذا ما شعر به النصارى وانسحبوا من المباهلة .

٣. تنبيه الآخرين ودعوتهم على مراجعة أنفسهم والالتفات إلى بشاعة أعمالهم من خلال الكلام غير المباشر لأنَّ الكلام المباشر سيقابلونه بالرفض وقد يؤول رفضهم بسبب قوة الكلام المباشر نحوهم إلى قتل الأنبياء (عليهم السلام) فهم لا يتورعون عن ذلك مطلقاً.

٤. إظهار الشفقة والنصح والإرشاد في الخطاب من أجل استمالة قلوبهم واستدراجهم لما يراد منهم من غير أن يشعروا بذلك .

---

[1] ـ الطباطبائي: الميزان: ٣/٢٢٣.

المبحث الرابع: الاستدراج في نطاق إثبات العصمة :

قبل الخوض في بيان أسلوب الاستدراج في نطاق إثبات العصمة لا بدَّ في البدء من أن نقف على معنى العصمة ومفهومها؛ ليتسنى لنا بعد ذلك الدخول إلى بيان مناحي الاستدراج لإثبات هذا المفهوم العقائدي، واذا ما شئنا أن نقف على المعطى اللغوي لمفردة (العصمة) فإنَّه يمكن القول بأنَّها تندرج تحت مادة (عصم) التي هي بمعنى المنع أو الوقاية، يقول الفراهيدي في (العين): ((عصم:العِصْمَةُ : أن يَعْصِمَكَ اللهُ من الشرّ أيْ : يدفعُ عنك، واعتصمت بالله أيْ: امتنعت به من الشرّ، واستعصمت أيْ: أبيت، وأَعْصَمْتُ أيْ : لَجأت إلى شَيْء اعتصمت به .... وأَعْصَمْتُ فلاناً: هَيّأتُ له ما يعتصم به، والغريق يَعْتَصِمُ بما تناله يدُه أيْ: يلجأ إليه .... وكلّ حبل يُعْصَمُ به شَيْء فهو عصام وجمعه :عُصُم))[1] فنلحظ ان كل الدلالات للعصمة تشير الى معنى المنع والحماية والوقاية فالإعتصام بالله غايته أن يمنع عن المعتصم الشر والأذى، والاستعصام هو الإمتناع من الشيء، ويدلُّ على الإلتجاء بغاية الحماية والمنعة من الآخر، واعتصام الغريق يعني: الرغبة في امتناع الغرق منه ودفع الموت دونه، وكذا الحال للحبل يسمى عصاما لأنه يمنع المقيد من الهرب أو الفرار اذا ما قيِّد به وقد يمنع المرء من الموت إذا ما كان منقذا له في بحر أو عند وقوعه في بئر وهكذا دواليك.

ويؤيد ابن منظور(ت٧١١هـ) ما أدلى به الفراهيدي في معنى (العصمة) اذ يقول: ((العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه ممَّا يوبقه، عصمه يعصمه عصما: منعه ووقاه ... واعتصم فلان بالله إذا امتنع به، والعصمة: الحفظ، يقال: عصمته فانعصم، واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية))[2]، نجد ان ابن منظور قد وافق الخليل بما جاء به بَيدَ انَّه زاد عليه في عبارته الأخيرة (واعتصمت بالله إذا امتنعت بلطفه من المعصية) فهي أقرب ما تكون الى مفهوم العصمة بالمنظور العقائدي لأنَّه خاص بالأنبياء والرسل والأئمة(عليهم السلام).

ويظهر أنَّ العصمة في اللغة تعني الحفظ والمنع والوقاية، فالإنسان المعصوم هو الذي يحفظه الله تعالى ويمنعه من المعاصي بلطفه وعنايته، ولهذا المعنى رابط بالمفهوم الاصطلاحي لـ (لعصمة).

---

[1] الفراهيدي: العين: ٣١٤/١- ٣١٥. (مادة عصم).

[2] ابن منظور: لسان العرب:٤٠٣/١٢(مادة عصم)،وينظر: الفيروزآبادي: القاموس المحيط:١٥١/٤(مادة عصم)، والزبيدي: تاج العروس:٤٨١/١٧و٤٨٣.

أمّا مفهوم العصمة في الإصطلاح فقد عرّفها المفيد(ت٤١٣هـ) بقوله:((العصمة لطف يفعله الله بالمكلف بحيث يمتنع منه وقوع المعصية وترك الطاعة مع قدرته عليهما))[١]؛ فالعصمة إذن تعني أن الله تعالى يحفظ المعصوم من الوقوع في المعاصي والذنوب بلطفه وعنايته مع كونه قادراً على المعاصي وترك الطاعات؛ ((ذلك بأنَّه من المحال أنْ يرسل الله سبحانه نبياً تشوبه الخطيئة أو يعتريه الخطأ إذا لم تكن له حصانة (هدى) تصونه من هذه الشائبة أو ذلك الإعتراء؛ فأنّى له أن يوجِّه قومه إلى الرشاد ويطالبهم بأن يقرأوا حكم السماء وسننها في توجيه سلوكهم إلى الخلق الأمثل؟))[٢].

يقول المفيد في كتابه أوائل المقالات متحدِّثا عن عصمة الأنياء(عليهم السلام):((إن جميع أنبياء الله (صلوات الله عليهم) معصومون من الكبائر قبل النبوة وبعدها وما يستخف فاعله من الصغائر كلها، وأمَّا ما كان من صغير لا يستخف فاعله فجائز وقوعه منهم قبل النبوة وعلى غير تعمد وممتنع منهم بعدها على كل حال، وهذا مذهب جمهور الإمامية))[٣] .

أمَّا فيما يتعلق بعصمة نبينا محمد (صلى الله عليه وآله) فقد بيَّن المفيد رأي الإمامية فيه بقوله:((إن نبينا محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) ممن لم يعص الله - عز وجل - منذ خلقه الله - عز وجل - إلى أن قبضه ولا تعمد له خلافا ولا أذنب ذنبا على التعمد ولا النسيان، وبذلك نطق القرآن وتواتر الخبر عن آل محمد (عليهم السلام)، وهو مذهب جمهور الإمامية)[٤] .

و أنَّ الدليل على وجوب كون النبي (صلى الله عليه وآله) معصوماً من السهو والخطأ فضلاً عن المعاصي والذنوب هو وجوب طاعته والانقياد لأوامره، فقول المعصوم وفعله سنَّة والسنَّة حجة على جميع المسلمين، فيجب عليهم طاعته واتباعه في أقواله وأفعاله .

---

[١] المفيد: النكت الإعتقادية:٣٧.

[٢] سيروان عبد الزهرة الجنابي: (قراءة دلالية لعصمة الأنبياء في النص القرآني- النبي موسى (عليه السلام) أنموذجاً)، بحث منشور في وقائع المؤتمر العلمي الخامس لكلية التربية جامعة واسط المنعقد في ١٣ – ٢٠١٢/٣/١٤م، تحت شعار (أقلام باحثينا تصنع الحياة).

[٣] ـ المفيد: أوائل المقالات:٦٢، وينظر: المرتضى: تنزيه الأنبياء:١٧.

[٤] ـ المفيد: أوائل المقالات:٦٢.

وإنَّ جميع المذاهب الإسلامية ينزهون النبي محمد (صلى الله عليه وآله) عن المعصية والخطأ باعتبارهما من المنفرات، والنبي يجب أن يكون بعيداً عن المنفرات لأنَّ الله تعالى قد اختصه بالرسالة وجميع أعماله حجة على الناس فقد نصبه الله تعالى قدوة يقتدون به وأمرهم بطاعته في كل ما يأمرهم به، فلا بدّ أن يكون معصوماً حتى من الخطأ والنسيان[1].

وقد وردت في القرآن الكريم بعض الآيات التي تدل على عصمة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) والأنبياء(عليهم السلام) من قبله، ومنها قوله تعالى:﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاوِيلِ ❖ لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ❖ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[2]

إنّنا حينما نرجع إلى ما قاله المفسرون عند تفسيرهم لهذه الآية نجد أنهم يتّفقون على أنَّ الآية تهدد النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بالقتل والأخذ بالقوة أو يكون ذلك بإذلاله كما لو تمرد الغلام على السلطان إذا تفوه ولو ببعض الأقوال التي لم يأمره الله تعالى بها وإنَّما قالها من تلقاء نفسه[3] .

وذكر الرازي (ت٦٠٦هـ) أن المفسرين ذكروا عدة وجوه في تفسير الأخذ باليمين فيقول مبيناً محصلتها: ((إعلم أنَّ حاصل هذه الوجوه أنَّه لو نسب إلينا قولا لم نقله لمنعناه عن ذلك، إمَّا بواسطة إقامة الحجة فإنا كنا نقيِّض له من يعارضه فيه، وحينئذ يظهر للناس كذبه فيه، فيكون ذلك إبطالا لدعواه وهدما لكلامه، وإمَّا بأن نسلب عنده القدرة على التكلم بذلك القول، وهذا هو الواجب في حكمة الله تعالى لئلا يشتبه الصادق بالكاذب))[4].

إنّ المتأمل في هذه الآيات يجد فيها الاستدراج يتجلى بتهديد الرسول (صلى الله عليه وآله) بأشد العقاب إذا قال ولو بعض الكلمات ونسبها كذباً إلى الله تعالى حيث يقول عزّ من قائل:﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاوِيلِ ❖ لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ❖ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ) ففي هذه

---

[1] ـ ينظر: علي الميلاني: العصمة:٢٢-٢٣.

[2] ـ سورة الحاقة:٤٤-٤٦.

[3] ـ ينظر: السمرقندي: تفسير السمرقندي:٤١٠/٣، والطوسي: التبيان:١١٠/١٠، والواحدي: تفسير الواحدي:١١٣٠/٢، والسمعاني: تفسير السمعاني:٤٢/٢، والرازي: التفسير الكبير:١١٨/٣٠.

[4] ـ الرازي: التفسير الكبير:١١٩/٣٠.

الآيات تهديد ووعيد للنبي(صلى الله عليه وآله) بأنّه إذا تجرأ على الله تعالى(والعياذ بالله) وقال شيئاً ولو قليلاً زيادة منه على القرآن الكريم ولم يأمره الله تعالى به فقد توعده تعالى بالقتل أو الإهانة (والعياذ بالله) فالآية لا تقول إذا كذب علينا وتتحدث بشكل مطلق فيشمل الكذب القليل والكثير وإنما حددت بـ (بَعْضَ الأَقاوِيلِ) فلو قال شيئاً قليلاً من عند نفسه ونسبه إلى الله تعالى كذباً فإن العذاب والقتل والخزي سيصيبه وإن كان نبياً مرسلاً من الله تعالى إلى الناس.

وبما أنّ النبي(صلى الله عليه وآله) لم يلحق به أي مما ذكرته الآية من القتل أو الإهانة والإذلال(والعياذ بالله) وإنَّما وصفه القرآن الكريم بأنّه رحمة للعالمين جميعاً في قوله سبحانه : ﴿ وَما أَرْسَلْناكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ﴾ [1] وقد فضله الله تعالى على جميع خلقه باختياره ليكون خاتماً للأنبياء والمرسلين فلا يختار أياً كان لذلك قال تعالى: ﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسالَتَهُ﴾ [2]، فلا يتحمل هذا العبء الثقيل إلاّ من يكون أهلاً له ويملك الاستعداد للنهوض بهذه المهمة الإلهية العظيمة فكان(صلى الله عليه وآله) سبباً للرحمة على أمته لا أن يحل به العذاب يقول تعالى:﴿ وَما كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [3]وحيث أنَّ النبي محمد(صلى الله عليه وآله) كان محاطاً بنعم الله مؤيداً بنصره وتأييده ولم يحصل له ما ذكرته الآية ففي هذا الأمر دلالة واضحة على صدقه(صلى الله عليه وآله) فيما ينقله عن الله تعالى فلا يحيد في أقواله وأفعاله عمّا أرادته السماء.

ولو عدنا إلى الآية الكريمة ودققنا فيها النظر لوجدنا انَّه تعالى قد استدرج المتلقي باستعماله أسلوب الشرط بـ (لو)؛ ((ف (لو) في النص أداة امتناع لامتناع بمعنى أنَّنا لم نأخذه منه باليمين ولم يجرِ عقابه لأنَّه لم يتَقوَّل علينا بعد ولو فعل لفعلنا؛ وثمة ملحظٌ خطابي في الآية يُظهر في النصِّ دلالة تهديدية عالية الرهبة شديدة القسوة وهو قوله تعالى (بَعْضَ الأَقاوِيلِ)؛ فهو لم يقل: (فلو تقول علينا الأقاويل)؛ بل قال: (بَعْضَ الأَقاوِيلِ)؛ وفي هذا زيادة رهبة وشدة توجس وتحسب؛ ذلك بأنَّ بعضاً من الأقاويل تفعل بالرسول(صلى الله عليه وآله) هذا الفعل العظيم من العقوبة فمال بالُكَ لو تَقوَّل علينا الأقاويل بالاستغناء عن لفظة (بعض)؛ فكان هذا أدعى للتحذُّر وأوجب

---

(١) ـ سورة الأنبياء:١٠٧.

(٢) ـ سورة الأنعام:١٢٤.

(٣) ـ سورة الأنفال:٣٣.

في أخذ الحيطة واستيعاب درجة العقوبة وشدة العذاب الذي سيلحق به لو فعل ذلك؛ ففي الأداة (لو) دلالة على توقُّف للعقوبة بسبب عدم وقوع الحدث فكأنَّ الحدث العقابي مُعَدٌّ وبمجرد وقوع الفعل يحلُّ بالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)؛ وفي لفظة (بعض) تهديدٌ استعداديٌّ لإنزال العقوبة فبمجرد أن يحدث شيءٌ قليلٌ من الرسول ينزلُ بهِ القَصاص الإلهي؛ زيادة على وجود لام القسم في قوله (لأخذنا) التي تدل على أنَّ الأمر محسوم والعقوبة مُنجزة مع لحظة وقوع حدث التَّقوّل؛ لأنَّ القسم يوحي بوثاقة العقوبة في حال وقوع الذنب (التَّقوّل)؛ وتأسيساً على هذه السمات المرعبة في صياغة النص فإنَّه من الواجب على الناس أنْ لا يشكّوا في عدالة الله تعالى طرفة عين؛ لأنَّ الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) نفسه إذا كان يُخاطَب بهذه الحيثية الأسلوبية المريعة فيما لو تَقوّل بعض الأقاويل فكيف سيكون حال من يفعل ذلك من عامة الناس))[1]، وبالمقابل فإنَّ هذه الصياغة الترهيبية تثبت عصمة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)من أنَّه لم يتقول على الله تعالى البتة؛ فليس من شأنه هذا و ليس من دأبه أو منهجه هذا مطلقا؛ وهذا ينص على عصمته بالمآل الأخير لأنَّ المتلقي حينما يتأمل يجد أنَّه(صلى الله عليه وآله وسلم) لم يصبه شيء وهذا يثبت صدقه وعصمته من الوقوع في الخطأ البتة؛ فالتهديد في حقيقية الأمر ليس اليه مباشرة بل لمن يريد أن يفعل ذلك حتى لو كان نبيا.

وبهذه التركيبية الخطابية استدرجهم القرآن الكريم إلى إثبات عصمة النبي محمد (صلى الله عليه وآله) لأنَّ الله تعالى لم يأخذ منه باليمين ولم يقطع منه الوتين البتة وهذا دليل على صدقه (صلوات الله عليه) وعصمته من الخطأ والزيادة فلا يتطرق إليه الشك أو الإرتياب أو السهو والخطأ فإنّه رسول الله الذي أرسله لهداية البشر إلى طريق الهدى والنجاة .

---

[1] سيروان عبد الزهرة الجنابي: (عصمة الرسول محمد (صلى الله عليه وآل وسلم) من الضلالة في النص القرآني - قراءة بمنطق تحليل الخطاب)، بحث منشور في (المؤتمر العلمي الدولي عن شخصية الرسول الاكرم {صلى الله عليه وآله وسلم}) المنعقد في كلية الآداب في جامعة الكوفة في المدة ٢/١٧ – ٢٠١١/٢/٢٢م.

ومن الآيات الأخرى التي تضمنت الاستدراج من أجل إثبات عصمة النبي محمد(صلى الله عليه وآله) هي قوله تعالى:﴿ وَالنَّجْمِ إِذا هَوى ❖ ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى ❖وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ❖ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى﴾[1]

نجد ان سورة النجم المباركة قد ابتدأت بالقسم وهو من أساليب التأكيد التي تستدرج المتلقي إلى الاقتناع بأمر ما، فـ ((القسم إنَّما جئ به لتوكيد المقسم عليه))[2]،وقد تحدَّث الرازي (ت٦٠٦هـ) عن القسم في القرآن؛ فقال: ((إنَّ الأيمان التي حلف الله تعالى بها كلها دلائل أخرجها في صورة الأيمان مثاله قول القائل لمنعمه: وحق نعمك الكثيرة إنّي لا أزال أشكرك فيذكر النعم وهي سبب مفيد لدوام الشكر ويسلك مسلك القسم ... فإن قيل فلم أخرجها مخرج الأيمان؟ نقول: لأنَّ المتكلم إذا شرع في أول كلامه بحلف يعلم السامع أنَّه يريد أن يتكلم بكلام عظيم فيصغي إليه أكثر من أن يصغي إليه حيث يعلم أن الكلام ليس بمعتبر فبدأ بالحلف وأدرج الدليل في صورة اليمين حتى أقبل القوم على سماعه فخرج لهم البرهان المبين، والتبيان المتين في صورة اليمين ... المسألة الثانية: في جميع السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة وهي: الوحدانية والرسالة والحشر ... وفي سورتين منها أقسم لإثبات صدق محمد (صلى الله عليه(وآله) وسلم)، وكونه رسولا في إحداهما بأمر واحد، وهو قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذا هَوى ❖ ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ﴾[3] وفي الثانية بأمرين وهو قوله تعالى: ﴿وَالضُّحى❖ وَاللَّيْلِ إِذا سَجى ❖ما وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَما قَلى﴾[4] وذلك لأنَّ القسم على إثبات رسالته قد كثر بالحروف والقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿يس❖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ❖ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[5]))[6].

فقد ذكر المفسرون أن القرآن الكريم ينفي أن يكون النبي (صلى الله عليه وآله) قد ضلّ أو غوى وإنَّ كل ما يقوله هو الحق والصدق بعيداً عن التأثر برغبات النفس وأهوائها، يقول

---

(١) سورة النجم:٢-٤.

(٢) الزركشي: البرهان:٣/٤٤.

(٣) - سورة النجم:١-٢.

(٤) - سورة الضحى:١-٣.

(٥) - سورة يس:١-٣.

(٦) - الرازي: التفسير الكبير:٢٨/١٩٤، وينظر: السيوطي: الإتقان:٢/٣٥٣-٣٥٤.

الطوسي(٤٦٠هـ) في تفسيره:(((والنجم) قسم من الله تعالى وقد بيَّنا أنَّ الله تعالى له أن يقسم بما يشاء من خلقه، وليس للعباد أن يحلفوا إلا به))[١] وفى معنى " النجم " ثلاثة أقوال : أحدها أنَّ المراد به الثريا إذا سقطت مع الفجر ـ والثاني: أنَّ المراد به القرآن إذا نزل، والثالث: معناه جماعة النجوم .(إذا هوى) أي إذا سقط يوم القيامة[٢]، فقد أقسم القرآن الكريم بالنجم وهذا القسم لا بدّ من أنَّه على شيء عظيم سواء أكان المراد به القرآن أم نجوم السماء فإنَّ كلا المعنيين معجز فإن كان القرآن فهو جوهر الإعجاز وغاية منطق السماء في بيان حجته على الخلق جميعا، وإن أريد به النجوم فإنَّها تعدُّ معجزة كونية لا يقوى أي أحد على فهمها أو معرفة نظامها أو بيان حدودها بل لا يستطيع أحد البتة الوصول إلى غايتها، وبهذا يُعدُّ القسم في مطلع السورة وسيلة استدراجية لجذب المتلقي لأن الله تعالى يريد بها أن يبيِّن عظمته من خلاله واقناع المتلقي بعصمة الرسول الكريم(صلى الله عليه وآله) مطلقا من خلال قسمه بهذا لشيء العظيم، إذ ابتدأ بالقسم ليتبادر في ذهن السامع سؤالٌ عن الشيء الذي أقسم الله تعالى لأجله فعلى ماذا أقسم سبحانه بهذا القسم العظيم إذن مضمون المقسم به لابدَّ من أن يكون عظيما أيضا؛ من هنا وقعت التوطئة وتحقق التمهيد في الاستدراج للمتلقي ليكون مهيئا تمام التهيئة لقبول ما بعد القسم (وهو عصمة الرسول (صلى الله عليه وآله)من الخطأ البتة)، ذلك بأنَّ العرب الذين عاصروا نزول القرآن الكريم كانوا يشعرون بعظمة الشيء الذي أقسم به الله تعالى لأنَّهم أدرى بلغتهم وأساليبها من غيرهم ولعل ما روي عن الأصمعي يؤكد هذا المعنى حينما تلا بعض الآيات من سورة الذاريات على الاعرابي حيث يقول:((أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود له فقال: ممن الرجل؟ قلت: من بنى أصمع، قال: من أين أقبلت؟ قلت: من موضع يتلى فيه كلام الرحمن، فقال: أتل عليَّ؛ فتلوتُ - والذاريات - فقرأتُ - فورب السماء والأرض إنه لحق - فصاح وقال: يا سبحان الله من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف؛ لم يصدقوه بقوله حتى ألجلؤوه إلى اليمين، قالها ثلاثاً، وخرجت معها

---

[١] الطوسي: التبيان:٩/٤٢٠ـ٤٢١ وينظر السمعاني: تفسير السمعاني:٥/٢٨٤،والبغوي: تفسير البغوي:٤/٢٤٤، والطبرسي: جوامع الجامع:٣/٤٤٨،والرازي: التفسير الكبير:٢٨/٢٨٠ـ٢٨١،والطباطبائي: الميزان:١٩/٢٧، الشيرازي: الأمثل:١٧/٢٠٦.

[٢]- ينظر: الطوسي: التبيان:٩/٤٢٠ـ٤٢١، والسمعاني: تفسير السمعاني:٥/٢٨٤،والبغوي: تفسير البغوي:٤/٢٤٤، والطبرسي: جوامع الجامع:٣/٤٤٨،والرازي: التفسير الكبير:٢٨/٢٨٠ـ٢٨١،والطباطبائي: الميزان:١٩/٢٧، الشيرازي: الأمثل:١٧/٢٠٦.

نفسه))[1] فإنّ هذه القصة توضح لنا تأثير القسم في نفس هذا الإعرابي؛ ((لكن لنعرف لم أقسم الله بالنجم؟ الآية التالية توضح ذلك فتقول: (ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى) فهو يخطو في مسير الحق دائما، وليس في أقواله ولا في أعماله أي انحراف! والتعبير بـ (الصاحب) أي الصديق أو المحب لعله إشارة إلى أنَّ ما يقوله نابع من الحب والشفقة!))[2] فضلا عن أنَّ انتقاء هذه المفردة تحديدا في هذا السياق لها أثرها الدلالي في بلوغ عملية الاستدراج إلى بيان عصمة النبي(صلى الله عليه وآله) ذلك بأنَّ ((الخطاب لقريش وإيراده (عليه الصلاة والسلام) بعنوان صاحبيته لهم وللإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة وإحاطتهم خبرا ببراءته (عليه الصلاة والسلام) مما نفى عنه بالكلية واتِّصافه (عليه الصلاة والسلام) بغاية الهدى والرشاد فإنَّ طول صحبتهم له (عليه الصلاة والسلام) ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتما))[3] وهذا الأمر يفضي بالضرورة إلى الاقتناع بمصداقية الرسول(صلى الله عليه وآله) وعدم نسبة الخطأ إليه البتة.

واذا ما عدنا الى مقولات المفسرين في هذا النصّ الكريم فإنَّه سنجد أنَّ ((الكثير من المفسرين لم يفرقوا بين (ضلَّ) و (غوى) بل عدُّوا كلاً منهما مؤكدا للآخر، إلا أنَّ بعضهم يعتقد أنَّ بينهما فرقا وتفاوتا ! فالضلال: هو أن لا يجد الإنسان طريقا إلى هدفه، والغواية: هي أن لا يخلو طريقه من إشكال أو لا يكون مستقيما . فالضلال كالكفر مثلا والغواية كالفسق والذنب))[4].

ويبدو أنَّ الزمخشري(ت٥٣٨هـ) كان ملتفتاً إلى الفارق الدلالي بين لفظتي (الضلال والغواية)؛ إذ قال: ((الضلال نقيض الهدى، والغي نقيض الرشد: أي هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغى))[5] من هنا نفهم بأنَّ ((الضلالة معناها مطلق الجهل وعدم المعرفة، إلا أنَّ الغواية جهل ممزوج أو مشوب بالعقيدة الباطلة؛ وعلى كل حال فإنَّ الله سبحانه يريد بهذه العبارة الموجزة أن ينفي كل نوع من أنواع الانحراف والجهل والضلال والخطأ عن نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن يحبط ما وجهه أعداؤه إليه من التهم في هذا الصدد، ومن

---

[1] الزمخشري: الكشاف:٤/١٧.

[2] الشيرازي: الأمثل:١٧/٢٠٨-٢٠٩.

[3] ابو السعود: تفسير ابي السعود: ٨/١٥٤.

[4] الشيرازي: الأمثل:١٧/٢٠٨-٢٠٩.

[5] الزمخشري: الكشاف:٤/٢٨.

أجل التأكيد على هذا الموضوع وإثبات أن ما يقوله هو من الله فإنَّ القرآن يضيف قائلا: (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى). وهذا التعبير مشابه التعبير الاستدلالي الوارد في الآية آنفة الذكر في صدد نفي الضلالة والغواية عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأنَّ أساس الضلال غالبا ما يكون من اتباع الهوى ... وينبغي الالتفات - ضمنا - إلى أن هذا القول ليس خاصا بآيات القرآن، بل بقرينة الآيات السابقة يشمل سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) أيضا وأنها وفق الوحي، لأن هذه الآية تقول بصراحة (وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى)))[1].

ودليل عصمة وعدم وقوعه في السهو أو الخطأ هو قوله تعالى أيضا (إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى) ذلك بأنَّ الله تعالى قد استعمل الحصر بـ (إن) التي أعطت دلالة النفي و(إلا) فكأنَّه قال: (ما هو إلا وحي يوحي) ويعد الحصر بالنفي ثم الاثبات من أشد أنواع الحصر في الخطابات اللغوية في العربية لأنَّه ينفي أي مقولة خاطئة عن الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) ويثبت له كل مقولة صحيحة لأنَّ ما يقوله موحى إليه وأسند مسألة التوكيد بأسلوب الحصر بالفعل (يوحي) فـ (((يُوحى) صفة لوحي تفيد الاستمرار التجددي وتفيد نفي المجاز: أن هو وحي حقيقة لا لمجرد التسمية))[2].

أمَّا فيما يخصُّ ((بيان الصلة بين المقسم به والمقسم عليه فواضح، لما ذكرنا من أنَّ النجم عند الهوي والميل يهتدي به الساري كما أنَّ النبيّ (صلى الله عليه وآله)يهتدي به الناس، أي بقوله وفعله وتقريره . فكما أنه لا خطأ في هداية النجم لأنها هداية تكوينية إليه))[3].

ممّا تقدّم يتّضح كيف أنَّ القرآن الكريم أثبت عصمة النبي (صلى الله عليه وآله) للناس من خلال استدراجهم إلى ذلك بالقسم على نفي الضلال والغواية عن الرسول الاكرم(صلى الله عليه وآله)، وإنَّه (صلى الله عليه وآله) لا يخطأ ولا يتأثر بالأهواء كباقي البشر فإنَّ هذه الصفات تدل على عصمته فإنَّه إنَّما ينطق بما أراده الله ولا يتكلم بالباطل ابدا، وبهذا أصبح مظهراً لإرادة الله تعالى مطبقاً لأحكامه فلا يضل ولا ينحرف في حياته عن الصراط المستقيم حيث أنَّ الله تعالى قد اختاره لتبليغ رسالته وإقامة حدوده فلا بدّ من أن يكون معصوماً من الخطأ لأنَّ الأمة مكلفة بإتباعه

---

[1] الشيرازي: الأمثل:١٧/٢٠٨-٢٠٩.

[2] الشوكاني: فتح القدير: ١٤٩/٥.

[3] السبحاني: الأقسام في القرآن:٧٨.

وإطاعة أوامره فإن لم يكن معصوماً فإنَّ الأمة ستقع في الضلال والعصيان نتيجةً لإتباعه لكنّه لم يصرح لهم بهذه الحقيقة جملة واحدة وإنّما استدرجهم شيئاً فشيئاً حتى أعلمهم بعصمته من خلال الكلام غير المباشر فلو قال القرآن الكريم لهم إنَّه معصوم لأنَّه رسول الله إليكم فإنَّهم سيردون عليه قوله هذا ولا يصدقونه ولكنّ القرآن الكريم استدرجهم إلى الإعتراف بعصمته (صلى الله عليه وآله) من خلال القسم بالنجم على نفي الضلالة والغواية عنه وإنَّه لا ينطق بحسب أهوائه (صلى الله عليه وآله) وإنّما هو مؤدٍ عن الله تعالى ليهديهم إلى الصواب وينجيهم من العذاب .

ومن الآيات الأخرى التي تضمنت الاستدراج في نطاق إثبات عصمة النبي (صلى الله عليه وآله) قوله تعالى: ﴿وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقابِ﴾[1]

فعندما عرض المفسرون لتفسير هذه الآية أشاروا إلى أنَّ هذه الآية وإن كانت نازلة في تقسيم الفيء إلاّ إنَّ هذا الحكم عام يشمل كل ما أمر به النبي(صلى الله عليه وآله) أو نهى عنه، حيث يقول الطوسي(ت ٤٦٠هـ): ((ثم قال (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ) أي ما أعطاكم رسوله من الفئ فخذوه وارضوا به . وما أمركم به فافعلوه (وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) عنه فإنه لا يأمر ولا ينهى إلا عن أمر الله))[2]فهذه الآية المباركة تأمرهم بعدم عصيان النبي(صلى الله عليه وآله) وإتباع أوامره والإنتهاء عن نواهيه.

ويظهر أنَّ الطبرسي(ت٥٤٨هـ) يتفق مع ما ذكره المفسرون لكنه صرح بعموم هذا الحكم وإن كان نازلاً بخصوص تقسيم الفيء بين المسلمين حيث يقول: ((أي ما أعطاكم الرسول من الفيء فخذوه وارضوا به، وما أمركم به فافعلوه، وما نهاكم عنه فانتهوا عنه، فإنَّه لا يأمر ولا ينهى، إلا عن أمر الله وهذا عام في كل ما أمر به النبي(صلى الله عليه وآله وسلم) ونهى عنه، وإن نزل في

---

[1] سورة الحشر:٧.

[2] الطوسي: التبيان:٥٦٤/٩، وينظر: السمعاني: تفسير السمعاني:٤٠٠/٥، والنسفي: تفسير النسفي:٢٣١/٤.

آية الفيء))[1] ودليل عموم الدلالة التي قال بها الطبرسي هو استعمال (ما) الموصولة في قوله (وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ذلك بأنَّ (ما) تدل على العموم مطلقا لأنَّها اسم موصول[2]، والاسم الموصول يحمل دلالة العموم في كل ما يأمر به وكل ما ينهى عنه من هنا يحمل النص على عمومه بلا نقاش.

ويضيف الشيرازي في تفسيره لهذه الآية معلقاً على قوله تعالى: (ما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا) ((وبالرغم من أنَّ هذا القسم من الآية نزل بشأن غنائم بني النضير، إلا أن محتواها حكم عام في كل المجالات، ومدرك واضح على حجية سنة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) . وطبقا لهذا الأصل فإن جميع المسلمين ملزمون بإتباع التعاليم المحمدية، وإطاعة أوامر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)، واجتناب ما نهى عنه، سواء في مجال المسائل المرتبطة بالحكومة الإسلامية أو الاقتصادية أو العبادية وغيرها، خصوصا أنَّ الله سبحانه هدد في نهاية الآية جميع المخالفين لتعاليمه بعذاب شديد))[3].

فنلحظ أنَّ هذه الآية قد ألزمَت الناس جميعاً بوجوب الطاعة للرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) بدلالة الأمرينِ (فَخُذُوهُ) و(فَانْتَهُوا)، فالأمر منه نافذ والنهي منه جارٍ على سائر الناس، فقد أمر الناس أن يتولّوا مَهَمَّةَ الطاعة لما يُفصِّله الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) فتكون مسؤوليتهم التطبيق وأداء المطلوب منهم دون جدلٍ أو نقاشٍ، وبناءً على دلالتي الآيتينِ يُعدُّ ((كلُّ ما صحَّ ثبوتُهُ عن الرسول قولاً وفعلاً حجةً بنفسهِ كالقرآنِ الكريم))[4] من هنا جاز القول بعصمة الرسول(صلى الله عليه وآله وسلم) وبأنَّ كلّ ما صدر عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ يمثل جوهر الصحة وعلى الناس الأخذ به[5]، ويدخل في سنته (صلى الله عليه وآله

---

[1] الطبرسي: مجمع البيان:٤٣٢/٩، وينظر: ابن الجوزي: زاد المسير:٣٣٧/٧،والرازي: التفسير الكبير:٢٨٦/٢٩،وابن عربي: تفسير ابن عربي:٣٠٩/٢،والغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل:١٠٩/٤،والطباطبائي: الميزان:٢٠٤/١٩،والشيرازي: الأمثل:١٨٤/١٨و١٨٦.

[2] ينظر: الصنعاني: اصول الفقه: ٤٢٧، والرازي: المحصول في علم الأصول: ١٧٥/١.

(٣) الشيرازي: الأمثل/١٨٤/١٨.

[4] والزرقاني: مناهل العرفان في علوم القرآن: ٤٦/٢ وينظر: الشوكاني: ارشاد الفحول: ٣٣.

[5] ينظر: الحكيم: الاصول العامة للفقه المقارن: ١٢٢ وحمادة: السنة النبوية ومكانتها في التشريع: ٢١.

وسلم) أيضاً ما نقله الأئمة المعصومون (عليهم السلام) عنه (صلى الله عليه وآله وسلم) فهم حجة في ذلك، إذ يمكن لأقوالهم أن تفصِّل المجمل الوارد في القرآن[1]، و((يكفي إثبات الحجية لها كونها مروية من طريقهم عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وصدورها عنهم باعتبارهم من الرواة الموثوقين))[2] في روايتهم.

نقول إنَّ المتأمل في ما تضمنته هذه الآية المباركة من أمر المسلمين بالأخذ بكل ما أمرهم به أو نهاهم النبي(صلى الله عليه وآله) عنه وعدم المناقشة أو التشكيك في صحة تلك الأوامر والنواهي وإن كانت أنفسهم لا ترتضي ذلك؛ لأنَّ ذلك في بعض الأحيان يتعارض مع أهوائهم وخصوصاً أنهم حديثوا عهدٍ بالإسلام فليس من السهل أن يتحمَّلوا كل ما جاءهم به من تعاليم وتشريعات فهذه الآية وكما ذكر المفسرون أنها وإن كانت نازلة في تقسيم الفيء بين المسلمين إلاّ إنَّها عامة شاملة لكل أوامر النبي (صلى الله عليه وآله) لأنَّه رسول لله إليهم ليحكم بينهم بما أمره به الله تعالى فإنَّ هذه الآية المباركة تأمر المسلمين بالطاعة المطلقة للنبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) في كل أوامره ونواهيه لأنَّه لا يأمر ولا ينهى بشيء من تلقاء نفسه وإنَّما هو في أمره ونهيه مبلغ عن الله تعالى وبذلك فقد استدرجهم القرآن الكريم إلى اثبات عصمته(صلى الله عليه وآله) فإنَّ الأمر بالطاعة المطلقة للرسول محمد(صلى الله عليه وآله) لا يكون الاّ إذا كان معصوماً لا يعصي الله تعالى و لا يخطيء و لا يسهو في جميع أحواله، وهكذا فقد استدرجهم القرآن الكريم للإيمان بعصمته(صلى الله عليه وآله) ولكن بصورة غير مباشرة فلو قال لهم: (عليكم بطاعة النبي(صلى الله عليه وآله) لأنه معصوم من الخطأ والزلل) فقد لا يستسيغ بعضهم هذا الأمر ولذا عمد الى التدرج معهم لأجل أن يتقبلوا هذه الحقيقة فإن طاعتهم له (صلى الله عليه وآله) في كل ما يأمرهم به وترك كل ما ينهاهم عنه إنّما هو إقرار عملي بعصمته (صلى الله عليه وآله) ولكن بطريق غير مباشر كما أسلفنا وهكذا فقد حققَّ القرآن الكريم ما يريده من المسلمين من خلال الاستدراج.

---

[1] ينظر: الحكيم: الاصول العامة للفقه المقارن: ١٤٨ وما بعدها.

[2] الحكيم: الاصول العامة للفقه المقارن: ١٤٨.

لقد اتَّضح من استقرائي ظاهرة الاستدراج في الآيات الكريمات اللآتي أثبتن عصمة النبي الأكرم محمد(صلى الله عليه وآله وسلم) أنَّ هذه النصوص الكريمة كانت تؤدي غايتها استدراجا عن طريق استعمال أساليب معينة وقد كانت على النحو الآتي:

١. استعمال أسلوب الشرط بـ (لو) فهي أداة امتناع لإمتناع؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنا بَعْضَ الأَقاوِيلِ ❖ لأَخَذْنا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ❖ ثُمَّ لَقَطَعْنا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾[1]وحيث أنَّ جواب الشرط لم يتحقق وهو الأخذ باليمين وقطع الوتين فإنَّ ذلك يدل على عصمة النبيِّ الأعظم محمد(صلى الله عليه وآله) بالضرورة واللزوم من الكذب مطلقا؛ فضلا عن عصمته من الخطأ والزلل عموما.

٢. استعمال أسلوب القسم لتأكيد عصمة النبي الأكرم محمد(صلى الله عليه وآله) لإزالة أي شك من نفس المخاطب؛ فقد ثبتت عصمته(صلى الله عليه وآله) من خلال القسم بالنجم على أنَّه صادق فيما يقول بعيدٌ عن الغواية والضلال ابداً .

٣. الأمر بالطاعة المطلقة لرسول الله محمد(صلى الله عليه وآله) في جميع أوامره ونواهيه وهذا يثبت عصمته(صلى الله عليه وآله) بلا نقاش؛ فلو لم يكن معصوماً من الخطأ لوقع المسلمون في الخطأ نتيجة اتباعهم له(صلى الله عليه وآله) فكيف يكون قوله وفعله حجة على الناس وهو عرضة للذنب والخطأ والنسيان(والعياذ بالله)؛ وبهذا فقد ثبت أنَّه(صلى الله عليه وآله) معصوم من الخطأ والسهو فضلاً عن الذنب لأنَّ اله تعالى أمر بطاعة أوامره والإنتهاء عن نواهيه؛ وهذا يقتضي الحكمة المطلقة للرسول ومن هنا تُستَحْصَلُ العصمةُ له مُطلقاً .

[1] ـ سورة الحاقة:٤٤.

المبحث الخامس: الاستدراج في نطاق إثبات البعث والنشور:

إنَّ الإعتقاد باليوم الآخر وأن الله تعالى يعيد الحياة للموتى هو عنصر أساس في كل الشرائع السماوية والنواميس الإلهية التي جاء بها الأنبياء جميعاً (عليهم السلام)؛ لأنَّ هذه الشرائع إذا لم تتضمن هذا الإعتقاد تكون بذلك تابعة إلى الأديان البشرية التي توسم بالمادية تلك التي لا ترتبط بالله تعالى والاعتقاد بأنَّه سبحانه يحي الموتى بعد موتهم، وقد اعتنى القرآن الكريم أيَّما عناية بهذه العقيدة وتحدث عنها في مواضع كثيرة وقد أحصاها العلماء فوجدوا حوالي ألف وأربعمائة آية تتحدث عن المعاد[1] .

ولقد واجه المشركون هذه العقيدة الحقة التي جاء بها الإسلام بالإنكار والتشكيك وكانوا يسخرون منها ويصفونها بالأسطورة التي لا واقع لها، وإنَّ إنكارهم لفكرة البعث واليوم الآخر لم يكن مستنداً الى دليل حقيقي أو مادي ملموس؛ بل إنَّ منشأ ذلك هو الظن واستبعاد إمكان تحققه، فكانوا يشككون في إمكانية تحول جسد الإنسان الذي أصبح بعد موته إلى ذرات ترابية إلى إنسان جديد يتمتع بكامل قواه البدنية والعقلية، لذلك اتَّخذ القرآن الكريم أساليب متعددة من أجل إزالة الشك والارتياب عن هذه العقيدة وترسيخ فكرة وجودها حقيقة في نفوسهم حيث استعمل ثلاث طرائق لاستدراجهم لإثبات ذلك وهي :

١. الطريقة العقلية.

٢. الطريقة الحسية.

٣. إثبات المعاد في نطاق قدرة الله تعالى وحكمته سبحانه[2].

وانّنا حينما نرجع إلى القرآن الكريم ونلاحظ الآيات القرآنية التي تحدثت عن المعاد نجد سمة الاستدراج فيها واضحةً فإنه لم يواجههم بهذه الحقيقة؛ بل استدرجهم إلى الإيمان بها من خلال خطابه المقنع الذي يصل بالمتلقي تدريجياً إلى الإيمان بما تريده السماء منه .

فقد استعمل القرآن الطريقة العقلية لإثبات المعاد واستدرجهم إلى إمكان تحققه من خلال التعقل وتذكر الإنسان ببداية حياته[3]، كما في قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ

(١) ـ ينظر: السبحاني: محاضرات في الإلهيات:٤٠٣.

(٢) ـ ينظر: محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن:١١٥-١١٨.

(٣) ـ ينظر:م.ن:١١٥-١١٦.

خَصِيمٌ مُبِينٌ ❖ وَضَرَبَ لَنا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ❖ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ❖ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ❖أَ وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ❖ إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ❖فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1]

وقد تحدث المفسرون عما تضمنته هذه الآيات من إقامة للحجة على المنكرين للمعاد حيث يقول الطوسي(ت٤٦٠هـ): ((ثم قال مُنبِّهاً لخلقه على الاستدلال على صحة الإعادة والنشأة الثانية، فقال: (أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسانُ) ومعناه أولم يعلم (أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) ومعناه إنَّا نقلناه من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ومن العظم إلى أن جعلناه خلقا سوياً، وجعلنا فيه الروح وأخرجناه من بطن أمه وربيناه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن كمل عقله وصار متكلماً خصيماً عليما، فمن قدر على جميع ذلك كيف لا يقدر على الإعادة، وهي أسهل من جميع ذلك؟! ولا يجوز أن يكون خلق الإنسان ولا خالق له، ولا أن يكون واقعا بالطبيعة، لأنَّها في حكم الأموات في أنَّها ليست حية قادرة، ومن كان كذلك لا يصح منه الفعل ولا أن يكون كذلك بالاتفاق لأنَّ المحدَث لابد له من محدِث قادر ... وقال الحسن: جاء أمية إلى النبي (صلى الله عليه وآله) بعظم بال قد بلي، فقال يا محمد أتزعم ان الله يبعث هذا بعدما بلي! قال: نعم، فنزلت الآية، والرميم هو البالي، فقال الله تعالى في الرد عليه (قل)يا محمد لهذا المتعجب من الإعادة(يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَها أَوَّلَ مَرَّةٍ حييها الذي أنشأها أول مرة)لأنَّ من قدر على الاختراع لما يبقى من غير تغيير عن صفة القادر، فهو على اعادته قادر لا محالة .... ثم وصف نفسه فقال: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً فَإِذا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ)؛ فبيَّنَ أن من قدر على أن يجعل في الشجر الاخضر الذي هو في غاية الرطوبة نارا حامية مع تضاد النار للرطوبة ... فمن قدر على ذلك لا يقدر الإعادة؟!))[2].

بعد ذلك يسترسل الطوسي مبيِّناً وجهاً عقليا من وجوه الاستدراج على أحقية إعادة الموتى من خلال عرضه لمنطق آخر في الآية الكريمة وهو خلق السماوات والأرض، فهذا الأمر أعظم من مسألة إرجاع الإنسان بعد موته إلى الحياة؛ فمن آمن بأنَّ الله تعالى قد خلق السماوات والأرض

---

(١) - سورة يس:٧٨-٨٢.

(٢) ـــــ الطوسي: التبيان:٨/٤٧٧ـــ٤٧٩،وينظر: السمعاني: تفسير السمعاني:٤/٣٨٩ـــ٣٩٠،والبغوي:٤/٢٠ـــ٢١،والزمخشري: الكشاف:٣/٣٣١ـــ٣٣٢،والطبرسي: مجمع البيان:٨/٢٩٠-٢٩٢،وابن الجوزي: زاد المسير:٦/٢٨٣-٢٨٤،الطباطبائي: الميزان:١٧/١١١-١١٦.

يجب أن يؤمن بأنَّ الله تعالى قادر على إرجاع الموتى لأنَّ تحقق العظيم لديه ما دونه عليه أيسر؛ إذ يقول الطوسي: ((ثم نبههم على دليل آخر فقال: (أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)؛ ومعناه من قدر على اختراع السماوات والأرض كيف لا يقدر على أمثاله؟!، وقد ثبت أنَّ من شأن القادر على الشيء أن يكون قادرا على جنس مثله وجنس ضده، ودخول الباء في خبر (ليس) لتأكيد النفي، ثم قال تعالى مجيبا عن هذا النفي فقال: (بَلى وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ)؛ أي هو خالق لذلك عالم بكيفية الإعادة، ثم قال تعالى(إِنَّما أَمْرُهُ إِذا أَرادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)، والمعنى بذلك الاخبار عن سهولة الفعل عليه وانه إذا أراد فعل شئ فعله بمنزلة ما يقول للشيء كن فيكون في الحال (فَسُبْحانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) ومعناه: تنزيها له عن نفي القدرة على الإعادة وغير ذلك مما لا يليق به الذي يقدر على الملك، وفيه مبالغة (وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) يوم القيامة الذي لا يملك فيه الأمر والنهي سواه، فيجازيكم على قدر أعمالكم من الطاعات والمعاصي بالثواب والعقاب))[1].

يخاطب القرآن الكريم الإنسان في هذه الآيات وقد استعمل في بدء في حديثه أسلوب الإستفهام حيث قال: (أَوَلَمْ يَرَ الإِنْسانُ أَنَّا خَلَقْناهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ) فيسأله عن كيفية خلقه ووجوده فيذكره بقدرة الله تعالى ليعرف من خلال ذلك خالقه تعالى، فلم يخاطبه القرآن الكريم باسلوب حاد أو متشنج لأنَّ ذلك سيؤدي إلى رفضهم وعدم استماعهم له، بل استدرجه إلى استماع حججه عن طريق السؤال والحوار الهاديء القائم على الحجج العقلية والبراهين القاطعة التي تدل على بطلان عقائدهم وإنحرافهم عن جادة الصواب .

مما تقدم يتّضح كيف أنَّ القرآن الكريم استدرجهم إلى حتمية وقوع المعاد وقدرة الله تعالى على بعث الأموات وإعادة الحياة إليهم من جديد، فالقرآن الكريم من خلال سؤاله للإنسان عن بدايته خلقه من تراب لا حياة فيه وكيف أن الله تعالى نقله من مرحلة إلى مرحلة فهل أنَّ هذا الخالق المبدع يعجز عن إعادته إلى الحياة وهو العليم بما خلق؟

ثم ينتقل إلى دليل آخر فيقول: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ ناراً) فالذي أخرج النار التي توقدونها من الأشجار الرطبة أليس بقادر على إعادة الحياة فقد جمع بين الضدين بين

---

[1] الطوسي: التبيان:٨/٤٧٧ـ٤٧٩،وينظر: السمعاني: تفسير السمعاني:٤/٣٨٩ـ٣٩٠،والبغوي:٤/٢٠ـ٢١،والزمخشري: الكشاف:٣/٣٣١ـ٣٣٢،والطبرسي: مجمع البيان:٨/٢٩٠-٢٩٢،وابن الجوزي: زاد المسير:٦/٢٨٣-٢٨٤،الطباطبائي: الميزان:١٧/١١١-١١٦.

الماء والنار وهذه الأمور مما يشاهدونها ويألفونها في حياتهم اليومية فأراد القرآن الكريم أن ينبههم إليها فمن قدر عليها ألا يقدر على بعث الأموات من قبورهم؟

ثم نبههم القرآن الكريم إلى ما هو أكبر من ذلك وأعظم وهو خلق السماوات الأرض وما بينهما فيقول: (أَ وَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالأَرْضَ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ) فأيهما أصعب عليه إعادتهم للحياة أم خلق السماوات والأرض؟

وبذلك تحقق استدرجهم شيئاً فشيئاً إلى ضرورة الإيمان بالبعث لأنَّ الله تعالى قادر على أن يبعثهم من قبورهم ليحاسبهم على أعمالهم عن طريق إعمال العقل والتفكر بما خلق الله تعالى .

أما الطريقة الثانية التي استعملها القرآن الكريم لإقناعهم بإمكان البعث وحتمية وقوعه هي الطريقة الحسية، وذلك من خلال إلفات أنظارهم إلى مشاهدة أمثال عملية البعث والنشور في حياتهم اليومية من خلال ملاحظة عمليات التحول والتجدد في خلق الإنسان نفسه وكذلك يجد مثل هذا التحول والتجدد في حياة النباتات التي تنمو في البيئة التي يعيش فيها فيرى تحول الأرض الجرداء إلى روضة غناء تبعث في النفس البهجة والإرتياح[1] .

فإنَّه يذكرهم بقدرة الله المطلقة فالذي أوجدهم من العدم وأوجد النبات من الأرض الميتة كيف لا يقدر على إعادة الحياة إليهم ليحاسبهم على أعمالهم وغيرها من البراهين والحجج التي استدلَّ بها القرآن الكريم على إمكانية البعث والنشور، ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ❖ ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ❖ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[2].

ففي هذا الخطاب القرآني نجد الاستدراج للمشككين بالبعث والنشور فعندما نعود إلى بطون المدونات التفسيرية نجد أنَّ علماء التفسير على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم يشيرون إلى أنَّ القرآن الكريم يؤكد للناس –في هذه الآية الكريمة– قدرة الله تعالى على بعث الأموات وإعادة الحياة إليهم

(١) ـ ينظر: محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن: ١١٦.

(٢) ـ سورة الحج:٥-٧.

بعد موتهم؛ لأنَّ من خلقهم أول مرة قادر على إعادتهم، وقد تدرّج النص القرآني معهم في الخطاب بذكر الأدلة التي تثبت قدرة الله تعالى على تحقيق وعده فإنَّ الإنكار بدايته الشك والإرتياب في الأمر فبدأ معهم متدرجاً بذكر الأدلة التي من شأنها أن تزيل شكهم وإرتيابهم إذ يقول السمرقندي (ت٣٨٣هـ) في ذلك ما نصّه: ((قوله عز وجل (يا أَيُّهَا النَّاسُ) يعني يا كفار مكة (إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ) يعني في شك (مِنَ الْبَعْثِ) بعد الموت فانظروا إلى بدء خلقكم (فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ) يعني من آدم (عليه السلام) وآدم من تراب (ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ) قيل إنما نقلناكم من حال إلى حال من خلقة إلى خلقة (ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ) مثل قطعة كبد (مُخَلَّقَةٍ) أي تامة (وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) يعني غير تامة وهو السقط ويقال مصورة وغير مصورة (لِنُبَيِّنَ لَكُمْ) بدءاً خلقكم ... (وَنُقِرُّ فِي الأَرْحامِ ما نَشاءُ) فلا يكون سقطا (إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى) يعني إلى وقت خروجه من بطن أمه ويقال إلى وقت معلوم لتسعة أشهر (ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً) من بطون أمهاتكم أطفالا صغارا... (ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ) يعني ثمانية عشر سنة إلى ثلاثين سنة ويقال إلى ست وثلاثين سنة والأشد هو الكمال في القوة والخير (وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى) يعني من قبل أن يبلغ أشده (وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلى أَرْذَلِ الْعُمُرِ) يعني أضعف العمر وهو الهرم ويقال يعني يرجع إلى أسفل العمر يعني يذهب عقله (لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً) يعني لكيلا يعقل بعد عقله الأول))[1]، ثم انتقل بعد ذلك إلى دليل آخر حسي من حياتهم اليومية يرونه بأعينهم عندما تكون الأرض لا حياة فيها وعندما يسقط المطر تخضر بالزرع ؛ حيث يستطرد السمرقندي بكلامه قائلاً: ((ثم دلَّهم على إحيائه الموتى بإحيائه الأرض فقال تعالى: (وَتَرَى الأَرْضَ هامِدَةً) يعني ميتة يابسة جافة ذات تراب (فَإِذا أَنْزَلْنا عَلَيْهَا الْماءَ) يعني المطر (اهْتَزَّتْ) يعني تحركت بالنبات كقوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ﴾[2] يعني تتحرك ويقال (اهتزت) أي استبشرت (وَرَبَتْ) يعني إنتفخت بالنبات وأصله من ربا يربو وهو الزيادة (وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ) يعني من كل صنف من ألوان النبات (بَهِيجٍ) أي حسنا يبهج به))[3]فإنَّ إحياء هذه الأرض التي كانت بالأمس ميتة تخلو من الزرع والنبات بمجرد نزول المطر؛ فإنَّ هذا الأمر يعدُّ دليلا على قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فمن كانت له هذه القدرة العظيمة فهو الإله الذي تجب عبادته لأنَّه أهل لها لا ما يعبدون من الآلهة العاجزة المفتقرة؛ ((فدلهم للبعث بإحياء الأرض ليعتبروا ويعلموا

---

(١) ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي: ٤٤٩/٢ــ٤٥٠، وينظر: الزمخشري: الكشاف:٥/٣ــ٦،والطبرسي: التبيان:١٢٨/٧-١٢٩،والفيض الكاشاني: التفسير الأصفى:٧٩٦/٢-٧٩٧.

(٢) ـ سورة النمل:١٠.

(٣) ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:٤٥٠/٢، وينظر: الزمخشري: الكشاف:٦/٣،والطبرسي: التبيان:١٢٩/٧،والفيض الكاشاني: التفسير الأصفى:٧٩٧/٢.

بأنَّ الله هو الحق وعبادته هي الحق وغيره من الآلهة باطل))[1] ثم يعقب بقوله تعالى: (ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)؛ فـ ((لما قدَّم سبحانه ذكر الأدلة، عقبه بما يتصل به فقال: (ذلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ) معناه: ذلك الذي سبق ذكره من تصريف الخلق على هذه الأحوال وإخراج النبات بسبب أنَّ الله هو الحق أي: ليعلموا أنَّه الذي يحق له العبادة دون غيره، وقيل: هو الذي يستحق صفات التعظيم (وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتى) لأنَّ من قدر على إنشاء الخلق، فإنَّه يقدر على إعادته .(وَأَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) أما المعدومات فيقدر على إيجادها، وأما الموجودات فيقدر على إفنائها وإعادتها، ويقدر على جميع الأجناس، ومن كل جنس، على ما لا نهاية له، (وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لا رَيْبَ فِيها) أي: وليعلموا أنَّ القيامة آتية لا شك فيها (وَأَنَّ اللهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ) أي : يحييهم للجزاء، لأنَّ ما ذكرناه يدل على البعث))[2].

يتَّضح مما تقدم أنَّ القرآن الكريم دعاهم الى التفكير والنظر في أصل خلقهم عن طريق مراجعة الحس لهذه للمشاهد التي تثبت لهم امكانية ذلك عياناً، حيث سلط الضوء تدرجيا للنظر الى مراحل حياتهم فإذا ما ثبتت قدرة الله تعالى في البدء تثبت له القدرة في الإعادة، وكذلك استدرجهم حسياً من خلال التأمل والتفكر في قدرة الله على إحياء الأرض الميتة وإخراج أنواع النبات منها فهو من أوضح الدلالات على إمكان البعث، يقول أبو السعود (ت٩٥١هـ) في ذلك : (((لِنُبَيِّنَ لَكُمْ)...أي خلقناكم على هذا النمط البديع لنبيِّن لكم بذلك مالا تحصره العبارة من الحقائق والدقائق التي من جملتها سر البعث فإنَّ من تأمل فيما ذكر من الخلق التدريجي تأملا حقيقيا جزم جزما ضروريا بأنَّ قدر على خلق البشر أولاً من تراب لم يشم رائحة الحياة قط وإنشائه على وجه مصحح لتوليد مثله مرة بعد أخرى بتصريفه في أطوار الخلقة وتحويله من حال إلى حال مع ما بين تلك الأطوار والأحوال من المخالفة والتباين فهو قادر على إعادته؛ بل هو أهون في القياس نظرا إلى الفاعل والقابل))[3] .

ويبدو أنَّ الشيرازي لا يخرج في تفسيره لهذه الآيات عمّا ذكره المفسرون لكنَّه أشار إلى أنَّ القرآن الكريم ذكر دليلين منطقيين لإثبات المعاد وإمكان وقوعه؛ إذ يقول: ((بما أن البحث في الآيات السابقة كان يدور حول تشكيك المخالفين للمبدأ والمعاد، فالآيات محل البحث طرحت دليلين منطقيين قويين لإثبات المعاد الجسماني: أحدهما التغيرات التي تحدث في مراحل تكوين الجنين، والآخر هو التغيرات التي تحدث في الأرض عند خروج النبات، والقرآن شرح صورا

---

[1] ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:٢/٤٥٠.

[2] ـ الطبرسي: مجمع البيان:٧/١٣٠.

(٣) ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٦/٩٤،وينظر: الشوكاني: فتح القدير:٣/٤٣٦، والطباطبائي: الميزان:١٤/٣٤٤.

للمعاد مما يلمسه الناس في هذه الدنيا، ويرونه بأم أعينهم، إلا أنَّهم لم ينتبهوا لذلك، ليعلموا أنَّ الحياة بعد الموت ليست ضربا من الخيال؛ بل هي حادثة فعلاً مشهودة للعيان، والخطاب القرآني يعم جميع الناس بنوره (يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ) كل ذلك من أجل أن نوضح لكم حقيقة قدرتنا على القيام بأي عمل لنبين لكم ... أن إحياء الموتى يسير على الله جلت عظمته ... ثم تتناول الآية بيان الدليل الثاني أي حياة النباتات، فتبين ما يلي: تنظر إلى الأرض في فصل الشتاء فتجدها جافة وميتة، فإذا سقط المطر وحل الربيع، دبَّت الحياة والحركة فيها ونبتت أنواع النباتات فيها ونمت وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج))[1] وبهذا يصل الشيرازي إلى جملة استنتاجات تثبت مبدأ العودة للإنسان وأنَّ الله تعالى قادر على ذلك قطعا، حيث يقول الشيرازي: ((الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصلنا إليه، وذلك باستعراض خمس ملاحظات:

١- إنَّ ما استعرضته الآيات الخاصة بالمراحل التي تسبق مراحل الحياة للإنسان وعالم النبات، من أجل أن تعلموا أنَّ الله تعالى حق ذلك بأنَّ الله هو الحق وبما أنَّه هو الحق، فالنظام الذي خلقه حق أيضا، لهذا لا يمكن أن يكون هذا الخلق دون هدف، كما يذكر القرآن الكريم هذا المعنى في مورد آخر : ﴿وَما خَلَقْنَا السَّماءَ وَالأَرْضَ وَما بَيْنَهُما باطِلاً ذلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾[2] ؛ وبما أنَّ هذه الحياة ليست عبثا، وأنَّ لها هدفا، وأنَّنا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف في حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد والبعث حتما .

٢- إنَّ هذا النظام الذي يسيطر على عالم الحياة يقول لنا وأنه يحيي الموتى، إنَّ الذي يلبس الأرض لباس الحياة، ويغير النطفة التافهة إلى إنسان كامل، ويمنح الحياة للأرض الميتة، لقادر على أن يمنح الحياة للموتى، فهل يمكن التردد في قبول فكرة المعاد مع وجود كل هذه التشكيلات الحية الدائمة للخالق جل وعلا في هذا العالم ؟

٣- الهدف الآخر هو أن نعلم وأنَّه على كل شيء قدير ولا يستحيل على قدرته شيء، هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميتة إلى نطفة؟ ويطور هذه النطفة التافهة في مراحل الحياة؟ ويلبسها كل يوم لباسا جديدا من الحياة! ويجعل الأرض الجافة العديمة الروح خضراء زاهية تعلوها بهجة الحياة؟!؛ أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيي الإنسان بعد موته؟!

---

[1] الشيرازي: الأمثل:١٠/٢٨٤-٢٨٥.

[2] سورة ص: ٢٧ .

٤- إنَّ كلَّ هذا لتعلموا أنَّ ساعة نهاية هذا العالم وبداية عالم آخر، ستحل بلا شك فيها وإنَّ الساعة آتية لا ريب فيها .

٥- ثم إنَّ كل هذا مقدمة لنتيجة أخيرة هي وأنَّ الله يبعث من في القبور، وهذه النتائج الخمس بعضها مقدمة، وبعضها ذو المقدمة، البعض منها إشارة إلى الإمكان، والآخر إشارة إلى الوقوع، ومترتبة بعضها على بعض وكل يكمل صاحبه، وجميعها ينتهي إلى نقطة واحدة، هي أن البعث ليس ممكن فحسب، بل إنه سيقع حتما))[1] دون أدنى شك أو تردد البتة.

يتّضح مما تقدم أنَّ القرآن الكريم استدرج المنكرين للبعث أو المشككين في إمكان وقوعه من خلال تذكيرهم بأنَّ الله تعالى هو الذي خلقهم من التراب وجعلهم يتدرجون في مراحل نموهم وتكاملهم الجسمي والعقلي، وهو الذي أحيا الأرض الميتة بأنواع النبات المختلف ألوانه وأشكاله، فالذي قدر على خلق الإنسان من التراب وأخرج النبات من الأرض الميتة كيف لا يقدر على إعادة الحياة إليهم من جديد ليحاسبهم بما عملوا في حياتهم الدنيا، وإنَّ بعث الأموات من قبورهم لا بدّ من وقوعه لأنَّ الله تعالى يحكم فيه بالعدل بين العباد فيثيب المحسن ويعاقب المسيء .

ومن الأساليب الإقناعية التي استعملها القرآن لإثبات المعاد هو إتجاه تأكيد عظمة الله تعالى وقدرته المطلقة التي لا يمتنع منها شيء، لأنَّ قدرة الله تعالى هي ذاتها التي خلق بها كل ما في الوجود فإذا كان الامر كذلك فما الذي يمنع أو يقف عائقاً أمام هذه القدرة التي لا تقف عند حدٍّ معين من أن تعيد هذا الوجود بعد فنائه!

فإذا لم يكن هناك مانع يمنع قدرة الله تعالى في إيجاد هذا الوجود من قبل كذلك الأمر بالنسبة إلى إعادته[2]؛ وبهذا فقد استدرجهم سبحانه إلى إثبات المعاد وإنَّه واقع لا محالة وردّ شبهاتهم وأوقفهم على بطلان ما اعتقدوا فيه، ومن تلك الآيات التي تحدثت في هذا المجال قوله تعالى: ﴿بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الأَوَّلُونَ ❖ قالُوا أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ❖ لَقَدْ وُعِدْنا نَحْنُ وَآباؤُنا هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ ❖ قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيها إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ❖ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ ❖ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

(١) ـ الشيرازي: الأمثل:١٠/٢٨٦-٢٨٧.

(٢) ـ ينظر: محمد حسين فضل الله: الحوار في القرآن:١١٧.

❖سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَ فَلا تَتَّقُونَ ❖ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ❖ سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾[1]

هذه الآيات المباركات تتحدث عن أمرين الأول: تقدم فيه وصفاً لعقيدة الكفار بالبعث بعد الموت، والأمر الثاني: الذي تحدثت عنه هو الحوار الذي دار بين النبي محمد (صلى الله عليه وآله) بأمر الله تعالى لإقامة الحجة عليهم وكشف زيف اعتقادهم يقول الطوسي(ت٤٦٠هـ): ((أخبر الله تعالى حاكيا عن الكفار ممن عاصر النبي (صلى الله عليه وآله) أنَّهم لم يؤمنوا بالله ولم يصدقوا رسوله في اخلاص العبادة له تعالى (بَلْ قالُوا مِثْلَ ما قالَ الأَوَّلُونَ) أي مثل الذي قاله الكفار الأولون: من انكار البعث والنشور والحساب والجنة والنار، فأقوال هؤلاء مثل أقوال أولئك. وإنَّما دخلت عليهم الشبهة في انكار البعث، لأنَّهم لم يشاهدوا ميتا عاش، ولا جرت به العادة، وشاهدوا النشأة الأولى من ميلاد من لم يكن موجودا، ولو فكروا في أنَّ النشأة الأولى أعظم منه لعلموا أنَّ من أنكره فقد جهل جهلا عظيما، وذهب عن الصواب ذهابا بعيدا، لأنَّ من قدر على اختراع الأجسام لا من شيء، قدر على إعادتها إلى الصفة التي كانت عليها، مع وجودها. ثم حكى ما قال كل منهم، فإنهم قالوا منكرين(أَ إِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) أي كيف نصير أحياء بعد أن صرنا ترابا ورمما وعظاما نخرة؟! ثم قالوا" لقد وعدنا بهذا الوعد نحن وآباؤنا من قبل هذا الموعد، فلم نرَ لذلك صحة، ولا لهذا الوعد صدقا، وليس (هذا مِنْ قَبْلُ إِنْ هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الأَوَّلِينَ) أي ما سطره الأولون مما لا حقيقة له في الكتب))[2] فإنَّهم كانوا يرون من المستحيل أن تعود الحياة لمن مات قبل مئات السنين؛ بل آلاف السنين وانَّ هذا الوعد كاذب لن يتحقق لعدم إمكانية حصوله، وبعد أن بيّن القرآن الكريم رأيهم في المعاد والحساب وتكذيبهم به يأمر الله تعالى نبيه الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) بمحاورتهم وإقامة الحجة عليهم ليستدرجهم بذلك إلى الإيمان بالبعث والنشور، يقول الغرناطي الكلبي(ت٧٤١هـ) واصفاً ما تضمنته هذه الآيات: ((هذه الآيات توقيف لهم على أمور لا يمكنهم الإقرار بها وإذا أقروا بها لزمهم توحيد خالقها والإيمان بالدار الآخرة))[3] فبدأ حواره بالإستفهام كما في الآيات السابقة لما فيه من خاصية تدفع بالمتلقي إلى التفكر والتأمل من أجل أن يجد جواباً لمن يسأله وهو من الوسائل المهمة لاستدراج السامع لإقناعه بأمر ما فهو يتدرج بالأسئلة ولم يجابههم بالحقيقة من أول الأمر وهي (أنهم يعلمون أنَّ خالق

---

(١) ـ سورة المؤمنون:٨١-٨٩.

(٢) الطوسي: التبيان: ٣٨٧/٧،وينظر: النسفي: تفسيرالنسفي:١٢٨/٣-١٢٩،والزمخشري:الكشاف:٤٠/٣،والطبرسي: مجمع البيان:٢٠٣/٧-٢٠٤،والرازي:التفسير الكبير:١١٥/٢٣-١١٦، والبيضاوي: تفسير البيضاوي:١٦٥/٤.

(٣) ـ الغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل:٥٥/٣، وينظر: الثعالبي: تفسير الثعالبي:١٥٩/٤-١٦٠.

الكون ومالكه هو الله تعالى ومع ذلك يشركون به فهم على باطل وضلال) فلو قال لهم ذلك فإنَّه سيؤدي إلى ردة فعل عنيفة منهم لأنَّهم يشعرون بالإهانة وعدم الاحترام لآرائهم لذلك استعمل أسلوب الاستفهام لأنَّه يبعده عن مواجهة المقابل بحقيقته مباشرةً فهو لا يتهمهم بشيء من عند نفسه؛ بل يجعلهم هم الذين يعترفون بضلالهم وإنحرافهم عن الصواب فبدأ بقوله: (قُلْ لِمَنِ الأَرْضُ وَمَنْ فِيها) فإن كنتم تعتقدون بعدم بعث الأموات من قبورهم فأخبروني بمن يملك الأرض وما تحمل فيها من مخلوقات، ((ووجه الاستدلال به على الإعادة أنَّه تعالى لما كان خالقا للأرض ولمن فيها من الأحياء، وخالقا لحياتهم وقدرتهم وغيرها، فوجب أن يكون قادرا على أن يعيدهم بعد أن أفناهم، ووجه الاستدلال به على نفي عبادة الأوثان، من حيث إنَّ عبادة من خلقكم وخلق الأرض وكل ما فيها من النعم هي الواجبة دون عبادة ما لا يضر ولا ينفع))[1] ثم عقب بقوله: (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) فإن كنتم تعلمون بمالك الأرض وخالقها فأخبروني بذلك؛ لأنَّهم يقولون أن الله تعالى هو خالقهم ومع ذلك يشركون بعبادتهم للأصنام لأنهم يعتقدون أنَّها تقربهم إلى الله تعالى؛ ((أي إن كنتم تعلمون شيئاً ما فأخبروني به فإنَّ ذلك كاف في الجواب وفيه من المبالغة في وضوح الأمر وفي تجهيلهم ما لا يخفى أو إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم ولذلك أخبر بجوابهم قبل أن يجيبوا حيث قيل: (سَيَقُولُونَ لله) لأنَّ بديهة العقل تضطرهم إلى الاعتراف بأنه تعالى خالقها (قُلْ) أي عند اعترافهم بذلك تبكيتاً لهم: (أَ فَلا تَذَكَّرُونَ)؛ أي أتعلمون ذلك أو أتقولون ذلك فلا تتذكرون أن من فطر الأرض وما فيها ابتداءً قادر على إعادتها ثانياً فإن البدء ليس بأهون من الإعادة بل الأمر بالعكس في قياس العقول))[2]، ولا يتفق الرازي (ت٦٠٦هـ) مع من قال بأنَّ قوله (أَ فَلا تَذَكَّرُونَ) جاء لتبكيتهم ؛ اذ يرى بأنَّ هذه المقولة لم ترد لتبكيتهم؛ بل ((معناه الترغيب في التدبر ليعلموا بطلان ما هم عليه))[3]والباحثة ترجح هذا الرأي لأنَّه ينسجم مع سائر نهايات الآيات.

ثمّ انتقل إلى سؤال آخر يسألهم فيه عن الإله الذي خلق ما هو أعظم من الأرض متدرجاً معهم فقد سألهم عن رب السماوات السبع ورب العرش العظيم لينتبهوا من غفلتهم ويعودوا إلى رشدهم ((ثم قال له (قُل) يا محمد لهم أيضا (مَنْ رَبُّ السَّماواتِ السَّبْعِ) أي من مالكها والمتصرف فيها؟ ولولاه لبطل كل شيء سواه، لأنَّه لا يصح إلا مقدوره أو مقدور مقدوره، فقوام كل ذلك به، ولا تستغني عنه طرفة عين لأنَّها ترجع إلى تدبيره على ما يشاء (عزَّ وجل) وكذلك هو تعالى (رَبُّ

---

(١) ـ الرازي: التفسير الكبير:١١٦/٢٣.

(٢) ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:١٤٧/٦-١٤٨.

(٣) ـ الرازي: التفسير الكبير:١١٦/٢٣.

الْعَرْشِ الْعَظِيمِ) وإنّما وجب أن يكون رب السماوات والعرش، من حيث كانت هذه الأشياء جميعها محدثة، لا بدَّ لها من محدِث اخترعها وأنشأها، ولا بدَّ لها من مدبر يدبرها ويمسكها، ويصرفها على ما تتصرف عليه، ولابدَّ أن يختص بصفات: من كونه قادرا عالما لنفسه ليتأتى منه جميع ذلك، على ما دبره، ولولا كونه على هذه الصفات، لما صح ذلك. ثم أخبر أنَّهم يقولون في الجواب عن ذلك رب السماوات ورب العرش هو{الله} ؟!))[1]، ثم يقول لهم الرسول (صلى الله عليه وآله): (أَفَلا تَتَّقُونَ) فإذا كنتم تعلمون أنَّ الله تعالى هو رب الأرض ومن فيها ورب السماوات والعرش العظيم فكيف لا تخافون وتتجنبون عقابه بإتباع رسله وإجابة دعوتهم (((قُلْ) إفحاماً لهم وتوبيخا (أَ فَلا تَتَّقُونَ) أي أتعلمون ذلك ولا تقون أنفسكم عقابه بعدم العمل بموجب العلم حيث تكفرون به وتنكرون البعث وتثبتون له شريكا في الربوبية))[2] فكأنَّ في هذه العبارة ((تنبيه على أن اتقاء عذاب الله لا يحصل إلا بترك عبادة الأوثان والاعتراف بجواز الإعادة))[3] ففي هذه الآية يدعوهم إلى التخلص من عذاب الله تعالى من خلال التوحيد والإيمان بالبعث وفي هذا الترغيب يتحقق الاستدراج، ثمّ انتقل إلى سؤالهم عمّا هو أعظم من الأرض والسماء حيث سألهم عمّن له ملكوت كل شيء حيث قال: (قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ) فنجد ((أنَّه سبحانه لما ذكر الأرض أولا والسماء ثانيا عمم الحكم ههنا، فقال من بيده ملكوت كل شيء، ويدخل في الملكوت الملك والملك على سبيل المبالغة))[4]، وهكذا استدرجهم شيئاً فشيئا ثمّ قال (وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجارُ عَلَيْهِ) وفي هذه الآية يستدرجهم النبي(صلى الله عليه وآله) بتذكيرهم بهذه الصفة لله تعالى وهي الإجارة فمهما تنكّر الإنسان لعقيدة التوحيد والإيمان بقدرة الله تعالى فإنَّه عندما يقع في ضيق أو ظلم من إنسان أعلى شأناً منه فهو يحتاج إلى من يدافع عنه ويحميه، ففي هذه الآية إشارة إلى هذا المعنى فالله تعالى وحده الذي يكفي من كل شيء ولا يستطيع أن يعارض إرادته أحد ((أي يغيث غيره إذا شاء (وَلا يُجارُ عَلَيْهِ) أي ولا يغيث أحد عليه أي لا يمنع أحد منه بالنصر عليه (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) أي شيئا ما أو ذلك فأجيبوني على ما سبق (سَيَقُولُونَ لله) أي لله ملكوت كل شيء وهو الذي يجير ولا يجار عليه))[5] فإنَّهم على الرغم من شركهم بالله تعالى يقرون بأنَّ الله تعالى مالك السماوات

---

[1] ـ الطوسي: التبيان:٣٨٨/٧.

[2] ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:١٤٧/٦-١٤٨.

(٣) ـ الرازي: التفسير الكبير:١١٦/٢٣.

(٤) ـ م.ن:١١٦/٢٣.

(٥) ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:١٤٧/٦-١٤٨.

والأرض ومدبرهما، ثم قال لهم:(فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)، ((ومعناه: كيف يخيل إليكم الحق باطلا، والصحيح فاسدا، مع وضوح الحق وتمييزه عن الباطل))[1].

مما تقدم يتّضح أنَّ القرآن الكريم استدرجهم إلى الإقرار بالبعث والنشور من خلال إقامة الحجة عليهم بسؤالهم عن الذي خلق السماوات والأرض ورب العرش الذي يجير من كل شيء ويكفي من استكفاه من عباده فإنَّهم سيجيبونك (الله) وهم على الرغم من إشراكهم للأصنام وغيرها يقرون بذلك، فإذا اعترفوا بذلك فكيف يشككون في قدرته تعالى على إحيائهم بعد الموت!!.

يقول الشيرازي في تفسيره لهذه الآية :((يُستَنْتَجُ من آيات القرآن أن معظم مخالفة المنكرين للمعاد يدور حول مسألة المعاد الجسماني، ودهشتهم من عودة الروح والحياة ثانية إلى الإنسان بعد أن يصير ترابا، من هنا عددت الآيات معالم قدرة الله في عالم الوجود، وأكدت خلقه لكل شيء من عدم، ليؤمنوا بالحياة بعد الموت، وتزول استحالتها من تصورهم، وبحثت هذه الآيات هذه المسألة من خلال بيان قدرة الله على الأرض وسكانها، وقدرته على السماوات والعرش العظيم، وقدرته على إدارة عالم الخلق والنشر، وهذه السبل الثلاثة مصاديق لمفهوم واحد، ويحتمل أيضا أن كلا من هذه الأبحاث الثلاثة يشير إلى وجهة نظر المنكرين للمعاد، فلو كان إنكاركم للمعاد يعود إلى أنَّ العظام البالية قد خرجت من دائرة حكومة الله وملكيته، فهذا خطأ، لأنكم تعترفون أن الله تعالى هو مالك الأرض ومن عليها، وإن كان إنكاركم لأنَّ بعث الأموات يحتاج إلى إله مقتدر، فأنتم تعترفون بأنَّ الله رب السماوات والعرش، وإن كان جحودكم أنكم في شك من تدبير العالم بعد الحياة الجديدة وبعد بعث الأموات، فهو أيضا في غير مورده، لأنَّكم قبلتم تدبيره واعترفتم بقدرته على إدارة عالم الوجود، وجوار من لا جار له (أي كل الموجودات) حيث يتكفل برعايتها وتدبير أمورها، فعلى هذا لا مجال لإنكاركم أيضا))[2].

وممّا يدل على الاستدراج في هذه الآيات هو اختلاف نهايات الآيات بما يتناسب مع التدرج في الحوار والتلطف مع المتلقي من أجل إقناعه بما يريده المتحدث وإلى هذا المعنى أشار الشيرازي ايضاً حيث تحدث عنه تحت عنوان (اختلاف نهايات الآيات)؛ إذ يقول:((والجدير بالاهتمام هو أنَّه بعد السؤال الأول وإجابته جاءت عبارة: {أفلا تذكرون}، وبعد السؤال الثاني وإجابته جاءت عبارة (أَ فَلا تَتَّقُونَ)، وبعد السؤال الثالث وإجابته جاءت عبارة (فَأَنَّى تُسْحَرُونَ)، وهذه عبارات تنبيه شديدة للكفار واستنكار لما هم عليه من باطل بشكل متدرِّج ومرحلة بعد أخرى، وهو

(١) ـ الطوسي: التبيان:٣٨٩/٧.

(٢) ـ الشيرازي: الأمثل:٤٩٥/١٠-٤٩٦.

أسلوب متعارف ينسجم مع الأساليب المعروفة في التعليم والتربية المنطقية، فإذا احتاج المربي إلى إدانة شخص، يبدأ أولا بتنبيهه بلطف، ثم بحزم، وبعد ذلك يعنفه))[1]؛ وبهذا فقد وقفنا على ما تضمنته هذه الآيات المباركة من استدراج للكفار والمشركين إلى الإيمان بالبعث قدرة الله تعالى على ذلك من خلال استعمال أساليب كلامية من شأنها أن تقنع المتلقي وتوصله إلى المراد الإلهي منه.

ويبدو أن الأسلوب الأخير الذي استعمله القرآن الكريم مع المنكرين والمشككين بالبعث والمعاد في يوم القيامة هو أن وقوع المعاد أمر لابدّ منه لأنَّ الله تعالى حكيم منزّه عن العبث، فإنَّ عدم وجود يوم يبعث الله فيه الأموات ليحاسبهم على أعمالهم معناه إثبات لعبثية خلق الخلق وعدم وجود هدف من وجودهم وتعالى الله عن ذلك، قال تعالى:﴿ أَ فَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لا تُرْجَعُونَ﴾ [2].

وعندما نعود إلى كتب التفسير نجد المفسرين يشيرون إلى أنَّ النصَّ القرآني يؤكد أَن وجود اليوم الآخر من لوازم حكمة الله تعالى وإلاّ يكون تعالى عابثاً وهو منزَّه عن ذلك، فالله تعالى لم يخلق البشر ليعيشوا كما تعيش الحيوانات بلا تكليف؛ بل خلقهم لحكمة وكلفهم بالواجبات والعبادات ليحاسبهم يوم القيامة فيجزي كلا بحسب عمله في الحياة الدنيا[3] ؛ وبذلك فقد استدرجهم إلى حتمية وقوع البعث وقيام الساعة لتحقق حكمة الله تعالى وعدالته فإذا أنكروا البعث واليوم الآخر فلا يكون هناك حكمة من خلقهم مطلقاً.

وتأسيسا عليه نلحظ أنَّ الاستدراج الذي أثبت وقوع البعث والنشور وقدرة الله تعالى على ذلك كان يعول على منظومات خطابية تؤول بالمتلقي الى التسليم وكانت تلك المنظومات والأساليب الـمُسْتَدْرِجَة للآخر على النحو الآتي:

١. كان أسلوب الاستفهام هو الأكثر استعمالاً في مسألة إثبات البعث والنشور فنرى القرآن الكريم يدعو الإنسان تارة عن طريق أسلوب الاستفهام للتأمل والتفكير ببداية خلقه حيث كان تراباً ثم نطفة ثم أصبح إنساناً كامل القوى فمن قدر على الإيجاد أليس بقادرٍ على الإعادة؟ وبهذا ثبتت حتمية وقوع البعث وأنّ الله تعالى قادر على ذلك؛ وتارة أخرى يلفت

---

(١) ـ الشيرازي: الأمثل:١٠/٤٩٥ـ٤٩٦.

(٢) ـ سورة المؤمنون:١١٥.

(٣) ـــ ينظر: الثعلبي: تفسير الثعلبي:٧/٥٩،والطوسي: التبيان:٧/٤٠١ـــ٤٠٢،والبغوي: تفسير البغوي:٣/٣٢٠،والزمخشري: الكشاف:٣/٤٥،والطبرسي: جوامع الجامع:٢/٦٠١،والآلوسي: روح المعاني:١٨/٧١،والشيرازي: الأمثل:١٤/٢٦٥.

النصّ القرآني أنظارهم إلى الأرض من حولهم فبينما يرونها مقفرة كالميت الذي فارق الحياة لا زرع فيها؛ وإذا بها تصبح مخضرة ومزهرة بمجرد نزول المطر من السماء عليها؛ وبهذا فقد ثبت أنَّ الله تعالى الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إحياء الموتى وبعثهم من قبورهم .

٢. إقناع المتلقي من خلال تأكيد قدرة الله تعالى المطلقة فالله تعالى يمتلك القدرة المطلقة لكل شيء إذ له ملك السماوات والأرض ومن فيهما من مخلوقات وهم يقرون جميعا بأنَّه الخالق لكل شيء؛ فكيف يشكك الكافرون في قدرته تعالى على بعث الأموات للحساب يوم القيامة؛ فإذا كانت له القدرة المطلقة ولا يسع أي أحد من أن يداينه فيها أو يشاركه به ثبت بهذا بأنَّ الله تعالى قادر على إحياء الأموات لأنَّه مالك الكون والمتصرف به كيفما شاء .

٣. إنَّ بعث الأموات لحسابهم في يوم القيامة من لوازم الإيمان بحكمة الله تعالى المتجلية في كل الوجود، فمع إنكار البعث تنتفي الحكمة من خلق البشر.

الفصل الثاني

الاستدراج في نطاق الأخلاق

المبحث الأول/ الاستدراج في نطاق حفظ مكانة المرأة ومراعاتها

المبحث الثاني/ الاستدراج في نطاق رعاية اليتيم

المبحث الثالث/ الاستدراج في نطاق الحثّ على الإنفاق

المبحث الرابع/ الاستدراج في نطاق نبذ النفاق

توطئة

بعد أن كان البحث في الفصل الأول عن بعض مفاصل الاستدراج في مجال العقيدة فإنَّ هذا الفصل سيكون البحث فيه عن الاستدراج في نطاق الأخلاق، ففي هذا المضمار نجد أنَّ القرآن الكريم قد اعتمد في خطابه مع المتلقي مجموعة من الوسائل الخطابية التي تستميل المتلقي وتستدرجه إلى التسليم بما تريده السماء، وقد وجدنا واضحاً جلياً في نطاق حفظ مكانة المرأة ومراعاتها، وفي رعاية اليتيم، وفي الحثِّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى، وفي نطاق الدعوة إلى نبذ النفاق .

المبحث الأول: الاستدراج في نطاق حفظ مكانة المرأة ومراعاتها:

إنّنا إذا ما أردنا أن نقف على مفاصل الاستدراج الذي تضمنه القرآن الكريم من أجل حفظ مكانة المرأة وتكريمها وصيانة حقوقها ومن أجل أن نعلم مقدار المهمة الصعبة التي تحملها الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) من أجل إبلاغ الناس لإرادة الله تعالى التي جاء بها القرآن الكريم لرفض العقائد والأفكار الباطلة التي كانت المرأة تعامل بها لابدّ لنا ابتداءً من أن نتعرّف ولو بشكل سريع على نظرة الحضارات والديانات الى شأن المرأة وكذلك عند عرب الجاهلية قبل بزوغ شمس الإسلام ليتجلى لنا بوضوح كيف أنَّ النصّ القرآني المعجز استطاع أن يستدرج المتلقي وقتذاك إلى الاعتراف بمكانة المرأة المتميزة التي أقرَّها الإسلام بأسلوب التدريج بعيداً عن الخطاب المتشنج الذي لا يحقق إلاّ الرفض من المقابل ويولد في داخله الإنكار والتشدد تجاه المطلوب الدلالي الذي يريده النصّ؛ فعندما نعود إلى الأفكار السائدة في المجتمعات البشرية عن المرأة نجد ((أنَّ المرأة كانت على جانب كبير من الاضطهاد والذل والمهانة عند جميع الأمم والشعوب،... فعند الفرس ينظر إليها نظرة كلها احتقار وازدراء، وفي الصين: المرأة شيء تافه بالنسبة للرجل تتلّقى الأوامر وتنفذها، وعند المصريين: بغاية الذل والانحطاط والذل، وعند اليونان: إنَّها رجس من عمل الشيطان، وعند الرومان: على جانب عظيم من الذل والاحتقار، وعند الآشوريين: مادة الإثم وعنوان الانحطاط، كذلك المرأة السومرية والبابلية والأكادية والساسانية وغيرهم من الشعوب التي كانت لها حضارات))[1].

(١) ـ مريم نور الدين فضل الله: المرأة في ظل الإسلام:٣٠-٣١.

أمَّا حال المرأة في شريعة حمورابي فإنَّها ((تحسب في عداد الماشية المملوكة حتى أنَّ من قتل بنتاً لرجل كان عليه أن يسلم بنته ليقتلها أو يتملكها))[1]، أمَّا في الهند التي تعدُّ من البلاد التي لها حضارة عريقة تهتم بالعلم والثقافة فنجدها تتعامل مع المرأة بقسوة شديدة وكانت نظرتهم إليها نظرة ملؤها الانتقاص والاحتقار وعدم الاحترام حيث يعد الرجل مالكها أو إلهها سواء كان أبوها أو زوجها[2]، فقد ((كانت تقدّم قرباناً للآلهة لترضى، أو تأمر بالمطر والرزق ... وجاء في شرائع الهندوس: ليس الصبر المقدر، والريح، والموت، والجحيم، والسم والأفاعي، والنار، أسوأ من المرأة))[3].

وأمَّا عند اليهود فـ:((كانت بعض طوائف اليهود تعد البنت في مرتبة الخادم، وكان لأبيها الحق في أن يبيعها قاصرة، وما كانت ترث إلاّ إذا لم يكن لأبيها ذرية من البنين وإلاّ ما كان يتبرع به أبوها في حياته))[4]، ونجد أنَّ حالها لم يختلف عند المسيحيين فلقد كانت مهانة محتقرة؛ فـ ((قد هال رجال الكنيسة الأوائل ما رأوا في المجتمع الروماني من إنتشار الفواحش والمنكرات ... فاعتبروا المرأة مسؤولة عن هذا كله ... فقرروا أنَّ الزواج دنس يجب الإبتعاد عنه، وأن العزب عند الله أكرم من المتزوج، وأعلنوا أنَّها باب الشيطان وإنَّها يجب أن تستحي من جمالها لأنَّه سلاح إبليس للفتنة ولإغراء))[5].

أمَّا فيما يتعلّق بوضع المرأة عند العرب قبل الإسلام فلم تكن بأحسن ممَّا هي عليه عند الشعوب الأخر والديانات المتباينة؛ فقد ((كانت المرأة العربية في الجاهلية أحط من أي سلعة فهي لا ترث وليس لها حق المطالبة؛ لأنَّها لا تذود عن الحمى في الحرب، وزواجها يرجع إلى وليها))[6]، وقد ((كان الرجل إذا مات وله زوجة وأولاد من غيرها كان الولد الأكبر أحق بزوجة أبيه من

---

(١) ـ مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون:١٧.

(٢) ـ ينظر: مريم نور الدين فضل الله: المرأة في ظل الإسلام: ٢٧، وسعاد محمد صبحي: مظاهر تكريم المرأة في الإسلام:١٤.

(٣) ـ مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون:١٧.

(٤) ـ م . ن: ١٧-١٨.

(٥) ـ م . ن:١٨.

(٦) ـ مريم نور الدين فضل الله: المرأة في ظل الإسلام:١٣.

غيره، ويعتبرها إرثاً كبقية أموال أبيه، فإن أراد أن يعلن عن رغبته في الزواج منها طرح عليها ثوباً، وإلاّ كان لها أن تتزوج بمن تشاء، وكانوا يتشاءمون من ولادة الأنثى، وكانت بعض قبائلهم تئدها خشية العار، وبعضهم كان يئدها ويئد أولاده عامة خشية الفقر، ولم تكن هذه عادة فاشية في العرب وإنَّما كانت في بعض قبائلهم ولم تكن قريش منها))[1]، وفي ظل هذه الظروف والمعاملة القاسية جاء النص القرآني ليبدد سحب الظلم والاضطهاد والامتهان عن كرامة المرأة ويعيد لها إنسانيتها في منظور المجتمع ابتداء ومن نطاق إيمانها بنفسها بأنَّها إنسان تباعاً، ذلك بأنَّ ((الإسلام بجميع نظمه وقوانينه هو الحل الوحيد الذي رسم للمرأة طريقاً محدوداً، وأنهجها منهاجاً صحيحاً، وخط لها درباً واضحاً، وأبان لها دورها في الحياة ومدى مسؤولياتها في المجتمع، وأظهر قيمتها ومنزلتها مع الآخرين، وسنَّ لها في القوانين حقوقاً وواجبات، وأعطاها ما لم يعطها من قبله و من بعده من الشعوب))[2]؛ إذ نجد أنَّ القرآن الكريم أكدَّ في آيات عديدة مكانة المرأة وحفظ كرامتها فالسماء تنظر إليها وإلى الرجل بعين واحدة هي عين المساواة فلا فرق بينهما من حيث الإنسانية وعمارة الأرض واستصلاحها فقد كلفهما الله تعالى معاً بالواجبات والتكاليف كلُ بحسب قابلياته وقدراته على السواء ولم يفضل أحدهما على الآخر؛ بل لكلٍ منهما مهماته ومسؤولياته، فـ ((من يتأمل كتاب الله عزَّ وجلَّ الذي أنزله على عباده هدى ورحمة، وضياء ونوراً، وذكرى للذاكرين، يجد فيه عنايةً عظيمةً بشأن المرأة، وحثاً بالغاً على رعاية حقوقها، وتحذيراً شديداً من ظلمها والتعدي عليها، وفي القرآن الكريم من الآيات المقررة لهذا الأمر الشيء الكثير؛ بل في القرآن الكريم سورة النساء وفيها آياتٌ عديدةٌ تتعلّق بالنساء وبيان ما لهنَّ من الحقوق العظيمة))[3] ولا تقتصر عناية القرآن الكريم بالمرأة من خلال الآيات التي تحدثت عن المرأة بشكل خاص؛ بل نجد الإهتمام بالمرأة من خلال الآيات التي تحدثت عن أصل خلق الإنسان أو الآيات التي تخاطب البشر جميعاً من دون تمييز بين النساء والرجال ومن تلك الآيات قوله تعالى:﴿ وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[4]

(١) ـ مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون:٢٠.

(٢) ـ مريم نور الدين فضل الله: المرأة في ظل الإسلام:٣١.

(٣) ـ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: تكريم الإسلام للمرأة:٢٦.

(٤) ـ سورة البقرة:٣٠.

فقد تحدّث المفسرون عن مدلول (الخلافة) في هذه الآية ونصُّوا على أنَّ الخليفة هو النبي آدم (عليه السلام) وذريته، يقول النسفي (ت٥٣٧هـ): ((والمعنى: خليفة منكم لأنَّهم كانوا سكان الأرض فخلفهم فيها آدم وذريته، ولم يقل خلاف أو خلفاء لأنَّه أريد بالخليفة آدم واستغنى بذكره عن ذكر بنيه كما تستغني بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم أو أريد من يخلفكم أو خلفا يخلفكم فوحد لذلك أو خليفة مني لأنَّ آدم كان خليفة الله في أرضه وكذلك كل نبيّ قال الله تعالى: ﴿يا داوُدُ إِنَّا جَعَلْناكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ﴾[1]))[2].

وكما يبدو من كلام المفسرين أنَّ الخلافة هي للنبي آدم(عليه السلام) وجميع بني البشر من ذريته، لكن الغرناطي الكلبي(ت٧٤١هـ) لا يتّفق مع المفسرين في شمول هذه الآية لبني آدم ؛ إذ رأى بأنَّها تخص النبي آدم (عليه السلام) فحسب حيث يقول: إنَّ دلالة لفظة (((خليفة) هو آدم عليه السلام؛ لأنَّ الله استخلفه في الأرض وقيل ذريته لأنَّ بعضهم يخلف بعضا والأول أرجح ولو أراد الثاني لقال خلفاء))[3].

والذي تميل إليه الباحثة هو أنَّ الخلافة هي للنبي آدم (عليه السلام) وذريته جميعا على حد سواء وذهب إلى هذا الرأي أغلب المفسرين لا كما قال الكلبي، لأنَّ لفظة (خليفة) وردت نكرة في سياق إثبات والنكرة في هذا السياق تدلُّ على الإطلاق وإذا كان الإطلاق يشير الى الماهية من دون تقييد بشيء مضاف دلَّ ذلك على أنَّ لفظة (خليفة) هي مفهوم ينطبق على كل بني البشر ابتداءً من آدم (عليه السلام) إلى آخر انسان من سلالته، فالجميع يندرجون تحت عنوان (خليفة) لتلزم عليهم الحجة في التكليف وفي الحساب والجزاء، فليس آدم وحده هو الخليفة وإنَّما جميع البشر خلفاء عن الله تعالى لأنَّهم مكلفون بإعمار الأرض واحقاق الحق ودفع الباطل، ولهذا وردت لفظة (خليفة) على سبيل التنكير لتشمل الجميع على حدٍ سواء؛ يقول الرازي(ت٦٠٦هـ): ((الخليفة اسم يصلح

---

(١) ـ سورة ص:٢٦.

(٢) ــ النسفي: تفسير النسفي:٣٦/١، وينظر: الزمخشري: الكشاف:٢٧١/١، وابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز:١١٧/١، والطبرسي: جوامع الجامع:٩١/١ـ٩٢، وعز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي الدمشقي الشافعي: تفسير العز بن عبد السلام:١١٤/١،والطباطبائي: الميزان:١١٦/١.

(٣)ـ الغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل:٤٣/١.

للواحد والجمع كما يصلح للذكر والأنثى))[1]، فـ ((الإنسان خليفة الله في الأرض ... في هذه الآيات تقرير صريح لخلافة الإنسان وقيادته، وتوضيح لمكانته المعنوية التي استحق بها كل هذه المواهب))[2]، ولو قال تعالى (إنِّي جاعل في الارض الخليفة) لكان التعريف بـ (الـ) يفيد دلالة التقييد بشخص معهود لديه سبحانه ومعهود لدى الملائكة المتلقين ولكان بهذا تنصيص على أنَّ النبي آدم(عليه السلام) هو الخليفة الوحيد وليس ثمة خليفة غيره على حين أنَّ الحال بخلاف هذا بناء على دلالة التنكير في اللفظة وبهذا تكون المرأة خليفة ومكلفة حالها حال الرجل، فإذا ما ثبت لنا هذا فإنَّ هذا يدل على أنَّ مبدأ التساوي بين الرجل والمرأة إنَّما ولد مع ولادة التكليف الأول لهما معا، وبهذا لا مناص من القول بخلاف هذا ولا مجال للتعامل مع المرأة بمنطق الظلم والاضطهاد مازالت هي خليفة ومكلفة مع الرجل حداً بحد.

نقول إنّ المتأمل في هذه الآية يجد فيها الاستدراج واضحاً من أجل بيان مكانة المرأة وتكريمها واحترام إنسانيتها؛ لأنَّه يثير في ذهنية المتلقي أنَّ المرأة مُكلَّفة منذ اللحظ الأولى التي خلقت بها وأنَّ الرجل معها في نطاق هذا التكليف منذ الوهلة الأولى أيضاً؛ فكأن هذه الآية تُمهِّدُ استدراجاً إلى قناعة الرجل بأنَّ المرأة لها حق العيش والتعامل الحسن والاحترام وإيفاء حقها من الإنسانية؛ ذلك بأنَّ قفزة الذهن إلى اللحظة الأولى للخلق؛ بل اللحظة الأولى قبل الخلق والإشارة إلى دلالة التساوي بين الرجل والمرأة منذ تلك اللحظة والنظر إليهما على أنَّهما قيمة واحدة ومسؤولية واحدة من منظار السماء يقدح في ذهن المتلقي بأنَّ مسألة المساواة في التكليف والواجبات هي قديمة قدم خلق الإنسان؛ فإذا كان الأمر كذلك وجب القول بوجوب التساوي في المعاملة لها لأنَّ السماء تعاملها على أساس المساواة فلِمَ الإنسان نفسه يخالف معاملة السماء وتعليماتها تجاه هذا المخلوق الذي أبدع الله تعالى في روعة خلقه وتكوينه منظراً وإحساساً وعاطفةً وتحملاً للمسؤولية عموماً.

ذلك بأنَّ القرآن الكريم الذي نزل على شبه الجزيرة العربية التي كان من عاداتها وأد البنات وحرمانها من حق الاختيار في الزواج وغيرها من العادات التي تحط من كرامة المرأة وتستخف بها، ولم يكن هذا شأن الجاهليين في مكة فحسب؛ بل إنَّ الأمم الأخر كانت تستخف بها وتعدها منبعاً

(١) ـ الرازي: التفسير الكبير:١٦٦/٢.

(٢) ـ الشيرازي: الأمثل:١٥٤/١.

للشر وسلاحاً بيد الشيطان وغيرها كما تقدّم ففي مثل هذه المعاملة وفي مقابل تلك الأفكار التي ترّسخت في النفوس كان المحتّم عليه أن يستدرجهم إلى ما جاء به من تعاليم وتشريعات تكرِّم المرأة وتحترم كيانها وترفعها إلى أعلى المراتب وتؤكد إنسانيتها وإنَّها متساوية فيها مع الرجال فهم أبناء آدم (عليه السلام) منذ لحظة خلقها ابتداءً.

ولقد تباينت مقولات المفسرين في بيان حقيقة الخلافة التي يتحمل مسؤولياتها الإنسان (الرجل والمرأة)، ويذكر الشيرازي اختلاف أقوال المفسرين فيها فيقول: ((والخليفة هو النائب عن الغير، أما هذا الغير الذي ينوب الإنسان عنه فاختلفت فيه أقوال المفسرين؛ منهم من قال: إنَّه خليفة الملائكة الذين كانوا يسكنون من قبل على ظهر الأرض، ومنهم من قال: إنَّه خليفة بشر آخرين أو موجودات أخرى كانت تعيش قبل ذلك على الأرض، وذهب بعضهم إلى أن الخليفة إشارة إلى أن كل جيل من البشر يخلف الجيل السابق))[1]، ثم يعقب الشيرازي ليحسم مدلول الخليفة فيقول: ((والحق أنَّ المقصود بالخليفة هو خليفة الله ونائبه على ظهر الأرض، كما ذهب إلى ذلك كثير من المحققين؛ لأنَّ سؤال الملائكة بشأن هذا الموجود الذي قد يفسد في الأرض ويسفك الدماء يتناسب مع هذا المعنى، لأنَّ نيابة الله في الأرض لا تتناسب مع الفساد وسفك الدماء))[2].

ممّا تقدم يتّضح أنَّ النصَّ القرآني لم يواجه المتلقي مباشرة برفض العادات السيئة التي كانت سائدة عندهم ضد المرأة ويبين لهم مباشرةً عدم مشروعيتها من وأد البنات ومنعها من الإرث وغيرها؛ وإنَّما أراد في هذه الآية أن يبين لهم أهم شيء بالنسبة للمرأة وهو أنَّها تشارك الإنسان في كونهما خليفة الله في الأرض لأنَّ كلمة (خليفة) مطلقة لم تقيد بوجوب كون الخليفة رجلاً لا إمرأة وبذلك فقد استدرجهم إلى احترام المرأة ومساواتها للرجل من حيث الإنسانية .

ومن الآيات الأخرى التي تجلى فيها الاستدراج في نطاق حفظ مكانة المرأة وتكريمها هي قوله عزّ من قائل: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنا تَفْضِيلاً﴾[3]

---

[1] الشيرازي: الأمثل:١/١٥٥-١٥٦.

[2] ـ م.ن :١/١٥٥-١٥٦.

(٣) ـ سورة الإسراء:٧٠.

يقول الزمخشري (ت٥٣٨هـ) في بيان معنى التكريم من الله تعالى:((قيل في تكرمة ابن آدم كرمه الله بالعقل والنطق والتمييز والخط والصورة الحسنة والقامة المعتدلة وتدبير أمر المعاش والمعاد، وقيل بتسلطهم على ما في الأرض وتسخيره لهم، وقيل كل شيء يأكل بفيه إلا ابن آدم))[1].

ويضيف ابن عطية الأندلسي(ت٥٤٦هـ) على ما قاله الزمخشري بقوله: ((فالمعنى جعلنا لهم كرماً أي شرفاً وفضلاً وهذا هو كرم نفي النقصان لا كرم المال وإنَّما هو كما تقول ثوب كريم أي جمة محاسنه ... وهذه الآية عدد الله تعالى فيها على بني آدم ما خصهم به من بين سائر الحيوان والحيوان والجن هو الكثير المفضول والملائكة هم الخارجون عن الكثير المفضول وجملهم))[2] .

ويضيف السعدي(ت١٣٧٦هـ) على ما قاله المفسرون فيذكر وجوهاً أخرى للإكرام؛ إذ يقول :((فكرمهم بالعلم ... وإرسال الرسل، وإنزال الكتب، وجعل منهم الأولياء والأصفياء، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة (وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ) على الركاب، من الإبل، والبغال، والحمير، والمراكب البرية (وَالْبَحْرِ) في السفن والمراكب (وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ) من المآكل والمشارب، والملابس، والمناكح . فما من طيب تتعلق به حوائجهم، إلا وقد أكرمهم الله به، ويسره لهم غاية التيسير))[3] .

لقد تبيَّن من خلال ما ذكره المفسرون في كلامهم حول هذه الآية المباركة وبيانهم للتكريم الذي جعله الله تعالى لبني آدم دون سواهم من المخلوقات، نقول إنَّ هذا التكريم كان للرجل والمرأة على السواء، فليس هناك فرقٌ بينهما فيما خصهما الله تعالى به من الكرامة والتشريف على سائر المخلوقات حيث سخر الله تعالى كل شيء في الوجود لخدمة الإنسان وجعله تحت سيطرته؛ فالرجل والمرأة هما المعنيين بهذا التكريم ولا يمكن لأحد أن يدّعي بأنَّه خاص بالرجل دون المرأة .

---

(١) ـ الزمخشري: الكشاف:٤٥٨/٢، وينظر: الطبرسي: جوامع الجامع:٣٨٥/٢،والآلوسي: روح المعاني:١١٧/١٥، والشنقيطي: أضواء البيان:١٧٥/٣.

(٢) ـ ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز:٤٧٢/٣-٤٧٣.

(٣) ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٤٦٣.

وبهذه الطريقة غير المباشرة استطاع القرآن الكريم أن يستدرجهم إلى الإعتراف بمكانة المرأة عند الله تعالى فهي تشارك الرجل فيما فضله الله به على جميع المخلوقات سواء كان ذلك العقل أو النطق والحق في استخدام النعم تفضلا منه تعالى غير ذلك فيما يناط في رفعة بني آدم وعلو مكانتهم عنه سبحانه، فالرجل والمرأة كلاهما يتشاركان في الإنسانية؛ فلم يواجه القرآن الكريم الرجال بهذه الحقيقة مباشرة ويوبخهم بسبب إنتقاصهم من المرأة وعدم مراعاة حقوقها لأنَّهم سيقفون بكل قوة أمام هذه الأفكار التي جاء بها القرآن الكريم والتي تتناقض مع أفكارهم لذلك فقد تدرّج معهم من خلال آياته المباركات في بيان مكانتها وعلو شأنها فتارةً ينصص على أنَّها خليفة الله في الأرض كما أنَّ الرجل خليفة تعالى فهما يتشاركان في مسؤولية الخلافة الإلهية وهذه الآية تنصُ على تكريمها أسوة بالرجل ولا فرق بينهما عند الله تعالى من حيث الإنسانية فمازال الرجل مكرما فإنَّ المرأة مكرمة بالدرجة نفسها التي كرمت بها السماء الرجل وهذا دليل على مساواتهما انسانيةً وتكريماً من السماء .

ومن الآيات القرآنية المباركة التي تبين كرامة المرأة ومساواتها بالرجل هي قوله تعالى في محكم كتابه العزيز:﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها﴾[1]

عند النظر إلى مطلع الآية الكريمة وهي الأولى من سورة النساء نجد انَّه قد ((آثَرَ سبحانه أن يأتي في هذا الموضع بـ (أيها) لبيان علو شأن الناس عنده لأنَّه خالقهم وهو أعرف بمكانتهم لديه، هذا من جهة ومن جهة فإنَّ دلالة التشريف في النداء توحي من جهة أخرى إلى معنى تساوي الرجل مع المرأة من حيث المكانة عنده سبحانه؛ ذلك بأنَّ لفظة (الناس) تدل على العموم لأنَّها جمع متصل بـ (الـ)؛ وبدلالة هذه اللفظة على العموم فإنَّ المرأة ستدخل ضمنا في هذا النداء لأنَّها من الناس قطعاً، وبهذا يثبت -ابتداءً- بأنَّ الله تعالى قد أكرمها وجعل لها درجةً عاليةً من التكريم والتشريف بندائها على هذه الصورة؛ فضلا عن استعماله لدلالة العموم المتحققة في لفظة (الناس) تنص على تساوي الرجل مع المرأة من حيثية أخرى وهي أنَّ سائر النصوص القرآنية التي يستعمل فيها الله تعالى النداء بـ (يا أَيُّهَا النَّاسُ) إنَّما هي تنطوي على معتقد إلهي يراد ترسيخه في عقول الناس وهذا يعني أنَّ المرأة تعامل معاملة الرجل في حيث مخاطبة عقلها والنظر إليها على أنَّها إنسان

(١) ـ سورة النساء:١.

له إرادة واختيار في اعتناقها لمعتقدات الهية نصَّ عليها القرآن الكريم، وهذا يدلُّ بما لا يقبل الجدل بأنَّ المرأة مساويةً للرجل قطعاً))[1].

وقد تحدّث المفسرون في مصنفاتهم عن ما تضمنته هذه الآية من معانٍ سامية تتجلى فيها حقيقة احترام الإسلام للمرأة وتقديره لها يقول الطوسي(ت٤٦٠هـ) في تفسيره لقوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ) :((ثم أخبر تعالى انَّه خلق الخلق من نفس واحدة فقال :(الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ) والمراد بالنفس ههنا آدم عند جميع المفسرين : السدي وقتادة ومجاهد وغيرهم . وقوله :{وخلق منها زوجها}يعني حواء))[2] .

وتحدّث الطباطبائي(ت١٤١٢هـ) عمّا تضمنته الآية من حقيقة النظرة الإلهية لبني البشر وأنَّهم متساوون من حيث الإنسانية ليستدرجهم القرآن الكريم إلى إحترام شخصية المرأة فيقول ما نصه:((قوله تعالى (يا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ) إلى قوله (ونساء) يريد دعوتهم إلى تقوى ربهم في أمر أنفسهم وهم ناس متحدون في الحقيقة الإنسانية من غير اختلاف فيها بين الرجل منهم والمرأة والصغير والكبير والعاجز والقوى حتى لا يجحف الرجل منهم بالمرأة ولا يظلم كبيرهم الصغير في مجتمعهم الذي هداهم الله إليه لتتميم سعادتهم والأحكام والقوانين المعمولة بينهم التي ألهمهم إيَّاها لتسهيل طريق حياتهم وحفظ وجودهم وبقائهم فرادى ومجتمعين؛ ومن هناك تظهر نكتة توجيه الخطاب إلى الناس دون المؤمنين خاصة وكذا تعليق التقوى بربهم دون أن يقال اتقوا الله ونحوه فإنَّ الوصف الذي ذكروا به أعني قوله الذي خلقكم من نفس واحدة الخ يعم جميع الناس من غير أن يختص بالمؤمنين))[3] فالخطاب موجه لجميع البشر بأنَّكم متساوون في الإنسانية ولا توجد فوارق بينكم فلا يفتخر الرجل برجولته وينتقص من المرأة لكونها أنثى فالله خلقكم وجعل منكم الذكر والأنثى وكلٌ له واجباته ومسؤولياته.

---

(١) ـ سيروان عبد الزهرة الجنابي: تحليل سورة النساء:٦.

(٢) ـ الطوسي: التبيان:٣/٩٩، وينظرالنسفي: تفسير النسفي:١/٢٠١،والزمخشري: الكشاف:١/٤٩٢، والطبرسي: مجمع البيان:٣/٨، والبيضاوي: تفسير البيضاوي:٢/١٣٨.

(٣) ـ الطباطبائي: الميزان:٤/١٣٤-١٣٥.

ويتحدّث الشيرازي عن وجه من وجوه الإستدراج الذي تضمنته هذه الآية المباركة في قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ)فلا فرق بين الرجل والمرأة فكلاهما يعودان إلى أصل واحد ويبين معنى النفس الواحدة حيث يقول: ((يجب أن نرى من هو المقصود من (نَفْسٍ واحِدَةٍ)؟ هل المراد من (نَفْسٍ واحِدَةٍ)هو شخص معين، أو أنَّه واحد نوعي (أي جنس المذكر)؟ لا شك أنَّ ظاهر هذا التعبير هو الشخص المعين، والواحد الشخصي، وهو إشارة إلى أول إنسان قد سماه القرآن الكريم بـ {آدم} ويعتبره أبا البشر،... وقد عبر عن البشر ببني آدم في آيات كثيرة من القرآن الكريم؛ فاحتمال أن يكون المراد من نفس واحدة هو الواحد النوعي بعيد عن ظاهر الآية جدا، ثم أنَّ قوله تعالى: (وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها) قد فهم منها بعض المفسرين أنَّ {حواء} قد خلقت من جسم آدم واستشهدوا لذلك بروايات وأحاديث غير معتبرة تقول: إنَّ حواء خلقت من أضلاع آدم (وهو أمر قد صرح به في سفر التكوين من التوراة أيضا) لكن مع ملاحظة سائر الآيات القرآنية يرتفع كل إبهام حول تفسير هذه الآية، ويتَّضح أنَّ المراد منها هو أنَّ الله سبحانه خلق زوجة آدم من جنسه (أي جنس البشر) ففي الآية (٢١) من سورة الروم نقرأ ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْها﴾...(و) نقرأ: في الآية (٧٢) من سورة النحل ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً﴾ ومن الواضح أنَّ معنى قوله تعالى: (خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجاً) هو أنَّه خلقهم من جنسكم لا أنَّه خلقهن من أعضاء جسمكم. ووفقا لرواية منقولة عن الإمام محمد الباقر (عليه السلام) كما في تفسير العياشي- أنه كذب بشدة فكرة خلق حواء من ضلع آدم، وصرح (عليه السلام): ((بأنَّها خلقت من فضل الطينة التي خلق منها آدم))[1]))[2].

بهذا نجد أنَّ آدم وحواء على درجة واحدة من المكانة الـخَلقية؛ ويؤيد ذلك نصٌّ الطوسي إذ يقول: ((من النفس بمعنى الجنس فهو في اللفظ على مخرج الراجع إلى النفس الأولى، وفي تحقيق المعنى لغيرها، وهذا قول أكثر المفسرين))[3]؛ فضلاً عن أنَّ النفس حينما جاءت نكرة دلَّت على معنى الماهية ثم أردفت بالصفة (واحدة) ففهم بهذا أنَّ الخلق جميعاً قد انحدروا من هذه النفس الواحدة، ولا يمكن لتلك النفس أن نقيِّدَها بالدلالة على (آدم) حتى نقول بأنَّ حواء مخلوقة منه

(١) ـ المجلسي: بحار الأنوار:١١/١٠٠.

[٢] ـ الشيرازي: الأمثل:٣/٨٠-٨١.

[٣] الطوسي: التبيان: ١/٤١٠.

لتكون بذلك حواء ثانوية القيمة قياساً به؛ بل نرى أنَّ هذه النفس تعني الماهية بصورة مطلقة وإنَّ آدم وحواء كليهما قد خُلِقا منها - من النفس الواحدة- ذلك بأنَّ قوله (منها) يراد به أنها مخلوقة من ماهية النفس المطلقة، ولا تعني أن حواءَ جزءٌ من آدم باعتبار أن النفس الواحدة هي آدم))[1].

وبهذه الطريقة غير المباشرة استدرجهم القرآن الكريم إلى الاعتراف بأنَّ الرجل والمرأة متساوون في أصل خلقتهم وهم يعودون لأب واحد ولأم واحدة فلا يتكبر الرجل على المرأة ولا العكس فهما يشكلان الجنس البشري ولكل واحد منهما قابلياته وقدراته ومسؤولياته وواجباته التي تتناسب مع خصوصياته .

ويتحدث القرآن الكريم عن الميراث ففي الوقت الذي كانت المرأة تحرم من الميراث؛ بل تعد هي كما في الجاهلية من الميراث كبقية ممتلكات الميّت فيرفض هذه العادة ويثبت للمرأة نصيباً في الميراث حيث يقول تعالى في محكم كتابه العزيز ﴿لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾ [2]

إذا ما عاودنا التأمل والنظر في الآية الكريمة و((ما قرأنا النص قراءة دلالية متأنية فإنَّا سنجد أنَّ قوله تعالى (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ) يقابل قوله سبحانه (وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ)؛ إذ لكل من الرجال والنساء نصيب محدد يرثونه من الوالدين والأقربين وهذا يدل على التساوي ما بين الرجل والمرأة حيث أعاد الله سبحانه التركيب كاملاً مع النساء كما هو مع الرجال؛ إذ لم يقل (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاء {كذلك})؛ بل أجرى الخطاب متكاملاً كما هو مرةً ثانيةً ليؤكد بذلك أنَّ الرجل والمرأة على حد سواء من وجهة نظر السماء، فالمرأة مساوية للرجل في الإرث من حيث الأحقية ولو قال (للنساء كذلك) لاختل المعنى واختلف لأنَّه تأسيساً على هذا الخطاب سيكون نصيب المرأة مساوياً لنصيب الرجل من حيث المقدار على حين أنَّ الواقع والشَّرع يخالفان هذا الاتجاه))[3].

---

[1] سيروان عبد الزهرة الجنابي: تحليل سورة النساء: ٧.

(٢) ـ سورة النساء:٧.

(٣) ـ سيروان عبد الزهرة الجنابي: تحليل سورة النساء:٢٧.

وقد ذكر المفسرون أن هذه الآية المباركة هي ((أول آية نزلت في توريث النساء المال(مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً) وقد بيَّن الأنصبة المفروضة في آيات المواريث))[1] فمن أجل أن يستدرجهم إلى إعطاء المرأة حقها في الميراث ابتدأ القرآن الكريم بإثبات حق الميراث للمرأة بشكل عام ثمّ بيَّن مقدار الميراث في الآيات اللاحقة.

وقد فسر السمرقندي(ت٣٨٣هـ) هذه الآية وذكر سبب نزولها قائلاً: ((وذلك أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون النساء وإنَّما يورثون الرجال من كان يقاتل ويحوز الغنيمة حتى مات أوس بن ثابت الأنصاري وترك ثلاث بنات وترك امرأة يقال لها أم كجة فقام ابن عمه وأخذ ماله فجاءت المرأة إلى النبي (صلى الله عليه (وآله)وسلم) وذكرت له القصة ويقال مات رفاعة وترك ابنه وابنته فأخذ الإبن ميراثه كله فجاءت المرأة إلى النبي(صلى الله عليه(وآله) وسلم) فأخبرته بذلك فنزل قوله (لِلرِّجالِ نَصِيبٌ) يقول حظ (مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ) (وَلِلنِّساءِ نَصِيبٌ) يعني حظ (مِمَّا تَرَكَ الْوالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ) يعني قل المال (أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً) يعني حظا معلوما لكل واحد منهم من الميراث فبيَّن في هذه الآية أنَّ للرجال نصيبا وللنساء نصيبا))[2].

وقد أضاف الطبرسي(ت٥٤٨هـ) على قول السمرقندي: إنَّ ((هذه الآية تدل على بطلان القول بالعصبة، لأنَّ الله تعالى فرض الميراث للرجال وللنساء، فلو جاز منع النساء من الميراث في موضع، لجاز أن يجري الرجال مجراهن في المنع من الميراث، وتدلّ أيضا على أنَّ ذوي الأرحام يرثون لأنَّهم من جملة النساء والرجال الذين مات عنهم الأقربون على ما ذهبنا إليه، وهو مذهب أبي حنيفة أيضا، ويدخل في عموم اللفظ أيضا الأنبياء وغير الأنبياء، فدلَّ على أنَّ الأنبياء يورثون كغيرهم))[3].

والذي يظهر ممَّا تقدَّم أنَّ في هذه الآية المباركة تصريحٌ بمساواة المرأة بالرجل في أصل الحق في تركة الوالدين والأقارب ممن ترث منهم ويرثون منها؛ فقد ((حدد لها نصيبها من الميراث ممّا تركه

---

(١) ـ السمعاني: تفسير السمعاني:١/٣٩٩.

(٢) ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:١/٣٠٨ـ٣٠٩، وينظر: الثعلبي: تفسير الثعلبي:٣/٢٦٠ـ٢٦١،والواحدي النيسابوري: أسباب النزول:٩٤، والطبرسي: مجمع البيان:٣/٢٢-٢٣.

(٣) ـ الطبرسي: مجمع البيان:٣/٢٢-٢٣.

الوالدان أو غيرهما من أقاربها على حسب نوع القرابة وفي حدود ما تستحق))[1] فقد أعلن القرآن الكريم القانون الإلهي الجديد، فـ((في الآية إعطاء للحكم الكلي وتشريع لسنة حديثة غير مألوفة في أذهان المكلفين فإنَّ حكم الوراثة على النحو المشروع في الإسلام لم يكن قبل ذلك مسبوقا بالمثل وقد كانت العادات والرسوم على تحريم عدة من الوراث عادت بين الناس كالطبيعة الثانية تثير النفوس وتحرك العواطف الكاذبة لو قرع بخلافها أسماعهم، وقد مهَّدَ له في الإسلام أولا بتحكيم الحب في الله والإيثار الديني بين المؤمنين فعقد الاخوة بين المؤمنين ثم جعل التوارث بين الأخوين وانتسخ بذلك الرسم السابق في التوارث وانقلع المؤمنون من الأنفة والعصبية القديمة ثم لما اشتد عظم الدين وقام صلبه شرع التوارث بين أولى الأرحام في حين كان هناك عدة كافية من المؤمنين يلبون لهذا التشريع أحسن التلبية؛ وبهذه المقدمة يظهر أنَّ المقام مقام التصريح ورفع كل لبس متوهم بضرب القاعدة الكلية))[2].

وهكذا نجد القرآن الكريم يستدرجهم شيئاً فشيئاً لكي يقتنعوا بما جاء به من أحكام تتعارض مع ما كانوا عليه من قبل، فيقول بعد ذلك : (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ) ((فالحكم مطلق غير مقيد بحال أو وصف أو غير ذلك أصلا كما أنَّ موضوعه أعني الرجال عام غير مخصص بشيء متصل فالصغار ذووا نصيب كالكبار، ثم قال: (وَلِلنِّسَاء نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ) وهو كسابقه عام من غير شائبة تخصيص فيعم جميع النساء من غير تخصيص أو تقييد وقد أظهر في قوله (مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ) مع أنَّ المقام مقام الاضمار إيفاءً لحق التصريح والتنصيص، ثم قال (مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ مِنهُ)زيادة في التوضيح وأن لا مجال للمسامحة في شيء منه لقلة وحقارة ثم قال (نَصِيباً)الخ وهو حال من النصيب لما فيه من المعنى المصدري وهو بحسب المعنى تأكيد على تأكيد وزيادة في التنصيص على أنَّ السهام مقطوعة معينة لا تقبل الإختلاط والإبهام، وقد استدلَّ بالآية على عموم حكم الإرث لتركة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وغيره وعلى بطلان التعصيب في الفرائض))[3].

---

(١) ـ عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر: تكريم الإسلام للمرأة:٢٨.

(٢) ـ الطباطبائي: الميزان:٤/١٩٩.

(٣) ـ م.ن:٤/١٩٩-٢٠٠، وينظر: الشيرازي: الأمثل:٣/١١٤-١١٦.

وقد بيَّن الشيرازي معنى التعصيب؛ بقوله:((وهو إعطاء شيء من التركة إلى عصبة الميت وهم من ينتسبون إليه من طرف الأب، وذلك في بعض الموارد كما يذهب إليه علماء السنة))[1].

لقد اتّضح ممّا تقدّم كيف أنَّ النصَّ القرآني استدرجهم بأسلوب رائع ليَّن لطيف إلى الاعتراف بمكانة المرأة واحترامها كإنسانة مثلها مثل الرجل لا يتميّز عنها من حيث الإنسانية ابتداءً منذ خلقها وتكليفها ثم الى تكريمها واحترامها من السماء كحال الرجل إلى التنصيص على حقوقها واثبات إرثها ووجوب عطائها الإلهي من الوالدين والأقربين، وبهذا حفظ لها الإسلام- بأسلوب الاستدراج من أجل تحقيق القناعة لدى المتلقي- عزتها وكرامتها وأوجب لها حقوقاً ثابتة فلا يحق لأحد أن يهضمها حقها ويقلل من شأنها .

وقد اتَّضح مما تقدّم أنَّ الاستدراج في نطاق حفظ مكانة المرأة ومكانتها كان يعتمد على جملة من الأساليب الخطابية والمنظومات الكلامية التي تمثلت بالآتي:

١. التأكيد على أنَّ الإنسان هو خليفة الله في أرضه وجنس الإنسان يشمل الرجل والمرأة على حدٍّ سواء؛ فكما أنَّ الرجل خليفة الله في الأرض فكذلك المرأة تشاركه في هذه الخلافة فهما من اختارهما الله تعالى من بين مخلوقاته للخلافة على الأرض .

٢. اختصاصها بالتكريم الإلهي تماماً كما كرّم الرجل حيث فضلهما الله تعالى على بقية المخلوقات في الأرض فهما من أُختصا بهذا التكريم .

٣. التأكيد على أنَّ الرجل والمرأة يعودان إلى أصلٍ واحد في خلقهما وهو أبو البشر النبي آدم(عليه السلام) فالأب واحد والأُم واحدة وهي حواء وبذلك ينتفي التمايز بينهما فكلاهما متساويان من حيث الإنسانية بالإضافة إلى أنَّ المنشأ واحد.

٤. إثبات حق المرأة في الميراث كما أنَّ للرجل الحق في الميراث فالمرأة متساوية مع الرجل من حيث استحقاقها للميراث .

---

[1] ـ الشيرازي: الأمثل:١١٥/٣.

المبحث الثاني: الاستدراج في نطاق رعاية اليتيم:

اليتيم في اللغة كما يقول ابن منظور(ت٧١١هـ): هو ((الفرد واليتم: فقدان الأب . وقد يتم الصبي ... وهو يتيم حتى يبلغ الحلم ... واليتم في الناس: فقد الصبي أباه قبل البلوغ))[١]، ومن الواضح أنَّ المعنى اللغوي قريب الصلة جداً بالمفهوم الاصطلاحي لليتيم إذا لم يكن يطابقه تماما فكأنَّ ابن منظور أعطى المعنى المعجمي لليتيم ثم عرج على المضمون الاصطلاحي له باعتبار أنَّ المضمون الاصطلاحي منشق من المعنى اللغوي للفظة (اليتيم) التي تعني الإنفراد عموماً.

أمَّا في الاصطلاح فقد عرَّفه الجرجاني(ت٨١٦هـ) بقوله:((اليتيم: هو المنفرد عن الأب لأنَّ نفقته عليه لا على أمه))[٢] وقد عرِّف في اصطلاح الفقهاء بأنه: ((الصغير الذي فقد أباه))[٣]وحدد زمان موت الأب بقولهم((قبل بلوغه))[٤].

وكما يبدو من الدلالة اللغوية والاصطلاحية أنَّ اليتيم: هو الطفل الذي مات عنه أبوه -الذي يعيله- قبل أن يبلغ ذلك الطفل الحلم فيغدو راشداً يقوى على التصرف بأمواله ويدير شؤونه بنفسه، فحرم اليتيم والحال هذه من الشعور بحنان الأب وعطفه وفقد الشعور بالأمن الذي يعيشه في أحضان أبيه المفقود .

ومن الأمور التي تتعلّق برعاية اليتيم هي مسألة إعطاءه ميراثه كاملاً وهذا ما لا نجده مساغاً ومقبولاً قبل الإسلام فبعض العرب كانوا يبدلون الأموال الجيدة بالرديئة فيأخذ الشاة السمينة ويضع مكانها شاةً هزيلة[٥]، وكان بعضهم يحرمه ميراثه مطلقا فلا يعطي لليتيم من أموال أبيه شيئاً[٦].

---

[١] ـ ابن منظور: لسان العرب:٦٤٥/١٢و٦٤٦، مادة(يتم).

[٢] ـ الجرجاني: التعريفات:٢١٦.

[٣] ـ سعدي أبو حبيب: القاموس الفقهي:٣٩٢.

[٤] ـ أحمد فتح الله: معجم ألفاظ الفقه الجعفري:٤٥٧.

[٥] ـ ينظر: ابن كثير: تفسير ابن كثير:٤٥٩/١.

[٦] ـ ينظر: الثعالبي: تفسير الثعالبي: ١٦١/٢.

يقول الطباطبائي(ت١٤١٢هـ): ((وأما الأولاد فكانوا ينسبون إلى الآباء لكنهم لا يورثون صغاراً ويذهب الكبار بالميراث ومن الميراث زوجة المتوفى ويحرم الصغار ذكوراً وإناثا والنساء، غير أنَّ المتوفى لو ترك صغيرا ورثه لكن الأقوياء يتولون أمر اليتيم ويأكلون ماله ولو كان اليتيم بنتا تزوجوها وأكلوا مالها ثم طلقوها وخلوا سبيلها فلا مال تقتات به ولا راغب في نكاحها ينفق عليها والابتلاء بأمر الأيتام من أكثر الحوادث المبتلى بها بينهم لمكان دوام الحروب والغزوات والغارات فبالطبع كان القتل شائعا بينهم))[١].

وفي خضم تلك الظروف وحيثيات التعامل التعسفي مع اليتيم جاء الإسلام منقذاً له؛ إذ ((أمر الأوصياء وكلّ من له صلة قرابة باليتيم، أن يحسنوا معاملته، وأن يقوموا على أمره وكفالته، وأن يشرفوا على تأديبه وتوجيهه، حتى يتربى على الخير، وينشأ على المكارم الخُلقية، والفضائل النفسية، ويجد في ظل من يرعونه كل عطفٍ ومحبة وكل حنوٍ وإخلاص))[٢]فبعد أن كان اليتيم قبل الإسلام إما أن لا يعطى من تركة أقاربه أو أن يعطى ولكن يأكله أوصياءه ظلماً وعدواناً رفض الإسلام ذلك وجاءت الآيات القرآنية لتبين حقوقه؛ فـ((بالنظر في نصوص القرآن العديدة في شأن اليتيم، والتي زادت على العشرين موضعا، فإنه يمكن تصنيفها إلى خمسة أبواب كلها تدور حول دفع المضار عنه، وجلب المصالح له في ماله وفي نفسه، فهذه أربعة، وفي الحالة الزوجية، وهي الخامسة))[٣]فكانت آيات القرآن الكريم تنزل الواحدة تلوَ الأخرى بالتدريج لتحقق التغيير الذي تريده السماء شيئاً فشيئاً حتى يتقبلّه الناس ذلك لأنَّ التغيير لو حدث بشكل مفاجيء لحدثت ردَّة فعل من قبل المجتمع آنذاك لأنه إعتاد على سلب مال اليتيم ومصادرة حقوقه حتى غدا هذا الفعل سائغا لديهم لا يُنتَقدُ من يفعله البتة لأنَّه ديدنٌ سارت عليه العرب ردحاً من الزمن دون تأمل أو إعادة نظر؛ لذا لو واجههم النصُّ بإعطاء مال اليتيم مباشرة لوقفوا بوجهه رافضين له معاندين معه منكرين إليه، لكنّ القرآن الكريم استدرجهم إلى ما يريد بأسلوبه الرائع الذي تنساق إليه النفوس بعيداً عن الشدة في ما يكلفهم من تشريعات أو أحكام، ((وبالجملة تدرجت الدعوة في إلقاء مضمراتها إلى الناس لئلا يشمئز عن تلقيها الطباع ولا تتزلزل النفوس في نضد بعض أجزاء الدعوة

---

[١]- الطباطبائي: الميزان:٤/١٥٢-١٥٣.

[٢] - عبد الله ناصح علوان: تربية الأولاد في الإسلام:١/١٤٦.

[٣] - الشنقيطي: أضواء البيان:٨/٥٦٤.

على بعض وهذا الذي ذكرناه ظاهر للمتدبر الباحث في هذه الحقائق فإنَّه يجد الآيات القرآنية مختلفة في إلقاء المعارف الإلهية والقوانين المشرّعة في مكيتها ومدنيتها الآيات المكية تدعو إلى كليات أجمل فيها القول والمدنية ونعني بها ما نزلت بعد الهجرة أينما نزلت تفصل القول وتأتي بالتفاصيل من الأحكام التي سبقت في المكية كلياتها ومجملاتها))[1] .

فنزل أولاً قوله تعالى:﴿ وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[2] وقد تحدّث المفسرون عمّا تضمنته هذه الآية المباركة من نهي عن الاقتراب والتصرف بأموال اليتامى إلاّ بما هو خيرٌ لهم؛ ومنهم السمرقندي (ت٣٨٣هـ) إذ يقول في معرض بيانه لهذه الآية تفسيراً: (((وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ)يقول لا تأكلوا مال اليتيم ولا تباشروه (إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) يعني إلا بالقيام عليه لإصلاح ماله (حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ) يعني احفظوا ماله حتى يبلغ رشده))[3] فنهاهم الله تعالى عن الاقتراب من ماله، ونلحظ أنَّ النصَّ قد أضاف لفظة (المال) التي هي اسم جنس إلى لفظة (اليتيم) لتفيد دلالة العموم أي لا تقربوا أي صنف من الأصناف التي تنطبق عليها لفظة (مال) تابعة لليتيم ليكون النهي بهذه الطريقة شاملاً لكل أموال اليتيم دون استثناء فضلا عن النهي عن عموم الأفعال التي يمكن بها استعمال مال اليتيم من دون وجه حق، فـ((النهي عن القرب للدلالة على التعميم فلا يحل أكل ماله ولا استعماله ولا أي تصرف فيه إلا بالطريقة التي هي أحسن الطرق المتصورة لحفظه، ويمتد هذا النهى وتدوم الحرمة إلى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده لم يكن يتيما قاصرا عن إدارة ماله وكان هو المتصرف في مال نفسه من غير حاجة بالطبع إلى تدبير الولي لماله؛ ومن هنا يظهر أنَّ المراد ببلوغه أشده هو البلوغ والرشد كما يدلُّ عليه أيضا قوله : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتامى حَتَّى إِذا بَلَغُوا النِّكاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوالَهُمْ وَلا تَأْكُلُوها إِسْرافاً وَبِداراً أَنْ يَكْبَرُوا﴾[4]. ويظهر أيضا أنَّه ليس المراد بتحديد حرمة التصرف في مال اليتيم بقوله: (حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ)رفع الحرمة بعد بلوغ الأشد وإباحة التصرف حينئذ بل المراد بيان الوقت الذي يصلح للاقتراب من ماله، وارتفاع

---

(١) ـ الطباطبائي: الميزان:١٥٧/٤.

(٢) ـ سورة الأنعام:١٥٢ومثلها في سورة الإسراء:٣٤.

(٣)ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:٥١٢/١، وينظر:الطوسي: التبيان:٣١٧/٤ـ٣١٨، والطبرسي: جوامع الجامع:٦٣٠/١،والرازي: التفسير الكبير:٢٣٤/١٣، والشيرازي: الأمثل:٥١١/٤.

(٤) ـ سورة النساء:٦.

الموضوع بعده فإنَّ الكلام في معنى: وأصلحوا مال اليتيم الذي لا يقدر على إصلاح ماله وإنمائه حتى يكبر ويقدر))[1].

ومن اللطيف أن يسلط النصّ المقدَّس النهي على الفعل (تقربوا) فهو لم يقل: (ولا تأكلوا مال اليتيم) أو (لا تستخدموا مال اليتيم) بل استعمل الفعل (لا تقربوا)، ممَّا يوحي إلى أنَّ مال اليتيم له من القدسية والمكانة العظمى عند الله تعالى ما يدعو إلى الابتعاد عنه مطلقاً دون الاقتراب إليه فهو لا يريد منه عدم أكله او استخدامه لمصالحهم الخاصة؛ بل يريد عدم التقرب إليه أبداً، فكأنَّ في استعمال هذا الفعل تنبيها وتهيئة للمتلقي حتى يتقبل أي حكم آخر في صدد الحفاظ على مال اليتيم عموماً.

فكانت هذه الآية من أوائل ما نزل من القرآن الكريم في بيان حقوق اليتيم وضوابط التعامل معه وكانت هذه الآية تمثل جهداً عليهم، لأنَّهم فهموا منها أن لا تخالطوهم في المال ولا في المأكول، فشقَّ ذلك عليهم ثم أنزل الله عز وجل الآية التي في سورة البقرة:﴿ وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[2] فرخص لهم أن يخالطوهم[3] .

حيث ذهب الطبري(٣١٠هـ) إلى أنَّ آية (وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ) نزلت بعد قوله تعالى﴿وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وبعد قوله تعالى:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾حيث يقول:((عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: لما نزلت ﴿وَلا تَقْرَبُوا مالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[4]و﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوالَ الْيَتامى ظُلْماً إِنَّما يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ناراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[5]انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه، فجعل يفضل الشيء من طعامه، فيحبس له حتى يأكله أو يفسد؛ فاشتد ذلك عليهم، فذكروا ذلك لرسول الله (صلى

---

[1] ـ الطباطبائي: الميزان:٣٧٥/٧-٣٧٦، وينظر: أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢٠٠/٣.

[2] ـ سورة البقرة:٢٢٠.

[3] ـ ينظر: السدوسي: الناسخ والمنسوخ:٤٥، والصنعاني: تفسير القرآن:٨٩/١،وابن أبي حاتم الرازي: تفسير أبي حاتم:١٤١٩/٥.

[4] ـ سورة الأنعام:١٥٢ومثلها في سورة الإسراء:٣٤.

[5] ـ سورة النساء:١٠.

الله عليه وآله وسلم)، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم))[1]وهكذا ونتيجة لتأثرهم بتوجيهات القرآن الكريم المتلاحقة في رعاية اليتيم والاهتمام به أصبحوا مستعدين لفعل كل شيء يأمرون به طلبا لرضى الله تعالى ورضى رسوله الكريم (صلى الله عليه وآله وسلم) .

ومن الأساليب الأخرى التي استعملها القرآن الكريم لاستدراج الناس بالعناية باليتيم ومراعاته هو الترغيب في رعايته لأنَّ ذلك يدفع عنهم أهوال يوم القيامة، فمازال الأمر مرهون بالخلاص من العقاب وفيه أجر وثواب فإنَّه يدعو بالضرورة إلى الأداء من أجل استحصال المآل، فلكل سبب نتيجة مرجوة منه، ومن جنس قوله تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً ❖ إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً وَلا شُكُوراً ❖ إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا يَوْماً عَبُوساً قَمْطَرِيراً ❖ فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً ❖وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً﴾[2]

يقول الطوسي(ت٤٦٠هـ): ((وقوله (وَيُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ) قال مجاهد: معناه على شهوتهم له، ويحتمل أن يكون المراد على محبتهم لله (مسكينا) أي يطعمونه فقيرا (ويتيما) وهو الذي لا والد له من الأطفال (وأسيرا)والأسير هو المأخوذ من أهل دار الحرب - في قول قتادة - وقال مجاهد: وهو المحبوس. وقوله (إِنَّما نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ) إخبار عما يقوله المؤمنون بأنَّا إنَّما نطعمكم معاشر الفقراء واليتامى والأسرى لوجه الله ، ومعناه لله ... وقال مجاهد وسعيد بن جبير: علم الله ما في قلوبهم فأثنى عليهم من غير أن يتكلموا به (لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزاءً) أي لا نطلب بهذا الإطعام مكافأة عاجلة (وَلا شُكُوراً) أي لا نطلب أن تشكرونا عليه عند الخلائق بل فعلناه لله (إِنَّا نَخافُ مِنْ رَبِّنا) أي من عقابه (يَوْماً عَبُوساً) أي مكفهرا عابسا (قَمْطَرِيراً) أي شديدا))[3] فهم آثروهم على أنفسهم وأطفالهم الجياع .

---

[1]- الطبري: جامع البيان:٥٠٣/٢، وينظر: الواحدي النيسابوري: أسباب نزول الآيات:٤٤،وإبن حجر العسقلاني: العجاب في بيان الأسباب:٨٢٤/٢.

[2] - سورة الإنسان:٨-١٢.

[3] - الطوسي: التبيان:٢١٠/١٠،وينظر: الزمخشري: الكشاف:١٩٦/٤-١٩٧، والطبرسي: مجمع البيان:٢٠٩/١٠و٢١٦-٢١٧.

وقد ذكر السمرقندي(ت٣٨٣هـ) سبب نزول هذه الآية بقوله:((وذكر أنَّ الآية نزلت في شأن علي بن أبي طالب وفاطمة (رضي الله عنهما) وكانا صائمين فجاءهما سائل وكان عندهما قوت يومهما فأعطيا السائل بعض ذلك الطعام ثم جاءهما يتيم فأعطياه من ذلك الطعام ثم جاءهما أسير فأعطياه الباقي فمدحهما الله تعالى لذلك))[١] وذكر السمرقندي نفسه أيضا ((يقال نزلت في شأن رجل من الأنصار))[٢].

لكنّ الرأي الذي ترَّجحه الباحثة أنَّ الآية المباركة نزلت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين(عليهم السلام) وخادمتهم فضة، لأنَّ مدونات التفسير متسالمة على لذلك بما لا يقبل التشكيك أو إعادة النظر[٣].

وبناء على ربط النتيجة بالسبب لاستدراج المتلقي لرعاية اليتيم صدر سبحانه النتيجة بالفاء التي تفيد السببية حيث قال: (فَوَقاهُمُ اللهُ شَرَّ ذلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً)إذ مثلت (الفاء) هنا مثوبة رعاية اليتيم وهي أنَّ الله تعالى ينقذ المرء الراعي من شر يوم القيامة وليس هذا فحسب بل يمنحه نضرة وسرورا، يقول الطباطبائي فـ((المعنى: فحفظهم الله ومنع عنهم شر ذلك اليوم واستقبلهم بالنضرة والسرور، فهم ناضرة الوجوه مسرورون يومئذ كما قال: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ﴾[٤]))[٥] فقد جزاهم الله تعالى بإطعامهم المسكين واليتيم والأسير بأن أبعد العذاب والشر عنهم في يوم القيامة وأكرمهم بالنضرة والسرور والأمان من كل خوف يوم يلقونه وأدخلهم الجنة فهم يتنعمون بما فيها، والظاهر أنَّ الطباطبائي قد لمح الرابط بالنتيجة لغرض الاستدراج بآية اخرى من التعبير القرآني تدعم أسلوب الترغيب في هذه الآية وذلك من خلال استعمال لفظة (نضرة) حيث وردت هذه الفظة في موضع جزاء المؤمنين وذلك في قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ ❖ إِلى

---

[١] ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:٥٠٤/٣،وينظر:الطوسي: التبيان:٢١٠/١٠، والنسفي: تفسير النسفي:٣٠٣/٤، والزمخشري: الكشاف:١٩٧/٤.

[٢] ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:٥٠٤/٣.

[٣] ينظر:الطوسي: التبيان:٢١٠/١٠، والنسفي: تفسير النسفي:٣٠٣/٤، والزمخشري: الكشاف:١٩٧/٤.

[٤] ـ سورة القيامة:٢٢.

[٥] الطباطبائي: الميزان:١٢٨/٢٠.

رَبِّها ناظِرَةٌ ❖ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ باسِرَةٌ ❖ تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِها فاقِرَةٌ﴾[1] فكأنَّ الله تعالى أكرم من يراعي اليتيم بأنَّه سيُنعم يوم القيامة ويشرق وجهه بالنور ويُسر ودليل الإشراق والسرور هو الأمان الذي سيصيبه في ذلك اليوم وهذا يدلُّ على أنَّ الله تعالى وقاهم شر ذلك اليوم ومنحهم الطمأنينة فلن يصيبهم مكروه في ذلك اليوم مطلقاً وهذه هي الغاية التي يسعى إليها كل مؤمن وهو دخوله الجنة ونعيمه بالأمن والأجر يوم يلقى ربه في ذلك اليوم العظيم، من هنا نستنتج بأنَّ اسلوب الترغيب ههنا كان له أثره في إقناع المتلقي بوجوب رعاية اليتيم لأنَّ المسألة لا تتوقف عن منح أجر معيّن للراعي بل تتعدى ذلك إلى أن يدخله الله تعالى الجنة ويمنحه الأمن يوم لا ظل إلا ظله ثم يسترسل النصَّ بقوله (((وَجَزاهُمْ بِما صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيراً)المراد بالصبر: صبرهم عند المصيبة وعلى الطاعة وعن المعصية فإنَّهم ابتغوا في الدنيا وجه ربهم وقدموا إرادته على إرادتهم فصبروا على ما قضى به فيهم وأراده من المحن ومصائب الدنيا في حقهم، وصبروا على امتثال ما أمرهم به وصبروا على ترك ما نهاهم عنه وإن كان مخالفا لأهواء أنفسهم فبدل الله ما لقوه من المشقة والكلفة نعمة وراحة))[2] من هنا أشاد الله تعالى بإطعامهم اليتيم لاستدراج السامع حيث ((جعله الله في عموم وصف الأبرار، وسببا للوصول إلى أعلى درجات النعيم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الأَبْرارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كانَ مِزاجُها كافُوراً﴾[3]، وذكر أفعالهم التي منها: أنهم يوفون بالنذر، ثم بعدها: أنَّهم ﴿يُطْعِمُونَ الطَّعامَ عَلى حُبِّهِ مِسْكِيناً وَيَتِيماً وَأَسِيراً﴾))[4] ،فإنَّ من يعمل الخيرات ولا يريد بها إلا رضا الله عزَّ وجلَّ ومنها إطعام اليتيم والتحنن عليه وإيثاره على النفس والأهل فهكذا يكون جزاءه من الله الجواد الكريم ((وجعل هذا الإطعام اجتياز العقبة[5] في قوله :﴿ فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ❖ وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ ❖ فَكُّ رَقَبَةٍ ❖ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ❖ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ﴾[6]

فإنَّ الله تعالى في هذه الآية ((يقول: فهلا أنفق ماله فيجوز به العقبة من فك الرقاب وإطعام السغبان فيكون خيرا له من إنفاقه على عداوة محمد (صلى الله عليه (وآله)وسلم) ... وقيل: فلا

---

[1] سورة القيامة: ٢٢- ٢٥.

[2] ـ الطباطبائي: الميزان:١٢٩/٢٠، وينظر: الشيرازي: الأمثل:٢٥٧/١٩-٢٥٩.

[3] سورة الانسان: ٥.

[4] ـ الشنقيطي: أضواء البيان:٥٦٦/٨.

[5] ـ م.ن :٥٦٦/٨.

[6] ـ سورة البلد:١١-١٥.

اقتحم العقبة أي لم يقتحمها ولا جاوزها والاقتحام الدخول في الأمر الشديد وذكر العقبة ههنا مثل ضربه الله لمجاهدة النفس والهوى والشيطان في أعمال البر فجعله كالذي يتكلف صعود العقبة تقول لم يحمل على نفسه المشقة بعتق الرقبة ولا طعام))[1] فـ((إنَّ الإنفاق على هذا الوجه هو الإنفاق المرضي النافع عند الله، لا أن يهلك مالا لبداً في الرياء والفخار فيكون مثله كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم الآية))[2]فالله تعالى يستدرجهم إلى الإنفاق على اليتيم لأنَّه من الأعمال التي يتحقق بها رضوان الله تعالى عن العبد، وإذا ما عدنا للنص فإنّا سنجد أسلوب الترهيب ههنا هو الغالب ذلك بأنَّ الله تعالى قد افتتح النصَّ بقوله (فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ❖ وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ)إذ صدَّره بالعقبة ثم منح هذه اللفظة الشدة والعظمة والرهبة بقوله (وَما أَدْراكَ مَا الْعَقَبَةُ)وهو أسلوب من أساليب الإبهام على المتلقي وتعظيم الشيء المسؤول عنه فليس الغاية ههنا هو سؤاله سبحانه للمتلقي أيعرف ما العقبة أم لا، بل هو سؤال تمهيدي لتعظيم العقبة من أجل الإخبار عنها فيما بعد[3]؛ لأنَّ السؤال سيثير في نفس المتلقي الحيرة فكأن النصَّ يريد أن يقول للمتلقي بأنَّك مهما فكَّرت وحاولت الإجابة فإنَّك لن تستطيع أن تفي بالإجابة لأنها أعظم مما تتصور لهذا جاءت الإجابة الوافية بقوله (فَكُّ رَقَبَةٍ ❖ أَوْ إِطْعامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ❖ يَتِيماً ذا مَقْرَبَةٍ) ليعرف المتلقي الجواب ومدى عظمة تلك العقبة فضلا عن أن أسلوب الترهيب هذا يعد دافعا إلى أداء الجواب المطلوب ويضمنه رعاية اليتيم فنفهم من هنا بأنَّ المتلقي سيقتنع بوجوب إطعام اليتيم لأنَّه يمثل لديه الحل الأمثل في عبور العقبة العظيمة التي لم يعرف كنهها ومضمونها لولا إبانة السماء له ذلك ، من هنا استدرج النصَّ المتلقي بأسلوب الترهيب هذه المرة الموصول بالترغيب بعد استمالته بأسلوب الترغيب المباشر كما في الآية السابقة التي نزلت في حق الإمام علي وفاطمة والحسن والحسين (عليهم السلام) جميعاً .

---

[1] ـ البغوي: معالم التنزيل:٤/٤٨٩، وينظر:النسفي: تفسير النسفي:٤/٣٤١،والزمخشري: الكشّاف:٤/٢٥٦، و الطبرسي: جوامع الجامع:٣/٧٨٩، وإبن الجوزي: زاد المسير:٨/٢٥٥، والشوكاني: فتح القدير:٥/٤٤٤.

[2] ـ الزمخشري: الكشّاف:٤/٢٥٦، وينظر: الطبرسي: جوامع الجامع:٣/٧٨٩.

[3] ينظر: الطباطبائي: الميزان ٢٠/٤٢٢ وينظر: الحائري: مقتنيات الدرر: ١٢/١٥١ ، ومغنية: الكاشف: ٧/٥٦٧ والشيرازي: الامثل: ٢٠/٢٠٣، وللاستزادة ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: الاجمال والتفصيل في التعبير القرآني: ١٢٣.

وتعددت الأساليب التي يستعملها القرآن الكريم من أجل استدراج المتلقي للاهتمام باليتيم وإكرامه، ففي ((جلب المصالح، فإننا نجد فيها أولا جعله مع الوالدين، والأقربين، في عدة مواطن، منها قوله تعالى: ﴿قُلْ ما أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتامى﴾[1] ومنها قوله: إيراده في أنواع البر من الإيمان بالله وإنفاق المال، ﴿وَلكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمالَ عَلى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينَ﴾ [2] إلى آخر الآية، ومنها ما هو أدخل في الموضوع حيث جعل له نصيبا في التركة من باب التفضيل وضرورة رعايته في قوله: ﴿وَإِذا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُوا الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ﴾[3]، فجعل سبحانه مرتبة (اليتامى) بعد أولي القربى مباشرة لدلالة على أهمية اليتيم وحسن التعامل معه وسند ذلك قوله (فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ)أي ارزقوهم من التركة شيئا ليستعينوا به على دهرهم وكان من ضمن الواجب رزقهم هم اليتامى، و ((المراد بالقرابة هنا غير الوارثين وكذا اليتامى والمساكين شرع الله سبحانه أنَّهم إذا حضروا قسمة التركة كان لهم منها رزق فيرضخ لهم المتقاسمون شيئا منها، وقد ذهب قوم إلى أنَّ الآية محكمة وأنَّ الأمر للندب وذهب آخرون إلى أنَّها منسوخة بقوله تعالى ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلادِكُمْ﴾ [4] والأول أرجح لأنَّ المذكور في الآية للقرابة غير الوارثين ليس هو من جملة الميراث حتى يقال: إنَّها منسوخة بآية المواريث))[5]، من هنا يثبت أنَّ هذه الآية غير منسوخة، وانَّ فيها استدراجا واضحاً في نطاق رعاية اليتيم لأنَّ الله تعالى ينصح برعايتهم ومنحهم شيئاً من الإرث من باب التفضيل عليهم للبركة وزيادة الخير؛ فكان في الآية استدراج بالترغيب لزيادة الخير ودفع عيون الحاسدين عن الورثة لأنَّ اعطاء اليتيم شيئا من المال الموروث يعدُّ صدقة تدفع عن الورثة المكروه والأذى، لذا ((أعطوهم شيئا من المقسوم تطييبا لقلوبهم وتصدقا عليهم))[6] ليبارك الله لكم في إرثكم، ((ومرة أخرى يجعل لليتامى نصيبا فيما هو أعلى منزلة في قوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ

---

[1] ـ سورة البقرة:٢١٥.

[2] ـ سورة البقرة:١٧٧.

[3] ـ سورة النساء:٨.

[4] سورة النساء: ١١.

[5] الشوكاني: فتح القدير: ٣٤٥/١، وينظر: البغوي: تفسير البغوي: ١٧٠/١، وأبو السعود: تفسير ابي السعود: ١٤٧/٢.

[6] البيضاوي: تفسير البيضاوي: ١٥١/١، وينظر: الالوسي: روح المعاني :٢١٢/٤.

مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ﴾[1]، وكذلك في سورة الحشر في قوله تعالى: ﴿ما أَفاءَ اللهُ عَلى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرى فَللهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[2]. فجعلهم الله مع ذي القربى من رسول الله (صلى الله عليه و(آله) سلم) ... ولقد وجدنا ما هو أعظم من ذلك، وهو أن يسوق الله الخضر وموسى عليهما السلام ليقيما جداراً ليتيمين على كنز لهما حتى يبلغا أشدهما، في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَكانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [3] هذا هو الجانب المالي من دفع المضرة عنه في حفظ ماله، ومن جانب جلب النفع إليه عن طريق المال))[4].

ولم يقتصر القرآن الكريم على الجانب المادي فحسب؛ بل اهتمت آياته المباركات باستدراج المتلقي إلى الجانب النفسي لرعاية اليتيم أيضا ومن ذلك ((أولا: عدم مساءته في نفسه، فمنها قوله تعالى: ﴿أَ رَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ❖ فَذلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ❖ وَلا يَحُضُّ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾[5]. ومنها قوله : ﴿كَلاَّ بَلْ لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ❖ وَلا تَحَاضُّونَ عَلى طَعامِ الْمِسْكِينِ﴾[6]، فقدم إكرامه إشارة له، ثانيا: في الإحسان إليه، منه قوله تعالى: ﴿لا تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى﴾[7]، فيحسن إليه كما يحسن لوالديه ولذي القربى؛ ومنها سؤال، وجوابه من الله تعالى:﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتامى قُلْ إِصْلاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخالِطُوهُمْ فَإِخْوانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾[8]، أي تعاملونهم كما تعاملون الإخوان، وهذا أعلى درجات الإحسان والمعروف، ولذا قال تعالى: (وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ)، وفي تقديم ذكر المفسد على المصلح: إشعار لشدة التحذير من الإفساد في معاملته؛ ولأنَّه محل التحذير في موطن آخر

---

[1] ـ سورة الأنفال:٤١.

[2] ـ سورة الحشر:٧.

[3] ـ سورة الكهف:٨٢.

[4] ـ الشنقيطي: أضواء البيان:٨/٥٦٥-٥٦٧.

[5] ـ سورة الماعون:١-٣.

[6] ـ سورة الفجر:١٧-١٨.

[7] ـ سورة البقرة:٨٣.

[8] ـ سورة البقرة:٢٢٠.

جعلهم بمنزلة الأولاد في قوله: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[1] أي حتى في مخاطبتهم إيَّاهم لأنَّهم بمنزلة أولادهم ؛ بل ربما كان لهم أولاد فيما بعد أيتاما من بعدهم، فكما يخشون على أولادهم إذا صاروا أيتاما من بعدهم، فليحسنوا معاملة الأيتام في أيديهم وهذه غاية درجات العناية والرعاية . تلك هي نصوص القرآن في حسن معاملة اليتيم وعدم الإساءة إليه، مما يفصل مجمل قوله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾[2]؛ لا بكلمة غير سديدة ولا بحرمانه من شيء يحتاجه، ولا بإتلاف ماله، ولا بالتحيل على أكله وإضاعته، ولا بشيء بالكلية، لا في نفسه ولا في ماله))[3] فنرى في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ﴾[4] إنَّ القرآن الكريم قد استعمل أسلوب الخطاب غير المباشر لما له من تأثير على المتلقي؛ ((وهنا يتجلى سرٌّ لطيف في مثالية التشريع الإسلامي، حيث يخاطب الله تعالى أفضل الخلق وأرحمهم، وأرأفهم بعباد الله، الموصوف بقوله تعالى: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ﴾[5]، وبقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[6]، ليكون مثالا مثاليا في أمة قست قلوبها وغلظت طباعها، فلا يرحمون ضعيفا، ولا يؤدون حقا إلا من قوة يدينون لمبدأ (من عز بز، ومن غلب استلب) ... قوم يئدون بناتهم، ويحرمون من الميراث نساءهم، يأكلون التراث أكلا لما، ويحبون المال حبا، فقلب مقاييسهم وعدل مفاهيمهم، فألان قلوبهم ورقق طباعهم، فلانوا مع هذا الضعيف وحفظوا حقه))[7] فقد استدرجهم القرآن الكريم شيئاً فشيئاً إلى ما يريد بتشريعاته ((وحقيقة هذا التشريع الإلهي الحكيم منذ أربعة عشر قرنا تأتي فوق كل ما تتطلع إليه آمال الحضارات الإنسانية كلها، مما يحقق كمال التكامل الاجتماعي بأبهى معانيه، المنوّه عنه في الآية الكريمة ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾[8]، فجعل كافل اليتيم اليوم، إنَّما

---

[1] ـ سورة النساء:٩.

[2] ـ سورة الضحى:٩.

[3] ـ الشنقيطي: أضواء البيان:٨/٥٦٧.

[4] ـ سورة الضحى:٩.

[5] ـ سورة التوبة:١٢٨.

[6] ـ سورة القلم:٤.

[7] ـ الشنقيطي: أضواء البيان:٨/ـ٥٦٩.

[8] ـ سورة النساء:٩.

يعمل حتى فيما بعد لو ترك ذرية ضعافا، وعبَّر هنا عن الأيتام بلازمهم وهو الضعف إبرازا لحاجة اليتيم إلى الإحسان، بسبب ضعفه فيكونون موضع خوفهم عليهم لضعفهم، فليعاملوا الأيتام تحت أيديهم، كما يحبون أن يعامل غيرهم أيتامهم من بعدهم، وهكذا تضع الآية أمامنا تكافلاً اجتماعياً في كفالة اليتيم، بل إنَّ اليتيم نفسه، فإنه يتيم اليوم ورجل الغد، فكما تحسن إليه يحسن هو إلى أيتامك من بعدك، وكما تدين تدان، فإن كان خيرا كان الخير بالخير والباديء أكرم، وإن شراً كان بمثله والباديء أظلم. ومع هذا الحق المتبادل، فإنَّ الإسلام يحث عليه ويعني به، ورغَّب في الإحسان إليه وأجزل المثوبة عليه، وحذَّر من الإساءة عليه، وشدد العقوبة فيه ... وليس من باب الإساءة إلى اليتيم تأديبه والحزم معه، بل ذلك من مصلحته))[1]فأراد القرآن الكريم بمجموع هذه الآيات التي تضمنت الأوامر والنواهي والإرشاد والتوجيه أن يستدرجهم للكيفية الصحيحة التي يجب التعامل بها مع اليتيم بما يخفف الألم والشعور بالحرمان عنه ويحفظ له حقوقه وأمواله ليستعين بها على بناء حياته المستقبلية وسد حاجاته، فتدرج معهم في تفاصيل هذا الموضوع لتبين كل آية كيفية التعامل مع قضية من القضايا التي تتعلّق باليتيم، فلا يشقُّ عليهم بالتكاليف ممّا يؤدي إلى نفورهم وعدم طاعتهم لتشريعاته بل كان يراعي هذه المسألة حيث استطاع أن يؤثر في نفوسهم ويجعلها منقادة لأحكامه التي قد تتعارض في بعض الأحيان مع مصالحهم الشخصية لأنَّهم أصبحوا لا يفكرون إلاّ بما ينزل من القرآن الكريم من آيات ويسعون للعمل بها ليفوزوا برضوان الله تعالى وسعادة الدارين.

وبهذا يتّضح بأنَّ الاستدراج في نطاق رعاية اليتيم كان يعتمد جملة من الأساليب والمنظومات الكلامية التي تهدف إلى إقناع المتلقي، وقد كانت كالآتي:

١. إنَّ أول آية من القرآن الكريم نزلت في بيان حقوق اليتيم وما ينبغي مراعاته في التعامل معه صرحت بالنهي عن الاقتراب والتصرف بأموال الأيتام إلاّ بما فيه خير اليتيم وصلاحه وحفظ أمواله حتى يبلغ مرحلة الرشد التي يكون فيها قادراً على التصرف الصحيح في أمواله .

---

[1] ـ الشنقيطي: أضواء البيان:٥٦٩/٨

٢. السماح لهم بالتصرف بأموال الأيتام الذين يعيشون في بيوتهم مع مراعاة مصالحهم وعدم الإضرار بهم .

٣. الترغيب في رعاية اليتيم والعطف عليه من خلال التأكيد على أنَّ الجنة والسرور يكون جزاءَ لمن أطعم المسكين و(اليتيم) والأسير الذي آثره على نفسه وعياله حينما كانوا محتاجين لذلك الطعام .

٤. التذكير بأنّ هناك عقبة لا يمكن للإنسان أن يتجاوزها الاّ من خلال القيام بمجموعة من الأعمال الصالحة ومنها إطعام اليتيم في يوم المجاعة الذي تشتد الحاجة فيه للطعام .

٥. إلى جانب الإهتمام بحفظ مال اليتيم وتنمية أكدت الآيات القرآنية على أمور اليتيم الأخرى كالجانب النفسي حيث نهت عن إيذائه بقولٍ أو فعل .

المبحث الثالث: الاستدراج في نطاق الحثّ على الإنفاق في سبيل الله تعالى:

لقد جاءت تعاليم الإسلام بكل ما تتطلبه الحياة الكريمة لبني البشر، فقد كانت تشريعاته التي شملت جميع جوانب الحياة هي الحل الأمثل لكل المشكلات التي تواجه من يعتنق تلك الحياة، ومن جنس تلك المشكلات هي مشكلة (الفقر) وما يتركه من أثر في نفوس الناس ذوي الفاقة أولئك الذين يحتاجون إلى المساعدة من إخوانهم الذين أغناهم الله من فضله ليمدوا لهم يد العون والمساعدة لهذا شجع النصّ القرآني على الإنفاق في سبيل الله؛ لأنَّ ((الإنفاق من أعظم ما يهتم بأمره الإسلام في أحد ركنية وهو حقوق الناس، وقد توسل إليه بأنحاء التوسل إيجاباً وندباً من طريق الزكاة والخمس والكفارات المالية وأقسام الفدية والانفاقات الواجبة والصدقات المندوبة، ومن طريق الوقف والسكنى والعمري والوصايا والهبة وغير ذلك؛ وإنَّما يريد بذلك ارتفاع سطح معيشة الطبقة السافلة التي لا تستطيع رفع حوائج الحياة من غير إمداد مالي من غيرهم؛ ليقرب أفقهم من أفق أهل النعمة والثروة، ومن جانب آخر قد منع من تظاهر أهل الطبقة العالية بالجمال والزينة في مظاهر الحياة بما لا يقرب من المعروف ولا تناله أيدي النمط الأوسط من الناس، بالنهي عن الاسراف والتبذير ونحو ذلك؛ وكان الغرض من ذلك كله ايجاد حياة نوعية متوسطة متقاربة الأجزاء متشابهة الأبعاض... فإنَّ القرآن يرى أنَّ شأن الدين الحق هو تنظيم الحياة بشؤونها، وترتيبها ترتيباً يتضمن سعادة الإنسان في العاجل والآجل، ويعيش به الإنسان في معارف حقة، وأخلاق فاضلة، وعيشة طيبة ... ولا يتم ذلك إلاَّ بالحياة الطيبة النوعية المتشابهة في طيبها وصفائها، ولا يكون ذلك إلا بإصلاح حال النوع برفع حوائجها في الحياة، ولا يكمل ذلك إلا بالجهات المالية والثروة والقنية، والطريق إلى ذلك انفاق الأفراد مما اقتنوه بكد اليمين وعرق الجبين))[1]لهذا كانت ((في القرآن الحكيم آيات كثيرة تحث على الإنفاق بلفظ الإنفاق كما إنَّ هناك آية ذكر فيها الخمس وآيات ذكرت فيها الزكاة وقال بعض العلماء: إنَّ المراد بالزكاة مطلق أداء المال إلا إذا كانت هناك قرينة على الخصوصية، واستدلوا بقوله تعالى: ﴿وَأَوْصانِي بِالصَّلاةِ وَالزَّكاةِ ما دُمْتُ حَيًّا﴾[2] كما أنَّ في القرآن آيات أخرى تحثُّ على الإنفاق بألفاظ أخرى مثل قوله سبحانه: ﴿وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾[3] ﴿وَأَطْعِمُوا الْقانِعَ وَالْمُعْتَرَّ﴾[4]إلى غيرها، من جنس ما نزل حاثاً على الإنفاق في القرآن الكريم قوله سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لله خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ

---

[1] ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٣٨٣-٣٨٤.

[2] ـ سورة مريم:٣١.

[3] ـ سورة الذاريات:١٩.

[4] ـ سورة الحج:٣٦.

وَلِذِي الْقُرْبى وَالْيَتامى وَالْمَساكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[1] وقوله أيضا ﴿وَما أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾[2] ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لا يُتْبِعُونَ ما أَنْفَقُوا مَنًّا وَلا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾[3]... وفي بعض الآيات الكريمة عبّر عن تلك بالجهاد قال تعالى: ﴿لكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾[4] ﴿انْفِرُوا خِفافاً وَثِقالاً وَجاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾[5]))[6].

ولَمّا كان الحثّ على الإنفاق يعدُّ من الأمور الشاقة على بني البشر باعتبار أنَّ المال من أكثر الأشياء قيمة في نفس الإنسان وأعظمها حباً في داخله؛ لأنَّ نفسه مولعة بالمال مطلقاً ودليل ذلك أنَّ النصَّ القرآني قد وصف الإنسان بأنَّه يحب المال حبا جماً، من هنا وجب أن لا يكون الخطاب بالإنفاق للمتلقين مباشرا؛ بل لابدَّ من توظيف أسلوب الاستدراج التحفيزي الذي يعزز منطق الإنفاق في النفوس عن طيب خاطر ورضى نفسي دون الجبر والقسر أو الخطاب الجاف اليهم، لهذا كان القرآن الكريم في آياته الكثيرة يرمي من خلالها إلى تحقيق مبدأ استدراج الناس للإنفاق عن طريق تعريف المتلقي أهمية الإنفاق في سبيل الله وما له من أثر بالغ على حياة الإنسان في الدنيا وجزيل الثواب في الآخرة ومن ثمة تلبيتهم لدعوة القرآن الكريم للإنفاق ممّا رزقهم الله تعالى؛ وقد استعمل القرآن الكريم أساليب متعددة من أجل تحقيق هذا الهدف ففي أول آية نزلت في الإنفاق في سورة البقرة شجعهم سبحانه على الإنفاق من خلال إخبارهم بمضاعفته من الله تعالى وذلك تحديداً في قوله عزَّ من قائل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ وَاللهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾[7]

فهذه الآية ((هي أول آية في مجموعة الآيات الكريمة من سورة البقرة التي تتحدث عن الإنفاق، ولعل ذكرها بعد الآيات المتعلقة بالمعاد من جهة أنَّ أحد الأسباب المهمة للنجاة في الآخرة هو الإنفاق في سبيل الله؛ وذهب البعض إلى أنَّ الآيات لها ارتباط بآيات الجهاد المذكورة قبل آيات

---

[1] ـ سورة الأنفال:٤١.

[2] ـ سورة البقرة:٢٧٠.

[3] ـ سورة البقرة:٢٦٢.

[4] ـ سورة التوبة:٨٨.

[5] ـ سورة التوبة:٤١.

[6] ـ محمد مهدي الشيرازي: أنفقوا لكي تتقدموا: ١٩-٢٠.

[7] ـ سورة البقرة:٢٦١.

المعاد والتوحيد في هذه السورة))[1] فالآية المباركة تضرب مثلاً لمن ينفق أمواله في سبيل الله تعالى لتستدرج المسلمين لينفقوا ممَّا رزقهم حيث يقول تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ) فإنَّ((هذه الآية لفظها بيان مثل بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها وضمنها التحريض على ذلك وهذه الآية في نفقة التطوع وسبل الله كثيرة وهي جميع ما هو طاعة وعائد بمنفعة على المسلمين والملة وأشهرها وأعظمها غناء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا))[2] فهي لا تختص بنوع واحد من الإنفاق ذلك بأنَّ ((الآية عامة في النفقة))[3] وهي تتحدث عن المضاعفة فيها فالحبة أنبتت سبعمائة حبة فما أعظمها من مضاعفة وما أكثرها من بركة؛ ((وهذا التمثيل تصوير للأضعاف كأنها حاضرة بين يدي الناظر))[4] فكأنَّما تتجسد الصورة أمام ناظريه كما يشاهدها في الزراعة وكيف أنَّ الله تعالى يضاعف الزرع ويباركه بمنِّه وكرمه، ثم قال سبحانه وتعالى: (وَاللهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاءُ) فهو الذي يضاعف نفقتهم بجوده وكرمه ((أي يزيد على سبعمائة لمن يشاء فهو الواسع لا مانع من جوده ولا محدد لفضله))[5]؛ ومن الجميل نجد أنَّ فعل المضاعفة سيق على صيغة المضارع وذلك للدلالة على الاستمرار فكأنَّ هناك تشجيعا على الإنفاق ليس لأنَّ المحصلة هي تحويل النفقة أجراً الى سبعمائة ضعف؛ بل إنَّ الأمر أبعد من هذا فقد يضاعفه سبحانه إلى حد الإطلاق ودليل الإطلاق هو تحرر الفعل (يضاعفه) من الزمن لوروده على هيئة المضارعة اذ غالبا ما يعبر النصُّ القرآني على الدلالة المستمرة للفعل باستعمال صيغة المضارعة، من هنا نفهم بأنَّ الاستدراج لإقناع المتلقي بضرورة الإنفاق لا تتوقف عند حدود السبعمائة ضعف بل قد تكون المضاعفة مستمرة وفي هذا عظيم أجرٍ لا يتوقف منه تعالى وعليه تؤسس قناعة المتلقي بوجوب الإنفاق لاستحبابه من وجهة نظر عقلية لأنَّ المضاعفة على أساس الفعل الواحد لا يجحدها عقل ولا ينكرها أو لا يفعلها عاقل . ((فيكون مثل المتصدق مثل الزارع، إن كان حاذقا في عمله، ويكون البذر جيدا وتكون الأرض عامرة يكون الزرع أكثر، فكذلك المتصدق إذا كان صالحا والمال طيبا ويضعه موضعه فيصير الثواب أكثر، خلافا لمن قال: ليس في الآية تضعيف على سبعمائة))[6] (((وَاللهُ واسعٌ)لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة (عَلِيمٌ) بنية المنفق ومقدار

---

[1] ـ الشيرازي: الأمثل:٢/٢٩٠.

[2] ـ ابن عطية الأندلسي: المحرر الوجيز:١/٣٥٥.

[3] ـ الطبرسي: مجمع البيان:٢/١٨٠.

[4] ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:١/٢٥٧.

٥ ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٣٨٧.

[6] ـ القرطبي: تفسير القرطبي:٣/٣٠٣.

إنفاقه وكيفية تحصيل ما أنفقه))[1]؛ من هنا نجد أنَّ في هذه الآية((حثاً عظيما من الله لعباده على إنفاق أموالهم في سبيله وهو طريقه للوصول إليه فيدخل في هذا إنفاقه في ترقية العلوم النافعة وفي الاستعداد للجهاد في سبيله وفي تجهز المجاهدين وتجهيزهم وفي جميع المشاريع الخيرية النافعة للمسلمين ويلي ذلك الإنفاق على المحتاجين والفقراء والمساكين وقد يجتمع الأمران فيكون في النفقة دفع الحاجات والإعانة على الخير والطاعات فهذه النفقات مضاعفة هذه المضاعفة بسبعمائة إلى أضعاف أكثر من ذلك ولهذا قال والله يضاعف لمن يشاء وذلك بحسب ما يقوم بقلب المنفق من الإيمان والإخلاص التام وفي ثمرات نفقته ونفعها فإنَّ بعض طرق الخيرات يترتب على الإنفاق فيها منافع متسلسلة ومصالح متنوعة فكان الجزاء من جنس العمل))[2] وبهذا الأسلوب الرائع الذي تميّز باللين والترغيب وتوظيف دلالة الاطلاق للتحضيض على الإنفاق حقق القرآن الكريم ما يريده من استدراج إلى دفع النفقة عن رغبة وطيب نفس فكيف لا ينفقون في سبيل الله تعالى والله تعالى وعدهم بأنّه تعالى سيضاعف لهم ما ينفقون في سبيله .

وثم استدرجهم سبحانه بإنزال الآيات الحاثة على الإنفاق؛ ومن ذلك قول تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضاعِفَهُ لَهُ أَضْعافاً كَثِيرَةً﴾[3]

فنلحظ هنا استمرار سمة الإطلاق في النصوص القرآنية الداعية إلى الإنفاق لتحقيق قناعة المتلقي في ذلك الإنفاق ؛ إذ نجد أنَّه تعالى قد أطلق لفظة (أضعافا) ووصفها بـ (كثيرةً) ولم يقيدها بعدد معين؛ وقيل: ((إنَّ معناه أنَّ الله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء فالمضاعفة إلى سبعمائة ضعف غاية ما تدل عليه الآية))[4] ، ولا يمكن الركون وراء هذا القول التفسيري لأنَّ الله تعالى أطلق الأجر هنا ولم يقيده ولو شاء لقيده بعدد ما، ودليل ذلك تنكير (أضعافا) ووصفها بـ (كثيرة) ومن المعروف في نطاق الوصف أنَّ وصف الجمع بالمفرد انَّما يرد للدلالة على المبالغة[5]، والمبالغة لا تقف عند حدٍّ عددي معين لذا لا يمكن تحديد الأجر بهذا العدد البتة.

ومن الواضح أيضاً أنَّ الاستدراج قد تحقق من خلال التدرج في النزول فالآيات التي تتحدّث

---

[1] ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢٥٧/١.

[2] ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:١١٣.

[3] ـ سورة البقرة:٢٤٥.

[4] ـ الطباطبائي: الميزان:٣٨٧/٢.

(٥) ينظر: فاضل صالح السامرائي: أسرار البيان في التعبير القرآني:٥٦، ولمسات بيانية في نصوص من التنزيل: للمؤلف نفسه:٣٧٩ .

عن الإنفاق لم تنزل دفعة واحدة بل جاءت الآيات الواحدة تلو الأخرى ليستجيب الناس لما يريده القرآن الكريم بالتدريج ومن دون كلفة ومشقة على الناس، فنرى أنَّ الآية السابقة تحدثت عن مضاعفة الصدقة التي يدفعها الإنسان في سبيل الله لتشجيع الناس على الإنفاق حتى ولو كان قليلاً فإنَّ الله تعالى سيضاعفه بمنه وكرمه يقول الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) في نهج البلاغة: ((لا تستح من إعطاء القليل فإنَّ الحرمان أقلّ منه))[1] وقد روي ((عن ابن عمر قال: لما نزلت: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنابِلَ﴾ الآية قال رسول الله (صلى الله عليه(وآله)وسلم) رب زد أمتي فنزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً﴾))[2]ففي هذه الآية المباركة يصور لنا القرآن الكريم الإنفاق بأنَّه قرض لله تعالى ((وفي الآية حثٌّ بليغ على ما ندب إليه من الانفاق في سبيل الله))[3]فيقول عزَّ مِن قائل: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ) فإنَّ الإنسان إذا جاءه أحد الوجهاء واستقرض منه مالاً فإنَّه يبادر إلى إعطائه المال لأنَّه يحترمه ويجله من جهة ومن جهة أخرى يثق بأنَّ ماله سيرجع إليه كاملاً من دون نقص؛ فكيف إذا كان المقترض هو الله تعالى فتصوير الإنفاق بأنه قرض لله تعالى أمرٌ عظيم وقد استعمل أسلوب الاستفهام ليحث الإنسان على الإنفاق في سبيله فقد ((شبه ذلك بالقرض على سبيل المجاز لأنَّه إذا أعطى ماله لوجهه فكأنَّه أقرضه إيَّاه))[4] فلا يخاف الإنسان من ضياع ماله ونقصانه إذا أنفق منه في سبيل الله تعالى لأنَّ الله تعالى سيعوضه؛ وقد اختلف المفسرون في تحديد نوع الإنفاق الذي قصدته الآية الكريمة فهل يقتصر على دفع الزكاة والخمس وغيرها من الواجبات أو إنّه يشمل الواجبات والمستحبات ((فمنهم من قال: المراد الإنفاقات الواجبة، ومنهم من قال: بل هو في التطوعات، والأقرب دخول الكل فيه))[5] فالآية مطلقة لم تحدد نوع الإنفاق فهو يشمل الواجب والمستحب؛ ثم بيَّنت الآية المباركة طبيعة هذا القرض وكيف يكون، أينفق الإنسان من دون ضابطة وتحديد؟ أم أنَّ هنالك ضوابط لا بدّ من مراعاتها فيختار الإنسان ما يريده الله تعالى لينفقه في سبيله وقد حددت الآية بأنَّه قرضٌ يعطيه الإنسان عن طيب نفس ولا شائبة فيه حيث تقول: (قرضاً حسناً) فالمقصود بالقرض

---

(١) ـ الإمام علي بن أبي طالب(ع): نهج البلاغة:١٦/٤.

(٢) ـ إبن حجر العسقلاني: العجاب في بيان الأسباب:٦٠٥/١، وينظر: السيوطي: لباب النقول:٤٨.

(٣) ـ الطباطبائي: الميزان:١٥٤/١٩.

(٤) ـ الزمخشري: الكشاف:٦٣/٤.

(٥) ـ الرازي: التفسير الكبير:٢٢١/٢٩.

الحسن ((النفقة الطيبة التي تكون خالصة لوجه الله، موافقة لمراضاة الله، من مال حلال طيِّب، طيبة به نفسه، وهذا من كرم الله تعالى حيث سماه قرضا، والمال ماله، والعبيد عبيده))[1] إذ ((من لطائف التعبير القرآني في هذا التركيب المفصّل هو قوله (أقرض) فقد وظَّف سبحانه هذا الفعل بالذات للتعبير عن الإنفاق بنفس طيبة، ويبدو أنَّ سرَّ اختياره تعالى لهذا الفعل تعود لدلالته الأصل؛ لأنَّ الإقراض يدخل في حيز الأمانة وإذا كان من موجبات (الأمانة) إرجاعها فمن هنا يتحقق في هذا الفعل معنى التحفيز على الانفاق؛ لأنَّ معنى القرض يبعث الرغبة في النفس للعمل الصالح ما زال القرض لا يذهب دون العودة الى صاحبه فكان مضمون هذا العمل أدعى لإشاعة الاطمئنان في النفوس والتشجيع على الانفاق؛ لأنَّه يحمل في طيّاته معنى إرجاع القرض بأجزل عطاء وأوفر كرماً منه تعالى الى العبد المُنفِق ولو استعمل سبحانه غير هذا الفعل لما عبَّرَ عن كلِّ هذه الدلالات مرةً واحدةً كما في تعبيره بالفعل {أقرض}))[2].

فما أجمله من أسلوب تتجلى فيه أروع صور الترغيب في استدراج المتلقي إلى الإنفاق فيندفع من ذاته لينفق من ماله طلباً لرضوان الله تعالى؛ ولم يكتف القرآن الكريم بذلك؛ بل وعده بأنَّ ماله سيضاعف له لا أنَّه سيعود له وهذا كله كرم وتفضل من الله تعالى على عبيده الذين يملكون ما ملّكهم إيّاه وهو بالأصل ملكه فهو الخالق لهذا الوجود بأسره فقد وعد من أنفق في سبيله بما لم يتعارف عليه بني البشر حيث تقول الآية المباركة: (فيضاعفه له) فلا يقتصر على إرجاع ماله إليه وإنَّما ((يضاعفه له أي فيعطيه أجره أضعافا))[3] فيتنعم بعطاء الله الذي لا حدود له ((ووعد بالمضاعفة عليه أضعافا كثيرة، وهو الكريم الوهاب؛ وتلك المضاعفة، محلها ومواضعها، يوم القيامة يوم يتبين كل إنسان فقره، ويحتاج إلى أقل شيء من الجزاء الحسن))[4] وهو اليوم الذي يجني المؤمن فيه ثمار أعماله الصالحة التي عملها في الدنيا ثم قالت الآية الكريمة: (وله أجرٌ كريم)؛ ((ولم يكتف بذلك بل أضاف إليه أجرا كريما في الآخرة والأجر الكريم هو المرضي في نوعه والأجر الأخروي كذلك لأنَّه غاية ما يتصور من النعمة عند غاية ما يتصور من الحاجة))[5]وإنَّ المتأمل في ما تضمنته هذه الآية المباركة من مفاصل الاستدراج الذي تجلى ((من خلال تعبير رائع يؤكد سبحانه ذلك في

(١) ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٨٣٩.

(٢) سيروان عبد الزهرة الجنابي: الاجمال والتفصيل في التعبير القرآني: ٢٣٣.

(٣) ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢٠٦/٨، وينظر: الآلوسي: روح البيان:١٧٤/٢٧.

(٤) ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٨٣٩.

(٥) ـ الطباطبائي: الميزان:١٥٤/١٩-١٥٥.

الآية مورد البحث بقوله: (مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً) فينفق مما آتاه الله في سبيل الله فيضاعفه له وله أجر كريم؛ إنَّه تعبير عجيب حقا، حيث إنَّ الله الواهب لكل النعم وجميع ذرات وجودنا - هي من بحر فيضه اللامتناهي- وبالإضافة إلى أننا عبيد له يعبر عنا بأننا أصحاب الأموال، ويدعونا لإقراضه ضمن شروط مغرية، حيث أنَّ السائد أنَّ الديون العادية تسترجع بنفس مقاديرها، إلا أنه سبحانه - بفضل منه - يضاعفها لنا بالمئات أحيانا وبالآلاف أحيانا أخرى؛ وإضافة إلى ذلك فإنَّه قد وعدنا بأجر كريم أيضا، وهو جزاء عظيم لا يعلمه إلا هو))[1] بهذا الأسلوب الرائع استطاع القرآن الكريم أن يستدرج المسلمين إلى بذل أموالهم في سبيل الله .

ومن الآيات المباركة الأخرى التي تتعلّق بالاستدراج من أجل الإنفاق في سبيل الله تعالى وترغيب المسلمين فيه قوله تعالى في محكم كتابه العزيز:﴿ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾[2]

إنَّ هذه الآية المباركة تستدرج المسلمين وترّغبهم في الإنفاق في سبيل الله تعالى فقوله تعالى: (وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ) يؤكد أنّ ((ما تنفقوا في وجوه البر من مال، فلأنفسكم ثوابه))[3]فالإنسان عندما يعطي من ماله للحقوق الواجبة كالزكاة والخمس أو ما ينفقه الإنسان تطوعاً في سبيل الله تعالى فعليه أن يعلم أنَّ هذا الإنفاق لنفسه لا لغيره، وإن كان في الظاهر يعطي للمحتاجين ((والغرض فيه الترغيب في الإنفاق؛ لأنَّ الإنسان إذا علم منفعة إنفاقه عائدة إليه، مختصة به، كان أسمح بالإنفاق، وأرغب فيه، وأحرص عليه))[4] وإنّ الإنفاق في سبيل الله تعالى لا تنحصر فوائده في الآخرة؛ بل تعود فائدتها على الإنسان في الدنيا والآخرة فإنَّنا ((نلاحظ في جملة (وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ) أن فوائد الإنفاق تعود على المنفقين أنفسهم؛ وبهذا تدفعهم نحو هذا العمل الإنساني، وطبيعي أنَّ الإنسان يزداد حماسا لممارسة علمه حين يعلم أنَّ منافع هذا العمل تعود إليه، قد يبدو للوهلة الأولى أنَّ المنافع التي تعود على المنفق من إنفاقه هي ما يناله من ثواب في الآخرة، هذا بالطبع صحيح، ولكن لا ينبغي أن يتصور أن نتائج الإنفاق أخروية فحسب؛ بل أنَّ له منافع في هذه الدنيا أيضا مادية ومعنوية؛ ففائدته المعنوية هي أنَّ روح البذل والإنسانية والتضحية والأخوة تتربى في المنفق، وهذه في الواقع وسيلة مؤثره في تكامل شخصية الإنسان

---

(١) ـ الشيرازي: الأمثل: ١٨/٣١-٣٢.

(٢) ـ سورة البقرة:٢٧٢.

(٣) ـ الطبرسي: مجمع البيان:٢/٢٠٠، وينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن:٣/٣٣٩،والبيضاوي: تفسير البيضاوي:١/٥٧٢، والفيض الكاشاني: التفسير الصافي:١/٣٠٠.

(٤) ـ الطبرسي: مجمع البيان:٢/٢٠٠.

وتربيته، أما فائدته المادية فإنَّ وجود أناس معدمين فقراء في مجتمع ما يكون سببا في أزمات اجتماعية خطرة قد تبتلع مبدأ الملكية نفسه في ثورتها، فلا تبقي ولا تذر؛ الإنفاق يقلل من الفواصل الطبقية ويزيل هذا الخطر الذي يهدد الأفراد الأثرياء في المجتمع، فالإنفاق يطفئ لهيب غضب الطبقات المحرومة ويقضي على روح الانتقام في نفوسهم؛ من هنا فالإنفاق لصالح المنفقين من حيث الأهمية الاجتماعية والسلامة الاقتصادية والجوانب المختلفة المادية والمعنوية))[1]فالقرآن الكريم يبيِّن للناس ما للإنفاق من فوائد ليغتنموا فرصة الحياة التي يعمل فيها الإنسان لآخرته فينفق ممّا آتاه الله تعالى من المال فيقدم للمحتاجين ما يستعينون بها على توفير مستلزمات العيش الكريم في ظل تشريعات الإسلام التي تكفلت بتحقيق السعادة لبني البشر في الدنيا والآخرة؛ فالله تعالى يبارك للمنفق في ماله في الدنيا؛ وفي الآخرة يجزيه الله تعالى بما أنفق في سبيله وآثر طاعته تعالى على نفسه التي تحب المال كما في قوله تعالى:﴿ وَتُحِبُّونَ الْمالَ حُبًّا جَمًّا﴾[2] فيجزيه بما أنفق بجزيل الثواب فالله تعالى يقول:﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾[3].

ثمَّ تنتقل الآية لبيان الهدف من هذا الإنفاق فهل هو من أجل الرياء والتعالي والمباهاة ؟ أو إنَّ هناك هدفاً أسمى يبذل الإنسان ماله الذي شقي في الحصول عليه من أجل تحقيقه والظفر به ولهذا حسم سبحانه النتيجة بقوله: (وَما تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغاءَ وَجْهِ اللهِ) فتبين الآية المباركة أنَّ الغاية التي يجب أن يطلبها الإنسان هو رضا الله تعالى الذي يكمن في طاعة أوامره والانتهاء عن نواهيه؛ فهذا الإنفاق والبذل يجب أن يكون خالصاً لله تعالى لا تشوبه شائبة من رياء أو سمعة فـ ((ليست نفقتكم لشيء من الأشياء إلا لابتغاء وجه الله أو ليست في حال من الأحوال إلا حال ابتغاء وجه الله فما بالكم تمنون بها وتنفقون الخبيث))[4] فالقرآن الكريم في هذه الآية المباركة يتحدث عن نية المؤمنين وغايتهم السامية من الإنفاق فهم ((لا ينفقون إلا لطلب مرضاة ربهم واحتساب ثوابه لأنَّ إيمانهم يدعوهم إلى ذلك فهذا خير وتزكية للمؤمنين ويتضمن التذكير لهم بالإخلاص))[5]فلا بدّ للمؤمن أن تكون نيَّته خالصة لله تعالى ليكون عمله مقبولاً ويستحق الثواب الجزيل الذي أعدّه الله تعالى لهم؛ فتستمر الآية المباركة في ترغيبهم في الإنفاق من خلال تأكيد أنَّ ما يعطيه الإنسان من نفقة واجبة أو مستحبة فهي لا تضيع عند الله تعالى وإن كان بعض الناس ينسى من أحسن إليه أو يسيء

---

(١) ـ الشيرازي: الأمثل:٣٢٧/٢.

(٢) ـ سورة الفجر:٢٠.

(٣) ـ سورة الكهف:٣٠.

(٤) ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢٦٥/١.

(٥) ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:١١٦.

له فيتأذى الإنسان لذلك فهذه الآية المباركة تطيِّب خواطر المؤمنين بأنَّ ما أنفقوه في سبيل الله تعالى لن ينسى أو يضيع فالله تعالى لا ينساه وإنَّما يعطيهم من عطائه الذي لا ينفد فهم يتنعمون به حيث إنَّ ((في آخر عبارة من هذه الآية الكريمة نلاحظ تأكيدا أكثر على مقدار الإنفاق وكيفيته حيث تقول الآية: (وَما تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ) يعني أنَّكم لا ينبغي أن تتصوروا أنَّ إنفاقكم سيعود عليكم بربح قليل؛ بل أنَّ جميع ما أنفقتم وتنفقون سيعود إليكم كاملاً، وذلك في اليوم الذي تحتاجون إليه بشدة، فعلى هذا لا تترددوا في الإنفاق أبدا))[1] فإنَّ الآية الكريمة تؤكد للمسلمين أنّ كل ما يعطونه من أموالهم للمحتاجين سيعود نفعه عليهم بأضعاف مضاعفة فما أعظمه من ربحٍ يحصل عليه الإنسان من هذه المعاملة التي يتعامل بها مع الله تعالى؛ وقد أشار الطباطبائي(ت١٤١٢هـ) إلى نكتة لطيفة تضمنتها الآية في إبهام الفاعل وعدم تبيينه؛ إذ يقول :((وإبهام الفاعل في قوله: (يُوَفَّ إِلَيْكُمْ)، لما تقدَّم أن السياق سياق الدعوة فطري، ذكر الفاعل ليكون الكلام أبلغ في النصح وانتفاء غرض الانتفاع من الفاعل كأنه كلام لا متكلم له، فلو كان هناك نفع فلسامعه لا غير))[2].

وبهذا فقد استدرج القرآن الكريم المتلقي إلى أهمية الإنفاق في سبيل الله من خلال تأكيد أنَّ فائدته تعود على الإنسان نفسه وأنَّ الله تعالى يخلف على المنفقين ويبارك لهم فيما رزقهم ويوم القيامة يوفيهم أجورهم كاملة ولا ينقص منهم شيئاً؛ بل يضاعف أجورهم فهو أكرم الأكرمين .

بناءً على ما تقدَّم نجد أنّ الاستدراج الذي كان يهدف إلى تشجيع المسلمين على الإنفاق في سبيل الله كان يعتمد جملة من الأساليب والمنظومات الخطابية التي من شأنها أن تقنع المتلقي بأهمية الإنفاق وفائدته في الدنيا والآخرة وقد كانت على النحو الآتي:

١. اشتمل القرآن الكريم على العديد من الآيات المباركة التي تدعو إلى الإنفاق منها صرحت بذلك ومنها دعت إليه ضمناً وفي بعض الآيات عبَّرت عن الإنفاق بأنه جهاد .

٢. أوجب الإسلام الزكاة والخمس على المسلمين من أجل تحقيق التكافل الإجتماعي بين المسلمين، ورغّب في الإنفاق المستحب .

٣. وعد الله تعالى المنفقين بأن يضاعف لهم ما أنفقوا بسبعمائة ضعف وأكثر من ذلك بمنه وكرمه .

---

[1] ـ الشيرازي: الأمثل: ٣٢٣/٢.

[2] ـ الطباطبائي: الميزان:٣٩٩/٢.

٤. اتِّباع سمة الإطلاق في النصوص القرآنية التي تتحدث عن الإنفاق وتدعو المتلقي إلى الإقتناع به وسيلة الى نيل الأجر المضاعف وصولاً إلى الأجر المطلق؛ ذلك بأنَّ أغلب الآيات التي ورد فيها أسلوب الاستدراج لحث السامع على الإنفاق إنَّما انطوت على دلالة الإطلاق في الأجر سواء أكان ذلك عن طريق التنكير أم عن طريق حذف قيد الأجر؛ ويبدو أنَّ سمة الإطلاق هذه وسيلة ناجعة في قبول المتلقي أو إقباله على الإنفاق؛ ذلك بأنَّ القول بإطلاق أجر المنفق يزيد من رغبة المتلقي على الاندفاع بهذا الإتجاه اطمئناناً له من أنَّ ما ينفقه يعود عليه بمحصلة مطلقة في المآل الأخير؛ يوم لا رحمة إلاَّ منه سبحانه.

٥. تشبيه الإنفاق في سبيل الله تعالى بالقرض لله تعالى؛ فإذا كان الله تعالى هو المقترض فكيف لا يرجعه؟ وكيف لا يرغب الإنسان بأن يقرض الله تعالى! فعن طريق هذا التشبيه يندفع الإنسان للإنفاق عن رغبة وطيب نفس .

٦. تأكيد أنَّ فائدة الإنفاق تعود على الإنسان نفسه وإنّهم سيجدون ثمرة إنفاقهم في الدنيا والآخرة فالله تعالى هو أكرم الأكرمين فلا ينقص من أجورهم شيئاً.

المبحث الرابع: الاستدراج في نطاق نبذ النفاق:

إنَّ المعطى المعجمي للـ (نفاق) هو اخفاء الشيء واظهار خلافه؛ يقول الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت١٧٠هـ):((النفاق: الخلاف والكفر، والفعل: نافق نفاقا ... وللمنافق سر دونه نفق أي سر يخرج منه إلى غير الاسلام))[١] نلحظ انَّ مقولة الخليل تقترب من المضمون الاصطلاحي لها؛ إذ نقف على تركيز دلالي واضح من الخليل على هذا المعنى، فهو يكشف عن اللفظة بأنَّها الخلاف والكفر، والمنافق يخرج من دائرة الإيمان إلى دائرة السوء بداعي تحايله وتدبيره المكر للإسلام والمسلمين.

ويبدو أنَّ ابن فارس(ت٣٩٥هـ) زاد على ما قاله الخليل حيث إنَّ هناك معنيين للكلمة أحدهما بعيداً عن الاستعمال القرآني والآخر هو ما استعمله القرآن الكريم حيث يقول: ((النون والفاء والقاف أصلان صحيحان يدلُّ أحدهما على انقطاع شيء وذهابه والآخر على إخفاء شيء وإغماضه. ومتى حصل الكلام فيهما تقاربا. فالأول نفقت الدابة نفوقاً ماتت ونفق السعر نفاقا وذلك أنه يمضي فلا يكسد ولا يقف ... والأصل الآخر النفق سرب في الأرض له مخلص إلى مكان. والنافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره فإذا أتى من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي خرج . ومنه اشتقاق النفاق لأنَّ صاحبه يكتم خلاف ما يظهر فكأنَّ الإيمان يخرج منه أو يخرج هو من الإيمان في خفاء))[٢]وبهذا يتّضح أنَّ المقصود بالنفاق في اللغة معنيين أحدهما الإختفاء والموت والذهاب والآخر هو إظهار الإسلام وإخفاء الكفر بالله تعالى وبرسوله(صلى الله عليه وآله)– وهو ميدان البحث- فالمنافق هو ذلك الإنسان الذي يظهر الإيمان بالله تعالى ويخفي في نفسه الكفر.

أمّا النفاق في الاصطلاح فهو لا ينأى بنفسه كثيرا عمَّا قرره الخليل وابن فارس من بعده، فقد عرّفه الجرجاني بقوله: ((هو إظهار الإيمان باللسان وكتمان الكفر بالقلب))[٣] وقد عُرّف من قبل

---

١ ـ الفراهيدي: العين:١٧٨/٥ مادة (نفق).

٢ ـ ابن فارس: معجم مقاييس اللغة:٤٥٤/٥ـ ٤٥٥ مادة(نفق)، وينظر: ابن منظور: لسان العرب:٣٥٩/١٠ مادة (نفق).

٣ ـ الجرجاني: التعريفات:٢٠٦.

بعض المعاصرين بأنّه ((مخالفة السر والعلن سواء كان في الإيمان أو في الطاعات أو في المعاشرات مع الناس... ويكون بمخالفة القلب واللسان أو بمخالفة الظاهر والباطن في معاملة الناس ومصاحبتهم))[1].

أمّا المنافق فهو((من يظهر خلاف ما يبطن. وفي الحديث الشريف: ((للمنافق ثلاث علامات: إن حدث كذب، وإن ائتمن خان، وإن وعد أخلف))[2]من يُسر الكفر. ويظهر الإسلام. وفي القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾[3]قال العلماء: جعلهم شرا من الكافرين في العذاب لاستهزائهم بالدين))[4] وهكذا تتبيّن العلاقة بين الجذر اللغوي والتعريف الاصطلاحي للنفاق والمنافق فكلاهما يدلُّ على أنّ النفاق اظهار الإسلام وإضمار الكفر فكما أنَّ اليربوع يجعل لبيته بابان هما(الناصقاء)و(النافقاء) فإذا طلب من الناصقاء خرج من النافقاء من دون أن يعلم به أحد؛ فكذلك المنافق يظهر للناس الإيمان ويخفي كفره فإذا اطمأنوا لإيمانه عاد إلى كفره وعمل ما ينافي الإيمان بالخفاء.

وقد جاء الإسلام ليخرج البشرية من الظلمات إلى النور ويحررها من أسر النفس الأمّارة بالسوء فنشر العقيدة الصحيحة وجاءهم بالأحكام الشرعية التي تصلح لكل زمان ومكان؛ وإلى جانب ذلك كان حريصاً كل الحرص على تهذيب النفس الإنسانية وتصفيتها من الرذائل الأخلاقية التي تحط من قيمة الإنسان عند الله تعالى وعند الناس .

ومن تلك الصفات الأخلاقية التي لا تليق بالإنسان هي (النفاق) ذلك الذي يلوث النفس ويسلبها صفاءها((فإنَّ النفاق من أقبح الرذائل الأخلاقية من كلّ جهة، إنّ الطبيعة الإنسانية المستعدة للسعادة والحرية والرقي إلى أعلى مراقي الحياة حينما تتلوث بالكذب ونكث العهد وخلف الوعد؛

---

١ ـ هيئة محمد الأمين(ص): الأخلاق والآداب الإسلامية:٣٨٦.

٢ ـ ابن شعبة الحرّاني: تحف العقول:١٠.

٣ ـ سورة النساء:١٤٥.

٤ ـ سعدي أبو حبيب: القاموس الفقهي:٣٥٧.

يجد النفاق لنفسه مجالاً واسعاً للتوغل في هذه الطبيعة الملوثة فيتوغل فيها حتى يصبح كالمرض المزمن في النفس))[1].

وحينما جاء النبي محمد(صلى الله عليه وآله) في بداية دعوته المباركة حيث((كان الإسلام يتقدم بسرعة إلى الأمام أخذ حزب المنافقين ـ الذين رأوا موقعهم مهدداً بالخطر أكثر من سائر أحزاب المعارضة ـ يسعون في تحطيم أركان الحكومة الإسلامية، إنّهم كانوا يعاهدون رسول الله(صلى الله عليه وآله وسلم) ولكنّهم يتخلون عن وظائفهم عند العمل، وكانوا يستهزؤون بالمؤمنين ... إنّ القرآن الكريم انتقد هذه العدة اليسيرة وهجم عليهم وطردهم ولامهم في موارد مختلفة))[2].

وإنّنا إذا عدنا إلى القرآن الكريم وجدنا كثيراً من الآيات التي تذم المنافقين وتتوعدهم بالعاقبة السيئة ومنها قوله تعالى:﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ❖يُخادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَما يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَما يَشْعُرُونَ ❖فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْذِبُونَ ❖ وَإِذا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قالُوا إِنَّما نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾[3] وغيرها من الآيات التي تتحدّث عن المنافقين وصفاتهم .

ومن الآيات المباركات التي تجلّى فيها الاستدراج إلى نبذ النفاق واجتنابه لما فيه من مساويء هو قوله تعالى: ﴿الْمُنافِقُونَ وَالْمُنافِقاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ﴾[4]

ففي هذه الآية المباركة ((أخبر الله تعالى بأنَّ المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويسرون الكفر بعضهم من بعض. والمعنى إن بعضهم يضاف إلى بعض بالإجتماع على النفاق، كما يقول القائل لغيره: أنت مني وأنا منك والمعنى إنَّ أمرنا واحد لا ينفصل، وقيل: بعضهم من بعض فيما يلحقهم من مقت الله وعذابه أي منازلهم متساوية في ذلك، ثم أخبر أنَّ هؤلاء المنافقين يأمرون غيرهم

---

[1] ـ مجتبى الموسوي اللاري: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية:٦٥.

[2] ـ م ن :٦٨- ٦٩.

[3] ـ سورة البقرة:٧-١١.

[4] ـ سورة التوبة:٦٧.

بالمنكر الذي نهى الله عنه وتوعد عليه من الكفر بالله ونبيه وجحد آياته (وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ) يعني الأفعال الحسنة التي أمر الله بها وحثّ عليها، وانهم يقبضون أيديهم أي: يمسكون أموالهم عن انفاقها عن طاعة الله ومرضاته))[1] فهذه الآية المباركة تريد أن تستدرج المسلمين إلى الابتعاد عن النفاق والمنافقين وتنفرهم من هذا المرض الخطير فتبدأ أولاً بالحديث عن اتّفاقفهم على النفاق واجتماع كلمتهم عليه وفي هذا تحذير للمسلمين من أعدائهم فهم غير متشتتين وإنَّما مجتمعون على النفاق فلا بدّ من أن يحذروا من كيدهم ومؤامراتهم؛ ثمَّ تنتقل الآية الكريمة إلى بيان صفاتهم حتى تفضح أمرهم أمام المسلمين وتكشف ما أرادوا أن يخفوه فالله تعالى لا يخفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء فهم عاصون لله تعالى ولرسوله(صلى الله عليه وآله وسلم) لأنَّهم ينهون عمّا أمر الله تعالى به عباده من الطاعات والأعمال الحسنة ويأمرون بما نهى عنه الله تعالى من المعاصي والمنكرات والذنوب فمن كانت هذه صفاته فلابدّ للمسلم من أن يبتعد عنه ويحذر من الإتّصاف بصفاته فيكون في عداد المنافقين الذين يقول الله تعالى عنهم: (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ) فقد روي عن الإمام علي بن أبي طالب(عليه السلام) في بيان المراد من هذا المقطع من الآية ((إنَّما يعني نسوا الله في دار الدنيا، لم يعملوا بطاعته فنسيهم في الآخرة أي لم يجعل لهم في ثوابه شيئا فصاروا منسيين من الخير))[2] فنسيانهم لله تعالى يظهر على تصرفاتهم فالذين ينسون أوامر الله تعالى ونواهيه فإنَّ الله تعالى يجازيهم على أعمالهم؛ فـ ((إنَّ كلَّ أعمالهم وأقوالهم وسلوكهم يوضح أنَّ هؤلاء قد نسوا الله، والوضع الذي يعيشونه يبين أن الله قد نسيهم في المقابل، وبالتالي فإنَّهم قد حرموا من توفيق الله وتسديده ومواهبة السنية، أي أنَّه سبحانه قد عاملهم معاملة المنسيين، وآثار وعلامات هذا النسيان المتقابل واضحة في كل مراحل حياتهم، وإلى هذا تشير الآية: (نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ). وهنا نود الإشارة إلى أنَّ نسبة النسيان إلى الله جلَّ وعلا ليست نسبة واقعية وحقيقية - كما هو المعلوم بديهة - بل هي كناية عن معاملة لهؤلاء معاملة الناسي، أي إنَّه لا يشملهم برحمته وتوفيقه لأنَّهم نسوه في البداية، ومثل هذا التعبير متداول حتى في الحياة اليومية بين الناس، فقد نقول لشخص مثلا: إنَّنا سوف ننساك عند إعطاء الأجرة أو الجائزة لأنَّك قد نسيت واجبك، وهذا تعبير يعني أنَّنا

---

[1] ـ الطوسي: التبيان:٥/٢٥٣، وينظر: الزمخشري: الكشاف:٢/٢٠٠، والطبرسي: مجمع البيان:٥/٨٤-٨٥، والطباطبائي: الميزان:٩/٣٣٥-٣٣٦.

[2] ـ الصدوق: التوحيد:٢٥٩.

سوف لا نعطيه أجره ومكافأته))[1]فالذين ينسون أوامر الله تعالى ونواهيه فإنَّ الله تعالى يجازيهم على أعمالهم ويتمثل ذلك بـ ((تركهم من رحمته وفضله وخذلهم))[2]فما أعظمه من عقابٍ ينزله الله تعالى بهم حيث ((يعبر بالنسيان عن الترك مبالغة في أنه لا يخطر ذلك ببال))[3] فنسيان الله تعالى للعباد وإبعادهم من رحمته الواسعة التي عمت كلّ شيء في الوجود هو أقسى عقوبة ينزلها تعالى بهم؛ فكيف سيكون حال الإنسان عندما يكون مطروداً ومبعداً عن رحمته تعالى فهو بعيد عن الخير بل عن مصدر الخير فمن الطبيعي أن يكون خالداً في العذاب المهين فلا يخفف عنهم العذاب ولا ينظر الله ولا يسمع استغاثتهم وشكواهم ليخفف عنهم العذاب؛ ثم تؤكد الآية المباركة أنّ المنافقين خارجون عن طاعة الله تعالى ومتجاوزون لحدوده حيث يقول عزَّ وجلَّ:(إِنَّ الْمُنافِقِينَ هُمُ الْفاسِقُونَ) فـ ((هم الفاسقون أي: هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والإنسلاخ من كل خير، وكفى المسلم زاجراً أن يلم بما يكسب هذا الاسم الفاحش الذي وصف الله به المنافقين))[4] فالله تعالى ذكر صفات المنافقين وبيّن العقاب الذي يستحقونه في الدنيا والآخرة فبالإضافة إلى كونهم محرومين من رحمة الله وتوفيقه في الدنيا والآخرة فالقرآن الكريم يؤكد فسوقهم وخروجهم عن الصراط المستقيم وانحرافهم عن جادة الصواب ليستدرج بذلك المؤمنين إلى أن يرتدعوا عن النفاق والنفور من المنافقين وعدم الميل اليهم أو تصديقهم فهم بعيدون كل البعد عن الله تعالى ورسوله(صلى الله عليه وآله) ومطرودون من ساحة الرحمة الإلهية وبهذا فقد حقق القرآن الكريم ما يريده من المتلقي من نبذه للنفاق واجتنابه من خلال الاستدراج الذي تمثّل بالأسلوب غير المباشر فلم يقل لهم القرآن الكريم (اجتبوا النفاق) مباشرة؛ بل جعلهم يبتعدون عنه من خلال ذكره لصفات المنافقين السيئة وما توّعدهم الله تعالى به من العقاب الذي يستحقونه بسبب النفاق.

---

[1] ـ الشيرازي: الأمثل:١١٥/٦.

[2] ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٨٠/٤، وينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن: ٣٤٣.

[3] ـ أبو حيّان الأندلسي:البحر المحيط:٦٩/٥.

[4] ـ م. ن:٦٩/٥.

ومن الآيات المباركة التي تضمنت الاستدراج إلى نبذ النفاق هي قوله تعالى:((لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً))[1]

ذلك بأنَّ علماء التفسير حينما عرضوا لتفسير هذه الآية المباركة وشجوها بالآية السابقة عليها وهي قوله تعالى:﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمانَةَ عَلَى السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ مِنْها وَحَمَلَهَا الإِنْسانُ إِنَّهُ كانَ ظَلُوماً جَهُولاً﴾[2] ؛ إذ ((يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنَّه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، والسماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنَّك إن قمت بها وأديتها على وجهها، فلك الثواب، وإن لم تقومي بها، ولم تؤديها، فعليك العقاب . (فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَها وَأَشْفَقْنَ) أي خوفا أن لا يقمن بما حملن، لا عصيانا لربهن، ولا زهدا في ثوابه. وعرضها الله على الإنسان، على ذلك الشرط المذكور، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل . فانقسم الناس بحسب قيامهم بها وعدمه على ثلاثة أقسام: منافقون: قاموا بها ظاهرا لا باطنا، ومشركون : تركوها ظاهرا وباطنا، ومؤمنون : قائمون بها ظاهرا وباطنا . فذكر الله تعالى أعمال هؤلاء الأقسام الثلاثة، وما لهم من الثواب والعقاب))[3] فجاءت هذه الآية – ميدان البحث- لتبّين عاقبة كل طرف منهم وليستدرج المتلقي لنبذ النفاق والتنزه عنه لما سيحلُّ بالمنافق وبعدها ؛((بيَّن سبحانه الغرض الصحيح والحكمة البالغة في عرضه هذه الأمانة))[4] فقال تعالى: (لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ)فالذي تقصده هذه الآية الكريمة((إنَّا عرضنا ذلك ليظهر نفاق المنافق، وشرك المشرك، فيعذبهم الله))[5] فيذكر تعالى في هذه الآية جزاء المنافقين والمشركين الذين خانوا الأمانة الإلهية ولم يراعوها فـ ((اللام للغاية أي كانت عاقبة هذا الحمل أن يعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات وذلك أنَّ الخائن للأمانة

---

١ ـ سورة الأحزاب:٧٣.

٢ ـ سورة الأحزاب:٧٢.

٣ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن :٦٧٣-٦٧٤.

٤ ـ الطبرسي: مجمع البيان:١٨٨/٨.

٥ ـ م . ن : ١٨٩/٨، وينظر: الرازي: التفسير الكبير:٢٣٧/٢٥، وابن كثير: تفسير ابن كثير:٥٣٢/٣.

يتظاهر في الأغلب بالصلاح والأمانة وهو النفاق وقليلا ما يتظاهر بالخيانة لها ولعل اعتبار هذا المعنى هو الموجب لتقديم المنافقين والمنافقات في الآية على المشركين والمشركات))[1] فالمنافق أشدُّ خطراً من المشرك لأنَّ المشرك أمره معروف والمنافق يخفي حقيقة أمره من الشرك وعدم الإيمان بالله تعالى ويظهر الإيمان؛ وقد تنبَّه إلى هذا المعنى الشيرازي وذلك بقوله: ((إنَّ سبب تقديم أهل النفاق على المشركين هو أن المنافق يتظاهر بأنَّه أمين في حين أنه خائن، إلاَّ أنَّ خيانة المشرك ظاهرة مكشوفة، ولذلك فإنَّ المنافق يستحق حظا أكبر من العذاب))[2] ففي هذه الآية المباركة نجد الاستدراج إلى نبذ النفاق والإبتعاد عنه قد تحقق من خلال أسلوب الكلام الذي يفهمه العربي ويكتشف ما فيه من خفايا وأسرار فقد ذكر العذاب قبل التوبة وذلك ((لما سمى التكليف أمانة والأمانة من حكمها اللازم أنَّ الخائن يضمن وليس من حكمها اللازم أنَّ الأمين الباذل جهده يستفيد أجرة؛ فكان التعذيب على الخيانة كاللازم والأجر على الحفظ إحسان والعدل قبل الإحسان))[3] فعند ذلك ينتبهوا على خطورة النفاق وأنَّ العذاب سيحلّ بهم فيكون ذلك رادعاً لهم عن الاقتراب من هذا المرض الذي يستحق به الإنسان الشقاء والبعد من الله تعالى والطرد من رحمته - والعياذ بالله - ولم تكتف الآية بذلك على ما فيه من تخويف؛ اذ عند إعادة النظر في الآية يتبادر إلى الأذهان سؤال هو((لِمَ عطف المشرك على المنافق، ولم يعد اسمه تعالى؛ فلم يقل: (ويعذب الله المشركين) وعند التوبة أعاد اسمه وقال: (وَيَتُوبَ اللهُ) ولو قال: (ويتوب على المؤمنين) كان المعنى حاصلا؟ نقول: أراد تفضيل المؤمن على المنافق فجعله كالكلام المستأنف ويجب هناك ذلك الفاعل فقال: (وَيَتُوبَ اللهُ)))[4]فالآية الكريمة تبين هوان المنافقين والمشركين على الله تعالى وعدم إهتمامه بهم؛ وفي المقابل تذكر ما خصه الله به المؤمنين من خصوصيات وعطايا وهبات وما يحظون به من منزلة وفضل عند الله سبحانه وتعالى؛ إذ يقول عزَّ وجلَّ: (وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً) حيث ((عطف على (يعذب) أي وكان عاقبة ذلك أن يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات، والتوبة من الله هي رجوعه إلى عبده بالرحمة فيرجع

---

١ ـ الطباطبائي: الميزان:٣٥١/١٦.

٢ ـ الشيرازي: الأمثل:٣٧٣/١٣.

٣ ـ الرازي: التفسير الكبير:٢٣٧/٢٥.

٤ ـ م.ن: ٢٣٧/٢٥.

إلى الانسان إذا آمن به ولم يخن بالرحمة ويتولى أمره وهو ولى المؤمنين فيهديه إليه بالستر على ظلمه وجهله وتحليته بالعلم النافع والعمل الصالح لأنَّه غفور رحيم)) [1] فشتان بين الوعيد بالعذاب المهين وعدم التوفيق في الدنيا وسوء العاقبة وبين الرحمة الإلهية التي يفيض الله تعالى بها على المؤمنين تلك التي تتجلى في رعاية الله تعالى للمؤمن في كل أموره وتوفيقه له في الدنيا والجزاء الذي أعدّه له في الآخرة من النعيم المقيم ﴿وَرِضْوانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2] وتختم الآية بقوله تعالى:(وَكانَ اللهُ غَفُوراً رَحِيماً) فالآية مستمرة في بيان ما للمؤمنين عند الله تعالى من الخير والعطاء الذي لا حدود له فهو تعالى ((مبالغ في المغفرة والرحمة حيث تاب عليهم وغفر لهم فرطاتهم وأثاب بالفوز على طاعاتهم))[3] فماذا بعد هذا العطاء؟ فهل يريد الإنسان أكثر من الغفران والتجاوز عن الذنوب والفوز برضوان الله تعالى؛ فمَّا تقدَّم يبدو جليا أنَّ الاستدراج يتحقق في هذه الآية من خلال ملاحظة جزاء المنافقين وجزاء المؤمنين الذي أعدّه الله تعالى لكلٍّ من الفريقين والمقارنة بينهما فالإنسان عندما يقرأ ما ذكره القرآن الكريم حيث قدّم ذكر المنافقين عن المشركين لأنَّهم أشدُّ خطراً من المشركين مع إدِّعائهم الإسلام ووعدهم بالعذاب جزاءً على أعمالهم وعصيانهم لله تعالى وتكذيبهم برسوله(صلى الله عليه وآله) وفي المقابل وعد المؤمنين الذين آمنوا بالله تعالى وصدّقوا برسوله(صلى الله عليه وآله) وعملوا بما جاءهم به القرآن الكريم من الأحكام بأنّ الله تعالى يتجاوز عن ذنوبهم ويتوب عليهم ويتفضّل عليهم برحمته فهو الغفور الذي يبالغ في مغفرته لهم فيعفو عن أخطائهم ولا يؤاخذهم بها ويرحمهم ويرأف بهم ويتولى أمرهم وهو وليهم في الدنيا والآخرة؛ فبهذا يتبيّن مقام المنافقين والمؤمنين فكيف لا يبتعد الإنسان عن النفاق وهو يقرأ ما جاء في القرآن الكريم بحقهم؛ وكيف لا يرغب الإنسان أن يكون من المؤمنين الذين كرّمهم الله تعالى ووعدهم بخير الدنيا والآخرة وبهذا فقد استدرج القرآن الكريم المتلقي إلى نبذ النفاق من خلال أسلوبي الترهيب والترغيب.

وفي آيةٍ أخرى نجد أنَّ الاستدراج إلى نبذ النفاق قد تحقق من خلال الوعيد من الله تعالى بإدخال المنافقين في أسفل نار جهنّم جزاءً على أعمالهم كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنافِقِينَ فِي

---

[1] ـ الطباطبائي: الميزان:٣٥١/١٦.

[2] ـ سورة التوبة:٧٢.

[3] ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:١١٩/٧.

الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾[1] فالقرآن الكريم يتحدث عن مكان المنافقين في جهنم حيث يقول إنّهم ((في الطبق الأسفل من النار، فإنَّ للنار طبقات ودركات، كما أن للجنة درجات، فيكون المنافق على أسفل طبقة منها، لقبح عمله ... وقيل: إنَّ المنافقين في توابيت من حديد، مغلقة عليهم في النار... ولا تجد يا محمد لهؤلاء المنافقين ناصرا ينصرهم، فينقذهم من عذاب الله، إذ جعلهم في أسفل طبقة من النار))[2] وهناك رأي آخر حيث قيل: بأنَّه((يجوز أن يكون ذلك اخباراً عن بلوغ الغاية في العقاب والإهانة، كما يقال بلغ فلانا السلطان الحضيض، وبلغ فلانا العرش. ويريدون بذلك علو المنزلة وانحطاطها لا المسافة))[3] فالله تعالى قد توعدّهم بإدخالهم في أسفل مكان من نار جهنم لا بإدخالهم إلى جهنم فقط ليكون لذلك وقع أكبر في النفس؛ فحينما يعرف الإنسان أنّ مآله في يوم القيامة هو في الطبقة السفلى من النار سيشعر بفظاعة العذاب الذي ينتظره حتما فضلا عن ذلك فإنَّ الهدف من جعلهم في هذا الموضع من النار إنّما هو لإهانتهم وإذلالهم من الله تعالى فلم يكتفِ سبحانه وتعالى بإدخالهم إلى جهنّم فحسب؛ بل ميزّهم من غيرهم باختصاصهم بأسفل مكان من النار وذلك تعبيراً عن إعراضه تعالى عنهم وإبعادهم عن رحمته ورأفته؛ وبذلك فإنَّ ((المنافق أشد عذابا من الكافر لأنَّه مثله في الكفر، وضم إليه نوع آخر من الكفر، وهو الاستهزاء بالإسلام وبأهله، وبسبب أنَّهم لما كانوا يظهرون الإسلام يمكنهم الاطلاع على أسرار المسلمين ثم يخبرون الكفار بذلك فكانت تتضاعف المحنة من هؤلاء المنافقين، فلهذه الأسباب جعل الله عذابهم أزيد من عذاب الكفار))[4] فهم ((في أسفل الدركات من العذاب، وأشر الحالات من العقاب، فهم تحت سائر الكفار؛ لأنَّهم شاركوهم بالكفر بالله، ومعاداة رسله، وزادوا عليهم، المكر والخديعة، والتمكن من كثير من أنواع العداوة للمؤمنين، على وجه لا يشعر به ولا يحس، ورتبوا على ذلك جريان أحكام الإسلام عليهم، واستحقاق ما لا يستحقونه، فبذلك ونحوه استحقوا أشد العذاب))[5] وقد بيَّنت ((هذه الآية أنَّ النفاق في نظر الإسلام أشدّ أنواع الكفر، وإنَّ المنافقين أبعد الخلق من الله، ولهذا السبب فإنَّ مستقرهم ومكانهم النهائي في أحط

---

١ ـ سورة النساء:١٤٥.

٢ ـ الطبرسي: مجمع البيان:٢٢٣/٣، وينظر: الثعالبي: تفسير الثعالبي:٣٢١/٢، والشيرازي: الأمثل:٥٠٩/٣.

٣ ـ الطوسي: التبيان:٣٦٨/٣.

٤ ـ الرازي: التفسير الكبير:٨٧/١١.

٥ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٢١١.

نقطة من نقاط جهنم، وهم يستحقون هذا العقاب، لأنَّ ما يلحق البشرية من ويلات من جانب هؤلاء هو أشدُّ خطرا من كل الأخطار، فإنَّ هؤلاء بسبب احتمائهم بظاهر الإيمان يحملون بصورة غادرة وبمطلق الحرية على المؤمنين العزل ويطعنونهم من الخلف بخناجرهم المسمومة، وبديهي أن يكون حال أعداء - كهؤلاء - يظهرون بلباس الأصدقاء، أشدّ خطرا من الأعداء المعروفين الذين يعلنون عداوتهم صراحة، وفي الواقع فإنَّ النفاق هو أسلوب وسلوك كل فرد أبتر ومنحط ومشبوه وجبان وملوث بكل الخبائث ومن لا شخصية له))[1] وبهذا فقد استطاع النصُّ القرآني أن يستدرج المسلمين إلى نبذ النفاق من خلال بيان العاقبة السيئة التي تنتظر المنافقين الذين نصبوا العداء لله تعالى ولرسوله(صلى الله عليه وآله) ولم يدّخروا جهداً من أجل ضرب الإسلام والمسلمين وزرع الفتنة بين المسلمين وزعزعة إيمانهم وتشكيكهم في عقيدتهم الحقَّة التي جاء بها النبي محمد(صلى الله عليه وآله)؛ فهم وإن كانوا يتمتعون بمباهج الحياة وزينتها فإنّ لها مدة محدودة حيث ينتهي حينها كل شيء ليلاقوا العذاب الذي ينتظرهم جزاءً على ما قدّموا لأنفسهم من أعمال سيئة؛ فعندئذٍ ينفر الناس من النفاق ويحاولوا الابتعاد عنه لما فيه من عاقبة سيئة يفرُّ منها كل عاقلٍ ويترّفع عن الإتّصاف بمثل هذه الصفة الذميمة التي تكشف عن خبث سريرة المنافق ومرض قلبه وانحرافه عن جادة الصواب.

وتأسيساً على ما تقدّم نجد أنّ الاستدراج الذي يهدف إلى نبذ النفاق كان يعتمد جملة من الأساليب والمنظومات الخطابية التي من شأنها أن تنّفر الناس منه وتبعدهم عنه، وقد كانت على النحو الآتي:

١. بيان صفات المنافقين وفضحهم للمسلمين فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف؛ فلا يمكنهم أن يخفوا ما يريدون لأنَ القرآن الكريم كشف حقيقة أمرهم.
٢. التهديد من الله تعالى بإبعادهم عن الرحمة الإلهية وهي أشدّ عقوبة تنزل على الإنسان فإذا كان الإنسان مطروداً ومبعداً من رحمة الله فمن يرحمه ؟!.

[1] ـ الشيرازي: الأمثل:٥٠٩/٣.

٣. الوعيد من الله تعالى بعذاب المنافقين ومساواتهم بالمشركين في ذلك؛ وفي المقابل الوعد بالتوبة منه عزّ وجلّ للمؤمنين؛ فالاستدراج يتحقق من خلال عقد المقارنة بين عاقبة كلٍّ منهما.

٤. إخبارهم بأنَّ مكانهم في جهنّم هو في أسفل وأبعد نقطة فيها؛ وذلك يكشف عن بعدهم عن الله ورحمته وغفرانه، فضلاً عن الإشعار بهوانهم وذل مقامهم عنده جلَّ وعلا .

٥. استحقاقهم لأشدّ العذاب حيث إنَّ عذابهم أشد من عذاب الكافرين وذلك لأنَّهم جمعوا بين الكفر والنفاق فهم كانوا يظهرون الإيمان بالله تعالى وبرسوله الأكرم محمد(صلى الله عليه وآله) ويخفون في أنفسهم الكفر لذلك استحقوا أشدّ العذاب .

الفصل الثالث

الاستدراج في نطاق الأحكام الشرعية

المبحث الأول/ الاستدراج في نطاق تحريم الخمر

المبحث الثاني/ الاستدراج في نطاق تحريم الرّبا

المبحث الثالث/ الاستدراج في نطاق وجوب الصوم

المبحث الرابع/ الاستدراج في نطاق تحريم الزّنا

توطئة

بعد أن درسنا في الفصلين السابقين ظاهرة الاستدراج في نطاق العقيدة والأخلاق، سندرس في هذا الفصل بعون الله تعالى وجود هذه الظاهرة في نطاق الأحكام الشرعية، ونقف على ما تضمنته من صور للاستدراج في نطاق تحريم الخمر والرِّبا وعقوبة الزِّنا ووجوب الصوم، فإنَّ النصَّ الكريم لا يصرح بالحكم الشرعي من أول الأمر، بل كان يتدرج في بيان الحكم ويستعمل الوسائل الخطابية التي تؤول بالمتلقي إلى التسليم بالحكم والإنقياد له.

المبحث الأول: الاستدراج في نطاق تحريم الخمر

إنَّ القرآن الكريم اتَّبع أسلوب التدرج في تأسيسه بعض الأحكام الشرعية؛ وذلك بداعي معالجة بعض الظواهر المتأصلة والشائعة في مجتمع ما قبل الإسلام لذلك لم ينزل الله سبحانه الحكم الشرعي بدلالته الصريحة منذ أول نص يشير إلى ذلك الحكم؛ بل استدرجهم سبحانه للوصول إلى إقناعهم بتطبيق الحكم الشرعي الجديد تلافيا لحدوث ردة فعل في المجتمع تعدُّ سلبية والحال هذه بإزاء هذا الحكم فيما لو نزل مباشرة من دون تدريج؛ ذلك بأنَّ الاستدراج في إنزال بعض الأحكام يحول دون إحداث إصطدام نفسي لدى المتلقي مما يؤدي إلى رفضه وعناده؛ من هنا لم تصدر بعض أحكام التحريم مباشرةً؛ بل ((إنَّ الله سبحانه شرَّع فيهم ما شرَّع من الأحكام على سبيل التدريج، وكلفهم بالرفق والإمهال. ومن جملة تلك العادات الشائعة السيئة شرب الخمر فقد أخذ في تحريمه بالتدريج))[1] حيث((إنَّ معاقرة الخمر في الجاهلية وقبيل الإسلام كانت منتشرة انتشاراً أشبه بالوباء العام، حتى قيل: أنَّ حب عرب الجاهلية كان مقصورا على ثلاثة: الشعر والخمر والغزو...(و) من الواضح أنَّ الإسلام لو أراد أن يحارب هذا البلاء الكبير الشامل بغير أن يأخذ الأوضاع النفسية والاجتماعية بنظر الاعتبار لتعذَّر الأمر وشقَّ تطبيق التحريم، لذلك اتَّخذ أسلوب التحريم التدريجي وإعداد الأفكار والأذهان لاقتلاع هذه الآفة من جذورها، وهي العادة التي كانت قد تأصلت في نفوسهم وعروقهم، ففي أول الأمر وردت إشارات في الآيات المكية

[1] ـ الطباطبائي: الميزان:٢/١٩٣.

تستقبح شرب الخمر))[1] فقد ((قالوا: نزلت في الخمر أربع آيات، نزل بمكة قوله تعالى:﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[2] وكان المسلمون يشربونها وهي حلال لهم))[3]، ثمّ نزلت فيها ثلاث آيات [4] لتستدرجهم شيئاً فشيئاً لترك شرب الخمر والانتفاع به؛ وبما((أنَّ الخمر كانت تؤلف جانبا من دخلهم الاقتصادي لذلك، عندما هاجر المسلمون إلى المدينة وأسسوا أولى الحكومات الإسلامية، نزلت آية ثانية أشد في تحريم الخمر من الأولى، لكي تهيئ الأذهان أكثر إلى التحريم النهائي))[5] وهي قوله تعالى: ﴿يَسْأَلونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [6] فعند النظر في النصِّ الكريم نجد انَّ ((هنا إشارة إلى منافع الخمر الاقتصادية لبعض المجتمعات، كالمجتمع الجاهلي، مصحوبة بإشارة إلى أخطارها الكبيرة ومضارها التي تفوق كثيرا منافعها الاقتصادية ثم في الآية (٤٣) من سورة النساء : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوّاً غَفُوراً﴾[7] يأمر الله المسلمين أمرا صريحا بأن لا يقيموا الصلاة وهم سكارى حتى يدركوا ما يقولونه أمام الله. واضح أنَّ هذا لم يكن يعني أنَّ شرب الخمر في غير الصلاة جايز، بل هي مسألة التدرج في تحريم الخمر مرحلة مرحلة، أي أنَّ هذه الآية كأنَّها تلتزم الصمت ولا تقول شيئا صراحة في غير مواقع الصلاة .إنَّ تقدم المسلمين في التعرف على أحكام الإسلام واستعدادهم الفكري لاستئصال هذه المفسدة الاجتماعية الكبيرة التي كانت متعمقة في نفوسهم، أصبحا سببا في نزول آية صريحة تماما في

---

١ ـ الشيرازي: الأمثل: ١٣٩/٤-١٤٠.

٢ ـ سورة النحل:٦٧.

٣ـ الرازي: التفسير الكبير:٤٢/٦-٤٣، وينظر: أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢١٨/١.

٤ ـ ينظر: السدوسي: الناسخ والمنسوخ:٣٥-٣٦، وابن حجر العسقلاني: العجاب في بيان الأسباب:٥٤٥/١/٥٤٦، والسيوطي: لباب النقول:٩٧.

٥ ـ الشيرازي: الأمثل:١٤٠/٤.

[6] سورة البقرة:٢١٩.

[7] سورة النساء:٤٣.

تحريم الخمر حتى سدت الطريق أمام الذين كانوا يتصيدون الأعذار والمسوغات))[1] ثم من بعد هذه التهيئة والإعداد الإلهي نزل قوله عزَّ من قائل ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾إلى قوله تعالى(فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ)[2]حيث جاء الحكم النهائي بتحريم شرب الخمر قليله أو كثيره في الصلاة وغيرها؛ ((والحكمة في وقوع التحريم على هذا الترتيب أنَّ الله تعالى علم أنَّ القوم قد كانوا ألفوا شرب الخمر، وكان انتفاعهم بذلك كثيرا، فعلم أنَّه لو منعهم دفعة واحدة لشقَّ ذلك عليهم، فلا جرم استعمل في التحريم هذا التدريج))[3] فيحقق القرآن الكريم القناعة لدى المتلقي بضرورة الترفُع عن شرب الخمر لما فيه من إفساد لعقل الإنسان وجعله أسيراً لهوى النفس الأمارة بالسوء فحينما يسكره الخمر يفقد سيطرته على نفسه ويرتكب ما لا يستسيغه العقل والشرع.

وعند التأمل في الآية الأولى التي ذكرت الخمر وهي قوله تعالى:﴿ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً﴾[4] نجد أنَّ الآية المباركة تتحدث عمّا أنعم الله تعالى به عليهم من النعم وأنواع الثمر حيث تقول(((وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنابِ) يعني ذلكم أيضا عبرة فيما نسقيكم ونرزقكم من ثمرات النخيل والأعناب))[5] فالله تعالى يذكِّرهم بما امتنَّ به عليهم ورزقهم من التمر والعنب ليشعروا بعظيم نعم الله عليهم فتلين قلوبهم ويسمعوا لما أنزل من القرآن الكريم من كلام الله تعالى؛ ثم جاء في الآية (تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً) وقد اختلف المفسرون في المقصود من دلالة (السكر) في الآية الكريمة؛ حيث تباينت الآراء فيها وهي على النحو الاتي[6] :

١. أنَّه الشراب المحرم المصنوع من التمر والعنب و(الرزق الحسن) هو الحلال منه .
٢. انَّ المقصود منه هو (الخمر) .

---

١ ـ الشيرازي: الأمثل: ٤/ ١٤٠-١٤١.
[2] سورة النحل: ٦٦- ٦٧.
٣ـ الرازي: التفسير الكبير:٦/٤٣.
٤ ـ سورة النحل:٦٧.
٥ ـ الثعلبي: تفسير الثعلبي:٦/٢٧، وينظر: الطبرسي: مجمع البيان:٦/١٧٥.
٦ـ ينظر: الجصاص: أحكام القرآن:٣/٢٤، والثعلبي: تفسير الثعلبي:٦/٢٨، وابن الجوزي: نواسخ القرآن:١٨٦-١٨٧.

٣. وقيل: أنَّه (الخمر) المصنوع من التمر لا المصنوع من العنب .
٤. ومما ذُكر في المراد منه أنَّه (خمر الأعاجم) وأنَّ هذه الآية أنزلت ولم تحرِّم الخمر وإنَّما جاء الحكم بتحريمها لاحقاً في سورة المائدة المباركة[١] .
٥. وروي عنه (رضي الله عنه) أيضاً أنَّ المقصود به (الخل) بلغة أهل الحبشة .
٦. وقيل أيضاً بأنَّ المقصود به هو (الطعم) فإذا قلت أنَّ هذا الشيء له (سكر) أي: له طعم[٢].

من هنا نجد انَّ هناك جملة من الآراء التفسيرية للفظة (سكرا) بَيدَ أنَّ الراجح هو تفسيرها بالخمر، يقول ابن العربي: ((وأمَّا هذه الأقاويل فأسَدُها قول ابن عباس: إنَّ السكر الخمر والرزق الحسن ما أحلَّه الله بعدها من هذه الثمرات ويخرج ذلك على أحد معنيين: إما أن يكون ذلك قبل تحريم الخمر وإما أن يكون المعنى أنعم الله عليكم بثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه ما حرم الله عليكم اعتداء منكم وما أحل الله لكم اتفاقا أو قصدا إلى منفعة أنفسكم والصحيح أنَّ ذلك كان قبل تحريم الخمر؛ فإنَّ هذه الآية مكية باتفاق من العلماء وتحريم الخمر مدني))[٣] .

ويضيف ابن الجوزي(ت٥٩٧هـ) متحدثاً عما تضمنته الآية من إشارة إلى تحريم الخمر معارضاً لمن يقول بحليته بعد أن ذكر أقوالهم ما نصه: ((ويمكن أن يقال على هذا القول ليست بمنسوخة ويكون المعنى: أنَّه خلق لكم هذه الثمار لتنتفعوا بها على وجه مباح فاتخذتم أنتم منها ما هو محرم عليكم ويؤكد هذا أنَّها خبر والأخبار لا تنسخ))[٤]، ويبدو أنَّ الشيرازي يوافق ابن الجوزي فيما ذهب إليه إذ زاد بقوله: ((وممَّا لا يقبل الشك أن القرآن لا يجيز في هذه الآية صنع المسكرات من التمر والعنب أبدا، وإنَّما جاء ذكر المسكرات هنا لمقابلته بـ (رِزْقاً حَسَناً)وكإشارة صغيرة لتحريم الخمر ونبذه؛ وعلى هذا فلا حاجة للقول بأنَّ هذه الآية نزلت قبل تحريم الخمر أو أنَّها تشير إلى تحليله؛ بل حقيقة التعبير القرآني يشير إلى التحريم، ولعل الآية كانت تمثل الإنذار الأول للتحريم،

---

١ ـ ينظر: الجصّاص: أحكام القرآن: ٢٤٠/٣.
٢ ـ ينظر: ابن الجوزي: نواسخ القرآن: ١٨٧.
٣ ـ ابن العربي: أحكام القرآن:١٣٣/٣، وينظر: الثعالبي: تفسير الثعالبي:٤٣١/٣.
٤ ـ ابن الجوزي: نواسخ القرآن:١٨٧، وينظر: الفيض الكاشاني: التفسير الصافي:١٤٢/٣-١٤٣.

وقد تبدو العبارة وكأنّها جملة إعتراضية بين قوسين داخل الآية القرآنية))[1] فلم تصرِّح الآية المباركة بحرمة الخمر مباشرة فقد نبهت((على كراهتها وإلاّ فجامعة بين العتاب والمنة))[2] و((إن قيل: فلِمَ فرَّق بين الرزق الحسن وبينه والكل شيء واحد؟ قلنا: الوجه فيه أنَّه تعالى خلق هذه الثمار لتنتفعوا بها فاتخذتم أنتم منها ما هو حرام عليكم وتركتم ما هو رزق حسن. وأما وجه المِنَّة فبالأمرين معا ثابتة، لأنَّ ما أباحه وأحله فالمِنَّة به ظاهرة ليعجل الانتفاع به وما حرمه، فوجه النعمة فيه أنَّه إذا حرم علينا وأوجب الامتناع ضمن في مقابلته الثواب الذي هو أعظم النعمة، فهو نعمة على كل حال))[3] فكأنَّ القرآن الكريم يعاتبهم على صنعهم للشراب المسكر فقد ((جعل تعالى لعباده من ثمرات النخيل والأعناب، منافع للعباد، ومصالح من أنواع الرزق الحسن، الذي يأكله العباد، طريا ونضيجا، وحاضرا، ومُدَّخرا))[4]، فبدلاً من أن يأكلوا منه ويستفيدوا من ثمره إذا بهم يصنعوا منه شراباً يذهب العقول، ((وقيل: أراد بها التوبيخ أي: (أتتخذون منه سكرا وتدعون رزقا حسنا)))[5] فكيف تتركون الرزق الحلال الطيب وتستبدلونه بما تشتهيه أنفسكم من الشراب المسكر الذي يخرج الإنسان عن إنسانيته فكيف يختار العاقل ما يذهب عقله على ما رزقه الله من أنواع الطعام والشراب الذي يتقوى بها على أداء مهامه في الحياة كإنسان له مكانته وهيبته متمتعاً بكامل قواه العقلية؛ ثمّ ختمت الآية بقوله تعالى:(إِنَّ فِي ذلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) أي: (((إنَّ في ذلك لآية) باهرة (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) يستعملون عقولهم في الآيات بالنظر والتأمل))[6] فهذا الخطاب الإلهي يعد ((حثاً على التعقل والإمعان في أمر النبات وثمراته))[7] فمن خلال النظر العقلي والتفكر الذي دعت إليه الآية المباركة يتوصل الإنسان بنفسه إلى معرفة عظمة الله تعالى ومقدار النعم التي أنعم بها على الإنسان وفي مقابل تلك النعم يجد الإنسان نفسه مقصراً غير شاكراً لله تعالى؛ بل إنَّه متجاوز لحدوده تعالى حيث يميل إلى الخبيث من الشراب بدلاً من الرزق الطيب الذي

---

[1] ـ الشيرازي: الأمثل:٨/٢٣٣.

٢ ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٥/١٢٥.

٣ ـ الراوندي: فقه القرآن:٢/٢٨٠.

٤ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٤٤٤.

٥ ـ الآلوسي: روح المعاني:٢/١١٣.

٦ ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٥/١٢٥.

٧ ـ الطباطبائي: الميزان:١٢/٢٩٢.

أنعم الله به تعالى عليهم؛ وبذلك استطاع القرآن الكريم بهذه الإشارة من خلال الكلام غير المباشر إلى قباحة الخمر وخبثها أن يستدرجهم فيما بعد لتحريمها نهائياً من دون عودة إليها مطلقاً.

ثم جاءت الآية الثانية لتكون أشدّ من الآية الأولى في الحرمة بعد أن هيأتهم الآية الأولى لتقبل الحكم الجديد؛ فقد سأل جماعة من الصحابة النبي الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله) عن حكم الخمر فنزلت الآية المباركة[1] التي يقول فيها سبحانه: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما﴾ [2]

يقول الثعلبي(ت٤٢٧هـ) عند تفسيره لهذه الآية: ((فلما نزلت هذه الآية قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (إنَّ ربكم تقدم في تحريم الخمر)))[3]فبعد أن تضمنت الآية السابقة العتاب والتوبيخ لصانع الخمر وشاربه جاءت هذه الآية الكريمة لتبين لهم أنَّ في الخمر إثماً كبيراً وأنَّ الضرر الناتج منها أكبر من نفعها وبهذا يكون هذا البيان أوضح واكثر كشفاً في بيان دلالة التحريم من الآية التي سبقتها؛ إذ تقول الآية الكريمة: (قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ) حيث ((أخبر سبحانه بأنَّ الخمر والميسر وإن كان فيهما نفع فالإثم الذي يلحق متعاطيهما أكثر من هذا النفع، لأنَّه لا خير يساوي فساد العقل الحاصل بالخمر، فإنه ينشأ عنه من الشرور مالا يأتي عليه الحصر))[4]؛ وذلك يحصل ((بسبب التخاصم والتشاتم وقول الفحش والزور))[5] وكل ذلك بداعٍ من الخمر؛ من هنا تمضي الآية المباركة لتحقق مبدأ الاستدراج في تحريم الخمر شيئاً فشيئاً وكل ذلك بعيداً عن الشدة والمواجهة؛ فالنصُّ الكريم يُكَرِّهُ المسلمين بشرب الخمر من خلال وصف الخمر بأنَّه إثم كبير؛ ذلك بـ ((أنَّ المجتمع الجاهلي كان غارقا في الخمر والقمار، ولذلك جاء الحكم بتحريمهما بشكل تدريجي وعلى مراحل، كما نرى من اللين والمداراة والأسلوب الهادئ في لحن الآية إنَّما هو بسبب ما ذكرناه))[6] فقد ((أمر الله تعالى نبيه أن يبيِّن لهم منافعهما ومضارهما ليكون ذلك مقدمة لتحريمهما وتحتيم تركهما

---

[1] ـ ينظر: الواحدي: أسباب النزول:٤٤، والبغوي: تفسير البغوي:١٩١/١.

[2] ـ سورة البقرة:٢١٩.

[3] ـ الثعلبي: تفسير الثعلبي:١٤١/٢.

[4] ـ الشوكاني: فتح القدير:٢٢١/١.

٥ ـ النسفي: تفسير النسفي:١٠٥/١.

٦ ـ الشيرازي: الأمثل: ١١٣/٢.

فأخبر أنَّ إثمهما ومضارهما وما يصدر منهما من ذهاب العقل والمال والصد عن ذكر الله وعن الصلاة والعداوة والبغضاء - أكبر مما يظنونه من نفعهما من كسب المال بالتجارة بالخمر وتحصيله بالقمار والطرب للنفوس عند تعاطيهما وكان هذا البيان زاجراً للنفوس عنهما لأنَّ العاقل يرجح ما ترجحت مصلحته ويجتنب ما ترجحت مضرته ولكن لما كانوا قد ألفوهما وصعب التحتيم بتركهما أول وهلة قدم هذه الآية مقدمة للتحريم))[1] ويزيد الشيرازي بياناً عما تضمنته الآية المباركة من مقايسة وبيان لأضرار الخمر وآثارها الخطيرة على الفرد والمجتمع فيقول ما نصه: ((في هذه الآية وردت مقايسة بين منافع الخمر والميسر وأضرارهما وأثبتت أنَّ ضررهما وإثمهما أكثر من المنافع، ولا شك أنَّ هناك منافع مادية للخمر والقمار أحيانا يحصل عليها الفرد عن طريق بيع الخمر أو مزاولة القمار، أي تلك المنفعة الخيالية التي تحصل من السكر وتخدير العقل والغفلة عن الهموم والغموم والأحزان، إلاَّ أنَّ هذه المنافع ضئيلة جداً مقارنةً إلى الأضرار الأخلاقية والاجتماعية والصحية الكثيرة المترتبة على هذين الفعلين؛ وبناءً على هذا فكلُّ إنسان عاقل لا يقدم على الإضرار بنفسه كثيرا من أجل نفع ضئيل ... وعلى كل حال، فالمراد من الإثم هو كل عمل أو شيء يؤثر تأثيراً سلبياً في روح وعقل الإنسان ويعيقه عن الوصول إلى الكمالات والخيرات، فعلى هذا يكون وجود (الإثم الكبير) في الخمر والقمار دليل على التأثير السلبي لهما في وصول الإنسان إلى التقوى والكمالات المعنوية والإنسانية))[2]؛ فمن خلال هذا الخطاب القرآني الذي كان جوابا لسؤالهم عن الخمر استدرجهم القرآن الكريم إلى معرفة ما فيه من مضار على جسد الإنسان وروحه ومجتمعه على الرغم من وجود بعض المنافع فيه من خلال التجارة والراحة المؤقتة التي يشعر بها شارب الخمر لأنَّه يهرب من الواقع بشربه فيعيش في الخيال والوهم.

إنَّ هذا الكلام عن الخمر وبيان مفاسده إنَّما يمثل المرحلة الثانية من التحريم وهو أشدّ في بيان الحرمة؛ فكيف يُقدم الإنسان المسلم الذي يسعى لنيل رضا الله تعالى الذي يتحقق بالطاعة المطلقة لرسوله الكريم محمد (صلى الله عليه وآله) وما جاء به من القرآن الكريم على شرب الخمر بعد نزول هاتين الآيتين اللتين تبينان مدى بغض الخمر عند الله تعالى ورسوله(صلى الله عليه وآله)

---

[1] ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٩٨.

[2] ـ الشيرازي: الأمثل: ١١٣/٢.

لإحتوائه على الإثم الكبير؛ من هنا يكون من الطبيعي أن يبتعد المسلم عن الخمر وشربها لأنَّه يسمع القرآن الكريم وهو يستدرجه إلى الاقتناع بضرره وحرمته من خلال أسلوب التدرج التحريمي الذي تضمنته الآيات المباركات التي نزلت بخصوص بهذا الشأن ((وبالجملة لا شك في دلالة الآية على التحريم))[1] بدرجة ما تأسيسا على أنَّ الإثم الكبير مما يدعو العقل البشري إلى تجنبه والابتعاد عنه بوصفه داخل في نطاق الحرمة فكل إثم حرام فبما بالك إذا كان كبيرا والحال هذه.

إنَّ ما ذكرته الآية السابقة من اشتمال الخمر على المنافع والإثم وإنَّ الإثم والشر الذي يحتويه أكثر من منافعه؛ يعدُّ مرحلةً من مراحل تهيئة المسلمين لتحريم الخمر فيما بعد؛ يقول السبحاني: ((إنَّ هذا البيان وإن كان كافياً إلا أنَّ جماهير الناس لا يقلعون عن عادتهم المتجذرة ما لم يرد نهي صريح حتى وافتهم الآية الثالثة))[2]، وهي قوله تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ﴾[3] وعند النظر نجد أنَّ ((تصدير الكلام بحرفي النداء والتنبيه للمبالغة في حملهم على العمل بموجب النهي))[4].

إنَّ ((الآية الكريمة جاءت بالنهي الصريح عن شرب الخمر في وقت محدد، أي عند إرادة الصلاة بُغية الوقوف على ما يتلون من القرآن والأذكار؛ فهذه الخطوات الثلاث هيأت أرضية صالحة للتحريم القاطع))[5] فقد ((كان المنع من ذلك منعاً من الشرب ضمناً، ثم نزلت آية المائدة فكانت في غاية القوة في التحريم))[6]فإنّ في هذه الآية الكريمة يشدد الله تعالى في بيان حرمة الخمر؛ إذ ((ينهى تعالى عباده المؤمنين، أن يقربوا الصلاة، وهم سكارى، حتى يعلموا ما يقولون، وهذا شامل لقربان مواضع الصلاة، كالمسجد، فإنَّه لا يمكن السكران من دخوله، وشامل لنفس الصلاة، فإنَّه لا يجوز للسكران، صلاة، ولا عبادة، لاختلاط عقله، وعدم علمه بما يقول، ولهذا حدد تعالى

---

١ ـ الطباطبائي: الميزان:١٩٥/٢.

٢ ـ السبحاني: رسائل ومقالات:٥٠٦ـ٥٠٧.

٣ ـ سورة النساء:٤٣.

٤ ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:١٧٩/٢.

٥ ـ السبحاني: رسائل ومقالات:٥٠٦ـ٥٠٧.

٦ ـ الرازي: التفسير الكبير:٤٣/٦.

ذلك وغيَّاه إلى وجود العلم، بما يقول السكران))[1]فالصلاة حديث العبد مع ربه فكيف يكلم الإنسان الباري عزَّ وجلَّ وهو سكران لا يدري ما يقول؟ فضلاً عن ذلك فإنَّ المصلي عندما يكبِّر تكبيرة الإحرام فهو بذلك يدخل حرم الله تعالى فكيف يدخله من كان ثملاً؟! ((كما أنَّه لابد من الالتفات إلى نقطة مهمة، هي أنَّ الآية الحاضرة لا تجيز بأي وجه من الوجوه شرب الخمر؛ بل هي تتحدث فقط عن مسألة الاقتراب إلى الصلاة في حال السكر، بينما إلتزمت الصمت بالنسبة إلى حكم شرب الخمر في غير هذا المورد حتى يحين موعد المرحلة النهائية للحكم، هذا مع الالتفات إلى أنَّ أوقات الصلوات الخمس خاصة في ذلك الزمان الذي كانت العادة فيه إقامة الصلوات الخمس في أوقاتها، بحكم أنَّها كانت متقاربة كان الإتيان بالصلاة في حال الوعي يقتضي أن ينصرف الأشخاص عن تناول المسكرات في الفترات الواقعة بين أوقات الفرائض انصرافا كليا، لأنَّ السكر كان يستمر غالبا إلى حين حلول وقت الفريضة وعلى هذا كان الحكم المذكور في الآية الحاضرة أشبه بالحكم النهائي والتحريم الأبدي المطلق))[2].

وبهذا فقد استدرج النصُّ المقدس المسلمين إلى تَقبُل تحريم الخمر بعيداً عن التحريم المفاجئ الذي سيحدث عندهم ردة فعل عنيفة تتمثل بعدم قبوله واستمرارهم في شرب الخمر وعصيانهم لأوامر الله تعالى ورسوله الكريم محمد(صلى الله عليه وآله) فنهيهم عن شرب الخمر في الصلاة دليل على أنَّ هذا الفعل غير مرضي عند الله تعالى فلو كان مرضياً لما نهوا عنه وهذا السبب هو الذي دفع بعضاً من الصحابة الكرام بأن يزهدوا فيه حيث قالوا: ((لا حاجة لنا فيما يشغلنا عن الصلاة))[3].

ومن بعد ما جاء في الآيات الثلاث المتقدمة التي استدرجت المسلمين إلى حرمة الخمر بشكل غير مباشر نزلت الآية الرابعة لتعلن الحكم النهائي للخمر حيث يقول تعالى: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ❖ إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ

---

١ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:١٧٩.

٢ ـ الشيرازي: الأمثل:٣/٢٤٦-٢٤٧.

٣ ـ الشوكاني: فتح القدير:٢/٧٤.

الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [1] فـ ((إنَّ تقدم المسلمين في التعرف على أحكام الإسلام واستعدادهم الفكري لإستئصال هذه المفسدة الاجتماعية الكبيرة التي كانت متعمقة في نفوسهم، أصبحا سبباً في نزول آية صريحة تماماً في تحريم الخمر حتى سدت الطريق أمام الذين كانوا يتصيدون الأعذار والمسوغات))[2] فبعد أن كان التحريم في الآيات السابقة عن طريق جعل الخمر في مقابل الرزق الحسن ليعلم الناس أنّه غير مرغوب فيه ومن ثَمَّ إثبات اشتماله على المنافع والإثم وإنَّ اثمه أكثر من نفعه ثم النهي عن شرب الخمر في حال الصلاة جاءت هذه الآية لتعلن التحريم القطعي بشكل نهائي .

وقد ذُكِرَ أنَّ هذه الآية نزلت فيما حصل لسعد بن أبي وقاص حينما دُعِيَ إلى طعام وحينما أكل وشرب الخمر ذكر المهاجرين والأنصار في كلامه؛ فقال بأنَّ المهاجرين خيرٌ من الأنصار، فسمعه أحد المسلمين فقام وضربه على أنفه فأخبر سعدُ النبيَّ(صلى الله عليه وآله) بذلك فنزلت هذه الآية؛ وممّا روي في سبب نزولها أيضاً أنَّها نزلت في عمر بن الخطاب حينما دعا الله تعالى بأنَّ ينزل في الخمر بياناً شافياً فنزل قوله تعالى﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ﴾ ثمّ دعا بالدعاء نفسه فنزل قوله تعالى﴿لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى﴾ وفي الثالثة نزلت هذه الآية[3] .

وعند إدامة النظر إلى الآية يجد المتأمل أنَّ هناك أربعة أشياء دعت لأن تتحقق ((في الآية دلالة على تحريم الخمر، وهذه الأشياء الأربعة من أربعة أوجه: أحدها - أنَّه وصفها بأنَّها رجس وهي النجس والنجس محرم بلا خلاف. الثاني- نسبها إلى عمل الشيطان وذلك لا يكون إلا محرما. والثالث - أنَّه أمرنا باجتنابه. والأمر يقتضي الإيجاب. الرابع - أنَّه جعل الفوز والفلاح باجتنابه؛ والهاء في قوله (فاجتنبوه) راجعة إلى عمل الشيطان، وتقديره: (اجتنبوا عمل الشيطان)))[4] ونلحظ من جهة أخرى أنَّ الآية الكريمة قد اشتملت على أكثر من توكيد لإزالة الشك أو التردد من النفوس وليكون الحكم واضحاً في التحريم فقد((أكدَّ تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد منها

---

[1] ـ سورة المائدة:٩٠.

[2] ـ الشيرازي: الأمثل:٤/١٤٠-١٤١.

٣ ـ الواحدي: أسباب النزول:١٣٩.

[4] ـ الطوسي: التبيان:٤/١٧-١٨، وينظر: الطبرسي: مجمع البيان:٣/٤١١.

تصدير الجملة (بإنَّما)، ومنها أنَّه قرنهما بعبادة الأصنام))[1]، فقد روي عن النبي محمد(صلى الله عليه وآله) أنَّه قال:((شارب الخمر كعابد وثن))[2] فالقرآن الكريم يبيِّن في هذه الآية المباركة حقيقة الخمر فيبدأ خطابه بالتأكيد بالأداة(إنَّما) التي تفيد الحصر والتوكيد ليؤكد لهم بأنَّ الخمر وإن كانوا يرون فيها اللذة والمنفعة إلاَّ أنّها في الحقيقة (رجس) وهو من الأمور الخبيثة ((والأمور الخبيثة، مما ينبغي اجتنابها، وعدم التدنّس بأوضارها))[3]، فضلاً عن أنَّه تعالى قدم ذكر الخمر على كل أنواع المحرمات ثم عطفها على الخمر وفي التقديم دلالة توكيد وشدٌّ لذهنية المتلقي الى أهمية تحريم الخمر قبل غيره ابتداء ايضاً.

يزاد على هذا وذلك أنَّ الآية قد نسبت الخمرَ إلى أعمال الشيطان ((الذي هو أعدى الأعداء للإنسان ومن المعلوم أن العدو يحذر منه، وتحذر مصايده وأعماله، خصوصا الأعمال التي يعملها، ليوقع فيها عدوه، فإنَّها فيها هلاكه. فالحزم كل الحزم، البعد عن عمل العدو المبين، والحذر منها، والخوف من الوقوع فيها))[4]وبعد ذلك أمرتهم الآية باجتناب الخمر فيقول عزَّ من قائل:(فاجتنبوه) وهنا ((لابد من التنويه بأن لتعبير (فاجتنبوه) مفهوما أبعد، إذ إنَّ الاجتناب يعني الابتعاد والانفصال وعدم الإقتراب، مما يكون أشد وأقطع من مجرد النهي عن شرب الخمر))[5] فالآية تنهاهم عن الاستفادة من الخمر حتى بيعه وشرائه لأنَّه رجس ونجس ولا بد من أن يكون المؤمن بعيداً عن الرجس باحثاً عن الرزق الطيب المبارك الذي لا شبهة فيه، لا أن يكون ممَّا حرَّمه الله تعالى((فما قال القرآن: (اجتنبوه) إلاَّ وانطلق المسلمون إلى زقاق خمورهم يشقونها بالمدي والسكاكين يريقون ما فيها))[6] فتحقق بذلك استدراجهم إلى الابتعاد عن شرب الخمر وسائر ما

١ـ الزمخشري: الكشاف:٦٤١/١-٦٤٢،وينظر: البيضاوي:تفسير البيضاوي:٢٦٢/٢،وأبو السعود:تفسير أبي السعود:٧٥/٣.

٢ ـ الهيثمي: مجمع الزوائد:٧١/٥.

٣ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٢٤٣.

٤ ـ م.ن:٢٤٣.

٥ـ الشيرازي: الأمثل:١٤١/٤

٦ ـ محمد باقر الحكيم: علوم القرآن:٧١.

ينتفع به وكيف لا يتركونه ويرون أنَّ القرآن الكريم جعل تركه سبباً لفلاحهم في الدنيا والآخرة حيث تقول الآية:(لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) فإنَّ الآية تؤكد أنَّ ((لا فلاح لكم بغير ذلك))[1].

ولم يكتفِ القرآن الكريم بالأمر بالاجتناب؛ بل بيَّن ما ينتج عنه فيقول عزَّ من قائل ﴿إِنَّما يُرِيدُ الشَّيْطانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَداوَةَ وَالْبَغْضاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [2]

فـ ((الشيطان إنَّما يريد إيقاع العداوة والبغضاء بينهم بالإغراء المزين لهم ذلك حتى إذا سكروا زالت عقولهم وأقدموا من المكاره والقبائح على ما كانت تمنعه منه عقولهم . وقال قتادة: كان الرجل يقامر في ماله وأهله فيقمر، ويبقى حزينا سليبا فيكسبه ذلك العداوة والبغضاء. وقوله: (وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَعَنِ الصَّلاةِ) أي يمنعكم من الذكر لله بالتعظيم له والشكر له على آلائه، لما في ذلك من الدعاء إلى الصلاح واستقامة الحال في الدين والدنيا بالرغبة فيما عنده، والتوسل إليه بالإجتهاد في طاعته التي تجمع محاسن الأفعال ومكارم الأخلاق))[3] ونجد القرآن الكريم قد((خصَّ (الصلاة) من الذكر بالإفراد للتعظيم والإشعار بأنَّ الصادّ عنها كالصادِّ عن الإيمان من حيث إنَّها عماده والفارق بينه وبين الكفر))[4].

ومن بعد كل هذا البيان الذي تضمن ما للخمرِ من مفاسد على الفرد المسلم التي تنعكس على دينه ودنياه فإنَّ المتأمل في هذا الخطاب يلمس بأنَّه يهدف الى استدراج المتلقي إلى الامتثال لأمره تعالى فقد ((أعاد الحثَّ على الإنتهاء بصيغة الاستفهام مرتباً على ما تقدَّم من أنواع الصوارف فقال (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) إيذانا بأنَّ الأمر في المنع والتحذير بلغ الغاية وأنَّ الأعذار قد انقطعت))[5] فهذا الكلام ((صيغته الاستفهام ومعناه النهي، وإنَّما جاز في صيغة الاستفهام أن يكون على معنى النهي، لأنَّ الله ذم هذه الأفعال، وأظهر قبحها، وإذا ظهر قبح الفعل للمخاطب،

---

١ ـ الشيرازي: الأمثل:٤/١٤١-١٤٢.

٢ ـ سورة المائدة:٩١.

٣ ـ الطوسي: التبيان:٤/١٨، وينظر: الطبرسي: مجمع البيان:٣/٤١١

٤ ـ البيضاوي: تفسير البيضاوي:٢/٣٦٣.

٥ ـ م . ن:٢/٣٦٣

ثم استفهم عن تركه، لم يسعه إلا الإقرار بالترك، فكأنَّه قيل له: أتفعله بعد ما قد ظهر من قبحه ما ظهر؟ فصار المنتهي بقوله: (فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) في محل من عقد عليه ذلك بإقراره، وكان هذا أبلغ في باب النهي من أن يقال انتهوا ولا تشربوا))[1] فلا يملك المسلم بعد سماع هذه الآية الكريمة إلاَّ أن يبادر وبدافع حقيقي من ذاته إلى الابتعاد عن الخمر وعن شربها حتى لا يتلوث بها ((لأنَّ العاقل إذا نظر إلى بعض تلك المفاسد انزجر عنها، وكفت نفسه، ولم يحتج إلى وعظ كثير، ولا زجر بليغ))[2] وبهذا قد استدرج القرآن الكريم المسلمين إلى تَقبُل الحكم الجديد الذي جاء بتحريم الخمر شيئاً فشيئاً لأنَّهم كانوا مولعين بشربه وليس من السهل أن يأتي حكم الإسلام بشكل مفاجيء بالتحريم النهائي من دون أن تكون هناك مقدمات للتحريم وتهيئة للنفوس لقبول ذلك والعمل به.

ومن خلال ما تقدّم تحصل من مجموع الآيات التي تضمنت الاستدراج في نطاق تحريم الخمر إنّه كان يعتمد جملة من الأساليب والمنظومات الخطابية التي كانت تهدف إلى إقناع المتلقي بحرمة الخمر وضرورة اجتنابه بالتدريج من دون أن يصرح بذلك مباشرة؛ وقد كانت على النحو الآتي:

١. استعمل أسلوب العتاب والمِنَّة في الآية الأولى التي نزلت تتحدّث عن الخمر؛ فقد تضمنت الإشارة إلى كونه غير مرغوب فيها لأنهم وظفوا ما سمَّته الآية بـ (الرزق الحسن) واتخذوا منه خمراً ليسكرهم على الرغم من أنَّه نعمة حسنة مباركة من نعم الله تعالى عليهم.

٢. التصريح في المرحلة الثانية التي كانت الحرمة فيها أشدّ بأنَّ في الخمر منافع ومضار؛ والتأكيد على أنّ المضار الناتجة عنه تفوق منافعه، فكانت هناك مقايسة في الأسلوب باستعمال النصّ أفعل التفضيل (أكثر من) فظهر بذلك أنَّ الضرر أوسع من النفع فحق بهذا تركها بناء على منطق المفاضلة هذا.

٣. في المرحلة الثالثة كانت أشدّ في التحريم؛ إذ جاء النهي عن الصلاة في حال السكر لكن لم يبين حكم شرب الخمر خارج وقت الصلاة؛ فكانت تلك الآية بمثابة النهي الضمني عن شربه في سائر الأوقات.

---

[1] ـ الطبرسي: مجمع البيان:٣/٤١١-٤١٢، وينظر: الرازي: التفسير الكبير:١٢/٨١.

[2] ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٢٤٣.

٤. استعمل سبحانه في مرحلة القطع بتحريم الخمر النهي الصريح بالابتعاد عنه عن طريق توظيف فعل الأمر (اجتنبوا) لأداء هذا المطلب الدلالي ذلك بأنَّ فعل الأمر من حيث صيغته في الآية الكريمة ملزم الأداء غير أنَّ الدلالة المعجمية له تصرفه الى دلالة النهي لا الأمر أي: امتنعوا عن الخمر أو (لا تقربوا الخمر البتة) فكأنَّه سبحانه جمع في هذا الفعل معنى الإلزام بصيغة الأمر ومعنى النهي بدلالة الفعل المعجمية في آنٍ معاً، فضلا وجود قرينة لفظية في السياق من حيث وصف الخمر بأنَّها(رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ) وكل ما هو رجس يجب اجتنابه عقلا ومنطقا.

٥. استعمال أسلوب التوكيد بأداة التوكيد والحصر(إنَّما) في بيان ما يريد الشيطان أن يوقعه بين المؤمنين من خلال شربه.

٦. استعمال أسلوب الاستفهام بمعنى النهي لكي يكون لذلك الأثر البليغ في النفس أكثر ممّا لو كان النهي بغير هذا الأسلوب.

المبحث الثاني: الاستدراج في نطاق تحريم الرِّبا:

إذا ما حاولنا البحث عن المعنى اللغوي للفظة (الرِّبا) فانَّنا سنجده بمعنى الزيادة والنَّماء، فهذه المفردة مأخوذة من الجذر الثلاثي (ربو) يقول الخليل (ت١٧٠هـ): ((ربا الجرح والأرض والمال وكل شيء يربو ربوا؛ إذا زاد))[١] ويتَّفق الجوهري (ت٣٩٣هـ) مع الخليل في بيانه لدلالة (الرِّبا) لغةً؛ فيقول: ((ربا الشيء يربو ربوا، أي زاد؛ والرابية هو ما ارتفع من الأرض))[٢]، والأظهر أنَّ ابن منظور (ت٧١١هـ) قد شاطرهما الرؤيا المضمونية للفظة (الرِّبا) لكنّه زاد على ما ذكره كلٌّ من الفراهيدي والجوهري حيث أشار إلى دلالة الاستعمال القرآني والشرعي للرِّبا؛ إذ يقول: ((ربا: ربا الشيء يربو ربوا ورباء: زاد ونما، وأربيته: نمَّيته، وفي التنزيل العزيز﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾[٣] ومنه أخذ الرِّبا الحرام... والإسم الرِّبا مقصور، وهو في الشرع: (الزيادة على أصل المال من غير عقد تبايع) ... وقوله عزَّ وجلَّ في صفة الأرض: ﴿اهتزَتْ وربَتْ﴾[٤]، قيل معناه: عظمت وانتفخت))[٥]؛ فنلحظ أنَّ ابن منظور قد فاق من سبقه في بيانه لمعنى لفظة (الرِّبا) بَيدَ أنَّ ما يؤخذ عليه أن جعل المفهوم الاصطلاحي للرِّبا في نطاق بيانه اللغوي، وهو غير معني ببيانه التعريف الاصطلاحي له؛ إذ يقتصر عمله على بيان التداول اللغوي الأصل للفظة في الاستعمال اللساني التداولي لدى العرب؛ أمَّا الزيادات الاصطلاحية فليس من وكده المعجمي أو من جنس عمله اللغوي في نطاق بيانه معاني اللفظة، وعلى الرغم من هذا فإنَّه أنار لنا المفهوم الاصطلاحي للفظة وأوضح الحيثية الدلالية التي استعملها بها النصّ القرآني ونظرة الشريعة لها .

يتَّضح مما تقدّم أنَّ المعنى اللغوي لـ(الرِّبا) لا يعدو حدود الدلالة على الزيادة والنماء في الشيء .

أمّا في الاصطلاح فنجد أنَّ الجصاص (ت٣٧٠هـ) قد عرَّفه بقوله: ((واسم الرِّبا في الشرع يعتوره معان: أحدها الرِّبا الذي كان عليه أهل الجاهلية، والثاني: التفاضل في الجنس الواحد من المكيل والموزون))[٦] وقد تحدَّث القطب الراوندي (ت٥٧٣هـ) عن مفهومه؛ فقال: ((الرِّبا هو

---

(١) ـ الفراهيدي: كتاب العين:٨/٢٨٣: مادة(ربو).

(٢) ـ الجوهري: الصحاح:٦/٢٣٤٩: مادة(ربا).

(٣) ـ سورة البقرة:٢٧٦.

(٤) ـ سورة الحج:٥، وكذلك وردت في سورة فصلت:٣٩.

(٥) ـ ابن منظور: لسان العرب:١٤/٣٠٤-٣٠٥: مادة(ربا).

(٦) ـ الجصاص: أحكام القرآن:١/٥٦٣-٥٦٤.

الزيادة على رأس المال في جنسه أو مماثله، وذلك كالزيادة على مقدار الدين للزيادة في الأجل، أو كإعطاء درهم بدرهمين أو دينار بدينارين))[1].

وعرَّفه الجرجاني بقوله: ((هو فضلٌ خالٍ عن عوضٍ شرطٌ لأحد العاقدين))[2] وعرّفه أحد المعاصرين بقوله: ((هو الزيادة في أشياء خاصة على الدين مقابل الأجل مطلقاً))[3].

ممّا تقدّم تتّضح العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي فكلاهما يدلان على حصول الزيادة في الشيء ففي اللغة نجد أنَّ (الرِّبا) يعني الزيادة المطلقة في كل شيء، وأمّا في الإصطلاح فقد قُيدت الزيادة في المال فقط من دون وجه حق .

وشاع الرِّبا كثيرا عند اليهود إذ كانوا يتعاملون به بغزارة في معاملاتهم المالية ولا يتورعون عنه، فقد عُرِفَ عن اليهود بأنَّ ((لهم حيل، وأباطيل كثيرة كانوا يحتالون بها، ويخادعون بها أنبياءهم (عليهم الصلاة والسلام)، ومن تلك الحيل الباطلة احتيالهم لأكل الرِّبا وقد نهاهم الله عنه، وحرَّمه عليهم، قال تعالى:﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً ❖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾[4] ... وقد صرف اليهود النصّ المُحَرِّم للرِّبا حيث قصروا التحريم فيه على التعامل بين اليهود، أمَّا معاملة اليهودي لغير اليهودي بالرِّبا، فجعلوه جائزاً لا بأس فيه... فاتّضح من كلام الله تعالى أنَّ الله قد حرّم الرِّبا في التوراة على اليهود، فخالفوا أمر الله، واحتالوا، وحرَّفوا، وبدَّلوا، واعتبروا أنّ نصّ التحريم إنّما يكون بين اليهود فقط، أمَّا مع غيرهم فلا يكون ذلك محرَّماً في زعمهم الباطل، ولذلك ذمَّهم الله في كتابه العزيز))[5] فهذا ديدنهم في عصيان الله تعالى وعدم اتّباعهم لأنبيائهم(عليهم السلام) فقد استحقوا بذلك عذاب الدنيا والآخرة.

أمّا في الجاهلية فقد كان (الرِّبا) معروفاً أيضاً لكن ((الرِّبا الذي كانت العرب تعرفه وتفعله إنَّما كان قرض والدراهم والدنانير إلى أجل بزيادة على مقدار ما استقرض على ما يتراضون به، ولم يكونوا يعرفون البيع بالنقد وإذا كان متفاضلا من جنس واحد، هذا كان المتعارف المشهور

---

(١) ـ الراوندي: فقه القرآن:٢/٤٥-٤٦.

(٢) ـ الجرجاني: التعريفات:٩٤-٩٥.

(٣) ـ عمر بن عبد العزيز المترك: الرِّبا والمعاملات المصرفية:٣٤.

(٤) ـ سورة النساء:١٦٠-١٦١.

(٥) ـ سعيد بن علي القحطاني: الرِّبا أضراره وآثاره: ١٠.

بينهم، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾[1] فأخبر أنَّ تلك الزيادة المشروطة إنما كانت ربا في المال العين لأنَّه لا عوض لها من جهة المقرض، وقال تعالى : ﴿لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً﴾[2] إخباراً عن الحال التي خرج عليها الكلام من شرط الزيادة أضعافاً مضاعفةً، فأبطل الله تعالى الرِّبا الذي كانوا يتعاملون به وأبطل ضروباً أُخر من البياعات وسماها ربا، فانتظم قوله تعالى: (وَحَرَّمَ الرِّبا)[3] تحريم جميعها لشمول الاسم عليها من طريق الشرع، ولم يكن تعاملهم بالرِّبا إلا على الوجه الذي ذكرنا من قرض دراهم أو دنانير إلى أجل مع شرط الزيادة))[4] على مقدار المال المقترض ابتداء؛ فهذه الزيادة هي التي يصلح عليها تسمية (الرِّبا) وهي محرمة شرعاً .

أنواع الربا:

كانت هناك ثلاثة أنواع من التعاملات الربوية منتشرة قبل الإسلام، وهي:

أولاً: ربا الفضل: و((هو الزيادة في مبدلة مال ربوي بمال ربوي من جنسه))[5] وقد روي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ربا الفضل أحاديث كثيرة منها: قوله (صلى الله عليه وآله): ((الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، والآخذ والمعطي فيه سواء))[6] وقوله(صلى الله عليه وآله) في حديث آخر: ((الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، مثلاً بمثل، سواء بسواء، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يداً بيد))[7] .

ثانياً: ربا النسيئة: و((هو تأخير القبض في بيع الربوي بالربوي، سواء كان من جنسه أو من غير جنسه إذا اتفقا في العلة))[8] والذي يبدو أنَّ ((ربا النسيئة هو الذي كان مشهوراً في الجاهلية؛ لأنَّ

---

(١) ـ سورة الروم:٣٩.

(٢) ـ سورة آل عمران:١٣٠.

(٣) ـ سورة البقرة:٢٧٥.

(٤) ـ الجصاص: أحكام القرآن:١/٥٦٣-٥٦٤.

(٥) ـ سعيد بن علي القحطاني: الربا أضراره وآثاره:٢٠.

(٦) ـ ابن أبي شيبة الكوفي: المصنف:٥/٢٩٩.

(٧) ـ الدارقطني: سنن الدارقطني:٣/٢٠.

(٨) ـ سعيد بن علي القحطاني: الرِّبا أضراره وآثاره:٢٩.

الواحد منهم كان يدفع ماله لغيره إلى أجل، على أن يأخذ منه كل شهر قدراً معيناً، ورأس المال باقٍ بحاله، فإذا حلَّ طالبه برأس ماله، فإن تعذر عليه الأداء زاد في الحق والأجل، وتسمية هذا نسيئة مع أنَّه يصدق عليه ربا الفضل؛ لأنَّ النسيئة هي المقصودة بالذات))[1] .

ثالثاً: ربا القرض: ((هو عقد مخصوص يرد عليه على دفع مال مثلي لآخر ليرد مثله... (و) إنَّ القرض بفائدة هو من ربا الجاهلية المحرَّم بالقرآن))[2] .

وقد حددت الشريعة الإسلامية الأجناس التي يحصل فيها الرِّبا فـ ((المنصوص عليه تحريم التفاضل في ستة أشياء: الذهب، والفضة، والحنطة، والشعير، والتمر، والملح، وقيل الزبيب، فقال رسول الله (صلى الله عليه وآله) فيها : ((مثلا بمثل يداً بيد، من زاد واستزاد فقد أربى))[3] . فإنّ((الرِّبا محرم متوعد عليه كبيرة موبقة بلا خلاف بهذه الآية وبقوله ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا﴾[4] وبقوله: ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾[5]))[6] .

آثار الربا وأضراره:

إنَّ ممَّا لا شك فيه أنَّ للربا آثاراً سلبيةً وعواقبَ سيئةً، وإنَّ الإسلام لَّما حرَّمه إنَّما كان يريد بذلك أنَّ يحقق السعادة للبشرية ويحفظها من كل ما من شأنه أنْ يلحق الضرر ببني البشر، وللرِّبا أضرارٌ عديدة تنعكس على الفرد والمجتمع منها:

أولاً: الأضرار الروحية والأخلاقية: فهو يزرع في نفس المرابي الرذائل الأخلاقية من البخل وضيق الصدر والعبودية للمال والحرص وغيرها .

ثانياً: الأضرار الاجتماعية: فهو يؤدي إلى تفكك المجتمع وانحلاله، وانعدام المساعدة بين أفراده إذا لم تجُر منفعة مالية، وتجد أنَّ الأثرياء يعادون الفقراء .

---

(١) ـ سعيد بن علي القحطاني: الرِّبا أضراره وآثاره: ٢٩.

(٢) ـ عمر بن عبد العزيز المترك: الرِّبا والمعاملات المصرفية:١٧٩.

(٣) ـ المتَّقي الهندي: كنز العمّال:١١٥/٤.

(٤) ـ سورة البقرة:٢٧٨.

(٥) ـ سورة البقرة:٢٧٩.

(٦) ـ الراوندي: فقه القرآن:٤٥/٢-٤٦.

ثالثاً: الأضرار الاقتصادية: فيؤثر سلبياً على الحالة الاقتصادية للفرد والمجتمع من خلال الزيادة التي يفرضها المرابي على الشخص المدين التي تثقل كاهله[1] .

مراحل تحريمه:

لقد كان تحريم الرِّبا على مراحل متلاحقة ولم يكن دفعةً واحدة فـ ((كلنا يعرف أنَّ أسلوب القرآن في مكافحة الانحرافات الاجتماعية المتجذرة في حياة الناس يعتمد معالجة الأمور خطوة فخطوة، فهو أولاً يهيّء الأرضية المناسبة، ويطلع الرأي العام على مفاسد ما يطلب محاربته ومكافحته، ثم بعد أن تتهيأ النفوس لتقبل التحريم النهائي يعلن عن التحريم في صيغته القانونية النهائية-ويتبع هذا الأسلوب خاصة إذا كان ذلك الأمر الفاسد مما استشرى في المجتمع، وكانت رقعة انتشاره واسعة-، كما أنّنا نعلم أيضا أنَّ المجتمع العربي في العهد الجاهلي كان مصابا - بشدة - بداء الرِّبا، حيث كانت الساحة العربية -وخاصة مكة- مسرحا للمرابين، وقد كان هذا الأمر مبعثا للكثير من المآسي الاجتماعية، ولهذا استخدم القرآن في تحريم هذه الفعلة النكراء أسلوب المراحل، فحرَّم الرِّبا في مراحل أربع :

١ - يكتفي في الآية ٣٩ من سورة الروم بتوجيه نصح أخلاقي حول الرِّبا؛ إذ قال سبحانه وتعالى : ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾؛ بهذا يكشف عن خطأ الذين يتصورون أنَّ الرِّبا يزيد من ثروتهم، في حين أنَّ إعطاء الزكاة والإنفاق في سبيل الله هو الذي يضاعف الثروة .

٢ - يشير - ضمن انتقاد عادات اليهود وتقاليدهم الخاطئة الفاسدة - إلى الرِّبا كعادة سيئة من تلك العادات، إذ يقول في الآية ١٦١ من سورة النساء : ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾))[2].

٣ – ثمّ يذكر في قوله تعالى:﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[3] فنلحظ أنَّ حكم التحريم قد صدر في هذه الآية بصراحة، بَيدَ انَّه يشير إلى نوع واحد من أنواع الرِّبا، وهو النوع الشديد والفاحش منه فحسب دون غيره[4].

---

[1] ـ ينظر: سعيد بن علي القحطاني: الرِّبا أضراره وآثاره:٧٤.

[2] ـ الشيرازي: الأمثل:٦٨٨/٢.

(٣) ـ سورة آل عمران:١٣٠.

[4] ينظر: الشيرازي: الأمثل:٦٨٨/٢.

٤ – ومِن ثَمة ((أخيراً أعلن في الآيات ٢٧٥ إلى ٢٧٩ من سورة البقرة عن المنع الشامل والشديد عن جميع أنواع الرِّبا، واعتباره بمنزلة إعلان الحرب على الله سبحانه))[١].

وبهذا تكون من أوائل الآيات القرآنية المباركات التي تحدَّثت عن الرِّبا هي قوله تعالى:﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَ فِي أَمْوالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِنْدَ اللهِ وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾[٢]

فقد ذكر المفسرون أنَّ هناك رأيين معتمدين في بيان المقصود من (الرِّبا): فالأول: يشمل الرِّبا الحلال الذي يكون فيه إعطاء المال بقصد الحصول على زيادة في المال كالهدية وغيرها من دون قصد القربة لله تعالى[٣]؛ والثاني: أن يكون المقصود هو الرِّبا المحرَّم الذي يكون العطاء مشروطاً بالزيادة[٤]؛ إذ يقول الزمخشري عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: ((وما أعطيتم أكلة الربا (مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ) ليزيد ويزكو في أموالهم فلا يزكو عند الله ولا يبارك فيه (وَما آتَيْتُمْ مِنْ زَكاة) أي صدقة تبتغون به وجهه خالصا لا تطلبون به مكافأة ولا رياء وسمعة (فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) ذوو الأضعاف من الحسنات ... وقيل نزلت في ثقيف وكانوا يربون، وقيل: المراد أنَّ يهب الرجل للرجل أو يهدى له ليعوضه أكثر مما وهب أو أهدى، فليست تلك الزيادة بحرام، ولكن المعوض لا يثاب على تلك الزيادة؛ وقالوا: الرِّبا ربوان، فالحرام كل قرض يأخذ فيه أكثر منه أو يجر منفعة، والذي ليس بحرام أن يستدعى بهبته أو بهديته أكثر منها ... (فَأُولئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ) التفات حسن كأنَّه قال لملائكته وخواص خلقه: فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقاتهم هم المضعفون، فهو أمدح لهم من أن يقول فأنتم المضعفون))[٥] وقد ((ذكر هذا تحريضاً؛ يعني أنَّكم إذا طلب منكم واحد باثنين ترغبون فيه وتؤتونه وذلك لا يربوا عند الله والزكاة تنمو عند الله كما أخبر النبيُّ (عليه الصلاة والسلام): ((والذي نفسي بيده ما من عبد يتصدق بصدقة حسنة طيبة فيضعها في حق إلا كانت تقع في يد الرحمن يربيها كما يربي أحدكم فصيله أو فلوه حتى إنَّ التمرة

---

(١) ـ الشيرازي: الأمثل:٢/٦٨٨-٦٨٩.

(٢) ـ سورة الروم:٣٩.

(٣) ينظر: الشوكاني: فتح القدير: ٤/٣٢٣، النسفي: تفسير النسفي:٣/٢٧٥، وابن الجوزي: زاد المسير: ٦/٣٠٤.

(٤) ينظر:م.ن: ٤/٣٢٣، وابن الجوزي: زاد المسير: ٦/٣٠٤.

(٥) ـ الزمخشري: الكشاف:٣/٢٢٣-٢٢٤، وينظر: الشوكاني: فتح القدير: ٤/٣٢٣، والغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل:٣/١٢٣-١٢٤، والقرطبي: تفسير القرطبي:١٤/٣٦-٣٧و٣٩.

أو اللقمة لتصير مثل الجبل العظيم))[1] فينبغي أن يكون إقدامكم على الزكاة أكثر))[2] فالقرآن الكريم يريد منهم أن يكون بذلهم وعطاءهم خالصاً لوجه الله تعالى ليستحقوا بذلك الثواب الكبير.

وقد تحدّث الشيرازي عن الرِّبا الذي قصدته الآية والاختلاف الذي وقع بين المفسرين في بيانه وعن إمكان الجمع بين الرأيين في هذا الموضوع حيث يقول: ((إنَّ المراد من الرِّبا هو الهدايا التي يقدمها بعض الأفراد للآخرين، ولا سيما إلى أصحاب الثروة والمال، كي ينالوا منهم أجرا أحسن وأكثر، وبديهي أنَّه في مثل هذه الهدايا لا يؤخذ بنظر الاعتبار استحقاق الطرف الآخر ولا الجدارة والأولوية، بل كل ما يهدف إليه أن تصل الهدية إلى مكان، تعود على مهديها بمبلغ أوفر ومن الطبيعي أن مثل هذه الهدايا ليس فيها (جنبة) إخلاص، فلا قيمة لها من الجهة الأخلاقية، والمعنوية، فعلى هذا يكون معنى (الرِّبا) في هذه الآية هو (الهدية والعطية) والمراد من جملة (ليربو في أموال الناس) هو أخذ الأجر الوافر من الناس ! ولا شك أنَّ أخذ مثل هذه الأجرة ليس حراما، إذ ليس فيه شرط أو قرار، إلا أنَّه فاقد للقيمة الأخلاقية والمعنوية . . . ولذلك فقد ورد التعبير عن هذا الرِّبا - في روايات متعددة عن الإمام الصادق (عليه السلام) في مصادر معروفة، بـ (الرِّبا الحلال) في قبال (الربا الحرام) الذي يستلزم الشرط والعقد أو الاتفاق، ونقرأ في حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) في كتاب تهذيب الأحكام، في تفسير الآية قوله (عليه السلام) : (هو هديتك إلى الرجل تطلب منه الثواب أفضل منها، فذلك ربا يؤكل)[3] كما نقرأ حديثا آخر عنه (عليه السلام) (الرِّبا رباءان، أحدهما حلال والآخر حرام، فأما الحلال فهو أن يقرض الرجل أخاه قرضا طمعاً أن يزيده ويعوضه بأكثر مما يأخذه بلا شرط بينهما، فإن أعطاه أكثر مما أخذه بلا شرط بينهما فهو مباح له، وليس له عند الله ثواب فيما أقرضه، وهو قوله عزَّ وجلَّ: (فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ) وأما الرِّبا الحرام فهو الرجل يقرض قرضا ويشترط أن يرد أكثر مما أخذه فهذا هو الحرام)[4]))[5].

ويرى الشيرازي أنَّ هناك تفسيرا آخر للرِّبا الموجود في الآية الكريمة وهو أنَّ المراد من الرِّبا ههنا تحديداً هو (الربا الحرام) فحسب[6]؛ ((وطبقا لهذا التفسير فإنَّ القرآن يريد أن يقيس الرِّبا

---

[1] ـ المتَّقي الهندي: كنز العمال:٦/٣٨٠.

[2] ـ الرازي: التفسير الكبير:٢٥/١٢٧.

(٣) ـ الطوسي: تهذيب الأحكام:٧/١٥.

(٤) ـ الحر العاملي: وسائل الشيعة:١٨/١٦٠-١٦١.

[5] الشيرازي: الأمثل:١٢/٥٤١-٥٤٣.

[6] ينظر: الشيرازي: الأمثل:١٢/٥٤١-٥٤٣.

بالإنفاق الخالص لوجه الله، ويبين أنَّ الرِّبا وإن كان ظاهره زيادة المال، إلا أنَّه ليس زيادة عند الله، فالزيادة الحقيقية والواقعية هي الإنفاق في سبيل الله، وعلى هذا الأساس فقد عدوا الآية مقدمة لمسألة (تحريم الرِّبا)التي ذكرها القرآن في بداية الأمر وقبل الهجرة على سبيل الإرشاد الأخلاقي والنصح، ولكن تمَّ تحريم الرِّبا بعد الهجرة في ثلاث سور" البقرة وآل عمران والنساء" (بصورة تدريجية)... وبالطبع ليس بين المعنيين أي تضاد، ويمكن أن تؤخذ الآية بمعناها الواسع الذي يجمع (الربا الحلال) و (الربا الحرام) ويقاس كلاهما بالإنفاق في سبيل الله، إلا أنَّ تعبيرات الآية أكثر انسجاما مع التفسير الأول، لأنَّ الظاهر من الآية هنا أنَّ عملا قد صدر ليس فيه ثواب، وهو مباح، لأنَّ الآية تقول: إنَّ هذا العمل لا يربو عند الله، وهذا يتناسب مع الرِّبا الحلال الذي ليس فيه وزر ولا ثواب، وليس شيئا يستوجب مقت الله وغضبه . . . وقد قلنا : إنَّ الروايات الإسلامية ناظرة إلى هذا المعنى))[1].

نقول إنَّ الاستدراج الذي تضمنته هذه الآية المباركة يمكن أن يأخذ بالمعنيين معاً من دون أن يكون هناك تعارض أيضاً؛ فإذا أخذنا بالرأي القائل بأنَّ المقصود هو (الرِّبا الحلال) فإنَّه قد ((قيل: المعني في الآية التزهيد في الربا، والترغيب في اعطاء الزكاة))[2] فحتى ولو كان حلالاً والذي يمارسه غير مأثوم إلاّ انّ هذه الآية المباركة تستدرج المتلقي إلى ترك الرِّبا والإنفاق في سبيل الله وإعطاء الواجبات المالية؛ فإذا كان المقصود هنا هو (الرِّبا الحلال) فإنّ الآية نصّت على أنّه لا ينمو عند الله تعالى بخلاف الزكاة؛ فالله تعالى يضاعف الأجر للذين يؤتونها بنيَّة خالصة لا يشوبها رياء أو طلب للمدح؛ وبهذه الطريقة غير المباشرة يستدرجهم الله تعالى في خطابه الكريم هذا إلى ترك (الرِّبا الحلال)، فإذا كان الرِّبا الحلال لا ينمو ولا يثاب عليه صاحبه فكيف الحال إذا كان هذا الرِّبا حراماً لا حلالاً؛ فهذه الآية المباركة وإن لم تذكر الرِّبا المحرّم إلاّ إنّها استدرجت المتلقي عن طريق الإشارة إلى ضرورة تركه.

أمَّا إذا أخذنا بالرأي الثاني الذي يقول بأنَّ المقصود منه هو الرِّبا المحرّم فإنَّ الآية تصرَّح لهم بأنَّه لا يربو ولا ينمو ولا يتضاعف عند الله تعالى لأنَّه حرام ويظهر من خلال المقابلة بينه وبين الزكاة المفروضة التي يؤديها المسلم عن طيب نفس وارتياح لأنّه بذلك يطيع الله تعالى وينفذ أوامره فالله تعالى يضاعف له الأجر والثواب في الآخرة وينّمي أمواله ويزيدها في الدنيا؛ ويعضد أنَّ المراد ههنا الرِّبا المحرم هو الآية السابقة على هذه الآية؛ إذ يقول الله تعالى فيها ((فَآتِ ذَا الْقُرْبى حَقَّهُ

(١) ـ الشيرازي: الأمثل:١٢/٥٤١-٥٤٣.

(٢) ـ الطوسي: التبيان:٨/٢٥٤.

وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ))[1]إذ نجد أنَّ في هذه الآية الكريمة ترغيباً وحثاً على مساعدة الفقراء من ذوي القربى والمساكين وأبناء السبيل؛ فـ ((لمَّا جرى الترغيب والأمر ببذل المال لذوي الحاجة وصلة الرحم وما في ذلك من الفلاح؛ أعقب بالتزهيد في ضرب آخر من إعطاء المال لا يرضى الله تعالى به وكان الرِّبا فاشياً في زمن الجاهلية وصدر الإسلام وخاصة في ثقيف وقريش؛ فلما أرشد الله المسلمين إلى مواساة أغنيائهم فقراءهم أتبع ذلك بتهيئة نفوسهم للكف عن المعاملة بالرِّبا للمقترضين منهم فإن المعاملة بالرِّبا تنافي المواساة لأن شأن المقترِض أنه ذو خلة وشأن المُقرِض أنَّه ذو جدة فمعاملته المقترض منه بالرِّبا افتراس لحاجته واستغلال لإضطراره وذلك لا يليق بالمؤمنين))[2] مطلقاً.

وبهذا ننتهي إلى القول بأنَّ الآية المباركة وإن اختلف المفسرون في بيان المقصود من الرِّبا فيها فهي قد تضمنت الاستدراج بشكل واضح لا يخفى على كل ذي لب .

ومن الآيات الأخرى التي تضمنت الاستدراج في تحريم الرِّبا إذ تحدّثت عمَّا حرّم الله تعالى على اليهود بسبب المعاصي التي ارتكبوها ومنها عملهم بالرِّبا وعدم الامتثال لأمر الله تعالى هي قوله تعالى:﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هادُوا حَرَّمْنا عَلَيْهِمْ طَيِّباتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيراً ❖ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوالَ النَّاسِ بِالْباطِلِ وَأَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً﴾[3]

فالله تعالى في هذه الآية المباركة ((أخبر انَّه حرَّم على اليهود الذين نقضوا ميثاقهم الذين واثقوا الله عليه، وكفروا بآياته، وقتلوا أنبياءه، وقالوا، البهتان على مريم وفعلوا ما فعلوا مما وصفه الله في كتابه طيبات من المأكل وغيرها، وكانت لهم حلالا، عقوبة لهم بظلمهم الذي أخبر الله عنه لأنَّهم لما فعلوا ما فعلوا، اقتضت المصلحة تحريم هذه الأشياء عليهم.... وقوله : (وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا) يعني على رؤوس أموالهم بتأخيرهم له عن محله إلى محل آخر وقد نهوا عنه يعني عن الرِّبا، وأكلهم أموال الناس بالباطل يعني بغير استحقاق، ولا استيجاب . وهو ما كانوا يأخذونه من الرُشا على الأحكام ، كما قال تعالى : ﴿وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4] ومنه ما كانوا يأخذونه من أثمان الكتب التي كانوا يكتبونها بأيديهم، ويقولون هذا من عند الله، وما أشبه ذلك من المآكل

---

[1] سورة الروم:٣٨.

[2] ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٣٢٤٩/١.

(٣) ـ سورة النساء:١٦٠-١٦١.

(٤) ـ سورة المائدة:٦٢.

الخسيسة الخبيثة، فعاقبهم الله تعالى على جميع ذلك بتحريم ما حرم عليهم من الطيبات))[1]، فالآية الكريمة تنصُّ على أنَّ ((الرِّبا محرمٌ عليهم كما حرم علينا وكانوا يتعاطونه))[2] فهم عصوا الله تعالى ولم يمتثلوا لأمره؛ فخطاب النصّ الكريم يثبت بأنَّ ((تشريع تحريم (الرِّبا) لم يقتصر على الإسلام وحده، بل كان محرما لدى الأقوام والديانات السابقة))[3]ف ((كان الربا محرماً عليهم كما هو محرَّم علينا))[4] وبهذا فإنَّ في الآية ((دليلاً على دلالة النهي على التحريم))[5] وقطعا ((أن النهي يدل على حرمة المنهي عنه وإلا لما توعد سبحانه على مخالفته))[6]، والذي يبدو من خلال نص الآية الكريمة أنَّه كان تهدف إلى استدراج المسلمين للقبول بتحريم الرِّبا الذي أكدّه الإسلام كما في اليهودية؛ وقد تحقق الاستدراج من خلال الكلام غير المباشر فتتحدّث الآية عمّا حلّ باليهود من عقاب بسبب ظلمهم وعصيانهم لله تعالى ولأنبيائهم ومن جملة تلك المعاصي التي كانوا يقترفونها هي (أَخْذِهِمُ الرِّبَوا)؛ فعلى الرغم من كونه محرّماً عليهم لكنّهم لم يكترثوا بهذا التحريم وتعدّوا حدود الله تعالى فاستحقوا العذاب الإلهي بتحريم الطيبات عليهم؛ وبهذه الطريقة استطاع خطاب الآية أن يهيئ المسلمين إلى تقبل تحريم الرِّبا من خلال أسلوب التذكير بقصص الأنبياء(عليهم السلام) وأقوامهم فكما أنّ اليهود لم يتركوا أكل الرِّبا بعد أن حرِّم عليهم فكان ذلك سبباً لعقابهم في الدنيا واستحقاقهم للعذاب الأليم في الآخرة؛ فيجب أخذ العبرة منهم وأن لا يقعوا فيما وقعوا فيه من العقاب والعذاب فيبتعدوا بذلك عن الرِّبا والتعامل به .

ومن الآيات الأخرى المباركات التي تضمنت الاستدراج إلى تحريم الرِّبا قوله جلَّ وعلا:﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ❖ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ ❖ وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[7]

فبعد أن ((ذكر الله تعالى أنَّ له عذاب من يشاء، والعفو عمن يشاء، وصل ذلك بالنهي عما لو فعلوه لاستحقوا عليه العقاب، وعذبوا عليه، وهو الرِّبا، والرِّبا المنهي عنه قال عطاء، ومجاهد:

---

(١) ـ الطوسي: التبيان:٣/٣٨٨، وينظر: الطبرسي: مجمع البيان:٣/٢٣٧-٢٣٨.

(٢) ـ النسفي: تفسير النسفي:١/٢٦١، وينظر: الشوكاني: فتح القدير: ١/٨١٠.

(٣) ـ الشيرازي: الأمثل:٣/٥٣٨.

(٤) البيضاوي: تفسير البيضاوي: ١/٢٧٩، أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢/٢٥٣.

(٥) ـ البيضاوي: تفسير البيضاوي: ١/٢٧٩، وينظر: أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢/٢٥٣ ،والآلوسي: روح المعاني:٦/١٤.

(٦) الآلوسي: روح المعاني:٦/١٤.

(٧) ـ سورة آل عمران:١٣٠-١٣٢.

هو ربا الجاهلية، وهو الزيادة على أصل المال بالتأخير عن الأجل الحال، ويدخل فيه كل زيادة محرَّمة في المعاملة من جهة المضاعفة، ووجه تحريم الرِّبا هو المصلحة التي علمها الله تعالى. وقيل فيه وجوه على وجه التقريب : منها للفصل بينه وبين البيع . ومنها - أنَّه مثال العدل يدعو إليه ويحض عليه . ومنها - أنَّه يدعو إلى مكارم الأخلاق بالاقراض وإنظار المعسر من غير زيادة، وهذا الوجه روي عن أبي عبد الله (ع) . وقوله : (أَضْعافاً مُضاعَفَةً) قيل في معناه ههنا قولان : أحدهما - للمضاعفة بالتأخير أجلا بعد أجل كلما أخر عن أجل إلى غيره زيد عليه زيادة على المال الثاني - (أَضْعافاً مُضاعَفَةً) أي يضاعفون في أموالكم))[1] فقد صرَّحت هذه الآية بالـ ((نهي عن الرِّبا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه))[2] فـ ((هذه الآية نزلت في ربا الجاهلية))[3] حيث كانوا يتعاملون بالرِّبا ويأكلون أموال الناس بالباطل ففي((الآية الحاضرة إشارة إلى (الرِّبا الفاحش) معبرة عن ذلك بقوله أضعافا مضاعفة، والمراد من (الرِّبا الفاحش) هو أن تكون الزيادة الربوية تصاعدية، بمعنى أن تضم الزيادة المفروضة أولا على رأس المال ثم يصبح المجموع موردا للرِّبا، بمعنى أنَّ الزيادة ثانيا تقاس بمجموع المبلغ (الذي هو عبارة عن رأس المال والزيادة المفروضة في المرة الأولى) ثم تضم الزيادة المفروضة ثانيا إلى ذلك المبلغ، وتفرض زيادة ثالثة بالنسبة إلى المجموع . وهكذا يصبح مجموع رأس المال والزيادة في كل مرة رأس مال جديد تضاف عليه زيادة جديدة بالنسبة، وبهذا يبلغ الدين أضعاف المبلغ الأصلي المدفوع إلى المديون حتى يستغرق كل ماله؛ ولهذا قال القرآن الكريم : (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً) ... وهذا هو السائد بعينه في عصرنا الحاضر ويفعله المرابون الكبار دون رحمة . ولا شك أنَّ مثل هذا الفعل يدر على أصحاب الأموال مبالغ ضخمة دون عناء، فلا يمكن الإرتداع عنه إلا بتقوى الله))[4] وبعد أن نهاهم القرآن الكريم عن التعامل بالرِّبا استدرجهم للقبول بحكمه من خلال ترغيبهم بالتقوى لأنّها سبب الفلاح فيقول عزَّ من قائل:﴿ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾

فالقرآن الكريم ((لَمَّا نهاهم عن أمر صعب عليهم فراقه وهو الرِّبا، أمر بتقوى الله إذ هي الحاملة على مخالفة ما تعوَده المرء مما نهى الشرع عنه، ثم ذكر أن التقوى سبب لرجاء الفلاح وهو الفوز، وأمر بها مطلقاً لا مقيداً بفعل الرِّبا؛ لأنَّه لما نهى عن الرِّبا كان المؤمنون أسرع شيء لطواعية الله تعالى، فلم يأت واتقوا الله في أكل الرِّبا؛ بل أمروا بالتقوى، لا بالنسبة إلى شيء خاص منعوه

(١) ـ الطوسي: التبيان:٢/٥٨٧، وينظر: الطبرسي: مجمع البيان:٢/٣٨٨.

(٢) ـ النسفي: تفسير النسفي:١/١٧٨، وينظر: الزمخشري: الكشاف:١/٤٦٣.

(٣) ـ ابن الجوزي: زاد المسير:٢/٢٨.

(٤) ـ الشيرازي: الأمثل:٢/٦٨٩-٦٩٠.

من جهة الشريعة))[1] ففي هذه الآية نجد أسلوب الترغيب واضحاً لما له من أثرٍ في نفس المتلقي فقد استدرجهم القرآن الكريم إلى ترك الرِّبا من خلال النهي عنه ثم الأمر بالتقوى بوصفها -أي التقوى- سبباً لفلاح الإنسان وتوفيقه في الدنيا والآخرة ؛ فترك الرِّبا يعدُّ من تقوى الله وبما أنَّ التقوى فيها صلاح العبد وسعادته فإنَّ المسلمين سيندفعون حينئذٍ لترك الرِّبا والابتعاد عنه ليكونوا من المتَّقين الفائزين في الدارين؛ ((ولكن هل يكفي الأمر بتقوى الله والترغيب في الفلاح في صورة ترك الرِّبا؟ أو لا بُدَّ من التلويح بالعذاب الأخروي للمرابين؟ ولهذا قال سبحانه في الآية الثانية : ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ فهذه الآية تأكيد لحكم التقوى الذي مر في الآية السابقة))[2] فهناك من الناس من لا يرتدع عن الحرام إلاَّ من خلال أسلوب الترهيب فالقرآن الكريم يأمرهم باتِّقاء النار التي تكون جزاءً للكافرين فـ ((المقصود من وصف النار بأنَّها أعدت للكافرين تعظيم الزجر؛ وذلك لأنَّ المؤمنين الذين خوطبوا باتقاء المعاصي إذا علموا بأنَّهم متّى فارقوا التقوى أدخلوا النار المعدة للكافرين، وقد تقرر في عقولهم عظم عقوبة الكفار، كان انزجارهم عن المعاصي أتم، وهذا بمنزلة أن يخوف الوالد ولده بأنَّك إن عصيتني أدخلتك دار السباع، ولا يدلُّ ذلك على أنَّ تلك الدار لا يدخلها غيرهم فكذا ههنا))[3] فيزرع في أنفسهم الخوف والرهبة من تلك النار ومن ثمة يتجنبون ما يكون سبباً لدخولهم فيها.

وفي هذا الخطاب أيضاً ((تهديد للمؤمنين، لئلا يستحلوا الرِّبا))[4] فيكون للتهديد أثر كبير في نفوسهم كما ((يوحي التعبير بـ (الكافرين) إنَّ أخذ الرِّبا لا يتفق أساسا مع روح الإيمان، ولهذا ينتظر المرابون ما ينتظر الكافرون من النار والعذاب، كما يستفاد من ذلك أنَّ النار أعدت أساسا للكافرين، وينال العصاة والمذنبون من هذه النار بقدر شباهتهم بالكفار، وتعاونهم معهم. ثم إنَّه سبحانه يمزج ذلك التهديد بشيء من التشجيع والترغيب للمطيعين والممتثلين لأوامره تعالى إذ يقول: (وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)))[5] فقوله:(((وَأَطِيعُوا اللهَ) في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه فلا يتكرر مع الأمر بالتقوى السابق (وَالرَّسُولَ) أي الذي شرَّع لكم الدين وبلغكم الرسالة فإنَّ طاعته طاعة الله تعالى (لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) أي لكي تنالوا رحمة الله تعالى أو راجين

(١) ـ أبو حيَّان الأندلسي: البحر المحيط:٣/٥٨.

(٢) ـ الشيرازي: الأمثل:٢/٦٩٠.

(٣) ـ الرازي: التفسير الكبير:٩/٣-٤.

(٤) ـ ابن الجوزي: زاد المسير:٢/٢٨.

(٥) ـ الشيرازي: الأمثل:٢/٦٩٠.

رحمته))[1] حيث شجعهم القرآن الكريم على الامتثال لأوامر الله تعالى ورسوله لينالوا الرحمة الإلهية وقد ((اتّبع الوعيد بالوعد ترهيباً عن المخالفة وترغيباً في الطاعة))[2] وعند التأمل في هذه الآيات الثلاثة نجد أنّها كانت تهدف إلى استدراج المتلقي إلى الاقتناع بحرمة الرِّبا وضرورة اجتنابه حيث إنّها حققت ذلك بالتدريج فقد ابتدأت بالنهي عنه بعد أن تهيأت النفوس لقبول النهي بعدما نزلت الآيات في سورة الروم التي تضمنت الإشارة إلى حرمته ثمّ انتقلت الآيات في سورة النساء إلى التصريح بذم اليهود لأكلهم الرِّبا وقد كان محرّماً عليهم وأمرتهم بتقوى الله لأنّها سبب لفلاحهم وفوزهم فرّغبهم بذلك في ترك الرِّبا؛ لأنّه من المحرَّمات وبذلك يكونوا من المتّقين الفائزين؛ ثمَّ كرر أمرهم بإتّقاء النار التي أعدّها الله تعالى لمعاقبة الكافرين فبذلك تحقق الاستدراج من خلال الترهيب، فالذي لا يترك الرِّبا يكون غير متّقياً وبذلك فهو يستحق عذاب الكافرين لأنّه عصى الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) وبعد هذا الترهيب جاءت الآية الثالثة لترّغبهم في طاعة الله تعالى التي تتمثّل في طاعة رسوله (صلى الله عليه وآله) من خلال ترك الرِّبا وعدم التعامل به لينالوا بذلك رحمة الله تعالى؛ فكانت هذه الآيات الثلاثة أشدّ في بيان حرمة الرِّبا وضرورة تركه حيث جمعت بين التحريم و بين أسلوبي الترهيب من خلال التهديد بالعذاب والترغيب.

ولقد جاء تحريم الرِّبا بصورته النهائية والقطعية في هذه الآيات السبع حيث يقول عزَّ من قائل:﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهى فَلَهُ ما سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ❖ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ❖ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ❖ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ❖ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾[3]

(١) ـ الآلوسي: روح المعاني:٥٦/٤.

(٢) ـ البيضاوي: تفسير البيضاوي:٩١/٢، وينظر: أبو السعود: تفسير أبي السعود:٨٥/٢، و الآلوسي: روح المعاني:٥٦/٤، والشيرازي: الأمثل:٦٩٠/٢.

(٣) ـ سورة البقرة:٢٧٥-٢٧٨

فقد مثلّت هذه الآيات المرحلة الأخيرة من الاستدراج في نطاق تحريم الرِّبا بعدما تهيأت النفوس شيئاً فشيئاً لسماع الحكم النهائي في الرِّبا؛ فالسابق من ((الآيات مسوقة لتأكيد حرمة الرِّبا والتشديد على المرابين وليست مسوقة للتشريع الابتدائي ... (حيث) يظهر أنَّ الرِّبا كان أمرا مرغوبا عنه من أوائل عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله) قبل الهجرة حتى تمَّ أمر النهي عنه في سورة آل عمران، ثم اشتدَّ أمره في سورة البقرة بهذه الآيات السبع التي يدلّ سياقها على تقدم نزول النهي عليها، ومن هنا يظهر: انَّ هذه الآيات إنَّما نزلت بعد سورة آل عمران، على أنَّ حرمة الرِّبا في مذهب اليهود على ما يذكره الله تعالى في قوله : ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾[1] ... ويشعر به قوله : - حكاية عنهم – ﴿لَيْسَ عَلَيْنا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾[2] ... مع تصديق القرآن لكتابهم وعدم نسخ ظاهر كانت تدلّ على حرمته في الإسلام، والآيات أعني آيات الرِّبا لا تخلو عن ارتباط بما قبلها من آيات الإنفاق في سبيل الله كما يشير إليه قوله تعالى في ضمنها: (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ)[3]، وقوله: (وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ)[4]، وكذا ما وقع من ذكره في سورة الروم وفي سورة آل عمران مقارناً لذكر الإنفاق والصدقة والحثّ عليه والترغيب فيه، على أنَّ الاعتبار أيضا يساعد الارتباط بينهما بالتضاد والمقابلة، فإنَّ الرِّبا أخذ بلا عوض كما أنَّ الصدقة إعطاء بلا عوض، والآثار السيئة المترتبة على الرِّبا تقابل الآثار الحسنة المترتبة على الصدقة وتحاذيها على الكلية من غير تخلف واستثناء، فكلٌ مفسدة منه يحاذيها خلافها من المصلحة منها لنشر الرحمة والمحبة، وإقامة أصلاب المساكين والمحتاجين، ونماء المال، وانتظام الأمر واستقرار النظام والأمن في الصدقة وخلاف ذلك في الرِّبا، وقد شدَّد الله سبحانه في هذه الآيات في أمر الرِّبا بما لم يشدد بمثله في شيء ... أمَّا سائر الكبائر فإنَّ القرآن وإن أعلن مخالفتها وشدَّد القول فيها فإنَّ لحن القول في تحريمها دون ما في هذين الأمرين، حتى الزِّنا وشرب الخمر والقمار والظلم، وما هو أعظم منها كقتل النفس التي حرم الله والفساد، فجميع ذلك دون الرِّبا وتولي أعداء الدين، وليس ذلك إلاَّ لأنَّ تلك المعاصي لا تتعدى الفرد أو الأفراد في بسط آثارها ... ولا تسري إلا إلى بعض جهات

---

[1] ـ سورة النساء:١٦١.

[2] ـ سورة آل عمران:٧٥.

[3] سورة البقرة: ٢٧٦.

[4] سورة البقرة: ٢٨٠.

النفوس، ولا تحكم إلا في الأعمال والأفعال بخلاف هاتين المعصيتين فإنَ لهما من سوء التأثير ما ينهدم به بنيان الدين ويعفى أثره، ويفسد به نظام حياة النوع، ويضرب الستر على الفطرة الإنسانية ويسقط حكمها فيصير نسيا منسيا))[1].

فقد ابتدأت هذه الآيات بوصف حال المرابي وأثر الرِّبا فيه استدراجاً منها للمتلقي لتقبُّل تحريمه فهي لم تبدأ بالتشديد بتحريمه مباشرة؛ بل قدَّمت هذا الوصف ليكون دافعاً للمتلقي للابتعاد عن التعامل بالرِّبا لما له من عاقبة سيئة حيث يقول تعالى واصفاً حالهم: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطانُ مِنَ الْمَسِّ)؛ أي ((أنهم يقومون يوم القيامة مخبلين كالمصروعين تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف؛ وقيل الذين يخرجون من الأجداث يوفضون إلا أكلة الرِّبا فإنَّهم ينهضون ويسقطون كالمصروعين، لأنَّهم أكلوا الرِّبا فأرباه الله في بطونهم حتى أثقلهم فلا يقدرون على الإيفاض))[2].

غير أنَّ الطباطبائي لا يتّفق مع هذا الرأي القائل بأنّ هذه الحال في الآخرة بل يرى انَّه يكون في الدنيا؛ فـ ((المراد بالقيام في قوله تعالى: (لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَما يَقُومُ)، هو الاستواء على الحياة والقيام بأمر المعيشة فإنَّه معنى من معاني القيام يعرفه أهل اللسان في استعمالاتهم، قال تعالى: ﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾[3] ... وقال تعالى: ﴿أَنْ تَقُومَ السَّماءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾[4] ... وأمَّا كون المراد به المعنى المقابل للقعود فمما لا يناسب المورد، ولا يستقيم عليه معنى الآية، وثانيا: إنَّ المراد بخبط الممسوس في قيامه ليس هو الحركات التي يظهر من الممسوس حال الصرع أو عقيب هذا الحال على ما يظهر من كلام المفسرين، فإنَّ ذلك لا يلائم الغرض المسوق لبيانه الكلام، وهو ما يعتقده المرابي من عدم الفرق بين البيع والرِّبا، وبناء عمله عليه، ومحصله أفعال اختيارية صادرة عن اعتقاد خابط ، وكم من فرق بينهما وبين الحركات الصادرة عن المصروع حال الصرع، فالمصير إلى ما ذكرناه من كون المراد قيام الربوي في حياته بأمر المعاش كقيام الممسوس الخابط في أمر الحياة))[5] ومن الممكن أن يؤخذ بهذين الرأيين معاً؛ فقد يحتمل أيضا أنَّ المعنى أنَّهم ((لا يقومون من المس الذي بهم بسبب أكل الرِّبا ... فيكون نهوضهم وسقوطهم كالمصروعين لا لإختلال

---

[1] ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٤٠٨-٤٠٩.

[2] ـ الزمخشري: الكشاف:١/٣٩٩، وينظر: الطبرسي: مجمع البيان:٢/٢٠٥.

(٣) ـ سورة الحديد:٢٥.

(٤) ـ سورة الروم:٢٥.

(٥) ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٤١١.

عقولهم ولكن لأن الله أربى في بطونهم ما أكلوه من الربا فأثقلهم))[1]، ((فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون تلك سيماهم يعرفون بها عند أهل الموقف))[2]، وكانوا لا يفرقون بين البيع والرِّبا فكانوا يقولون:((إنَّما البيع الذي لا ربا فيه، مثل البيع الذي فيه الرِّبا، قال ابن عباس: كان الرجل منهم إذا حلَّ دينه على غريمه، فطالبه به، قال المطلوب منه له: زدني في الأجل، وأزيدك في المال؛ فيتراضيان عليه، ويعملان به، فإذا قيل لهم: هذا ربا، قالوا: هما سواء، يعنون بذلك أنَّ الزيادة في الثمن حال البيع، والزيادة فيه بسبب الأجل عند محل الدين سواء؛ فذمهم الله به، وألحق الوعيد بهم، وخطَّأهم في ذلك بقوله: (وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبا) أي: أحلَّ الله البيع الذي لا ربا فيه، وحرم البيع الذي فيه الرِّبا، والفرق بينهما أن الزيادة في أحدهما لتأخير الدين، وفي الآخر لأجل البيع . وأيضا فإنَّ البيع بدل البدل، لأنَّ الثمن فيه بدل المثمن، والربا: زيادة من غير بدل للتأخير في الأجل، أو زيادة في الجنس))[3] وبعد هذا البيان الصريح الذي شدّد فيه القرآن الكريم في حرمة الرِّبا عقَّب بقوله تعالى: (فَمَنْ جاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ): أي((فمن بلغه وعظ من الله وزجر بالنهى عن الرِّبا (فَانْتَهى) فتبع النهي وامتنع (فَلَهُ ما سَلَفَ) فلا يؤاخذ بما مضى منه لأنَّه أخذ قبل نزول التحريم (وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ) يحكم في شأنه يوم القيامة وليس من أمره إليكم شيء فلا تطالبوه به))[4] فالقرآن الكريم إنَّما جاء بالأحكام للناس ليطبقوها في حياتهم والله تعالى لا يريد أن يشَّق عليهم في التكاليف؛ بل أراد أن ينَّظم حياتهم ويعالج الظواهر السلبية التي كانت شائعة لديهم؛ فعندما جاء هذا التحريم فإنّما يسري على الذين عاصروا نزوله لا على الذين ماتوا قبل مجيئه وكذلك يسري على الأجيال القادمة، حيث ((تقول الآية إنَّ من بلغته نصيحة الله بتحريم الرِّبا واتَّعظ فله الأرباح التي أخذها من قبل (أي أنَّ القانون ليس رجعيا) لأنَّ القوانين الرجعية تولد الكثير من المشاكل والإضطرابات في حياة الناس، ولذلك فإنَّ القوانين تنفذ عادة من تاريخ سَنها؛ وهذا لا يعني بالطبع أنَّ للمرابين أن يتقاضوا أكثر من رؤوس أموالهم من المدينين بعد نزول الآية؛ بل المقصود إباحة ما جنوه من أرباح قبل نزول الآية))[5] .

---

[1] البيضاوي: تفسير البيضاوي: ٥٧٤/١.

[2] ابو السعود: تفسير ابي السعود: ٢٦٦/١، وينظر: ابن الجوزي: زاد المسير: ٣٣٠/١.

[3] ـ الطبرسي: مجمع البيان:٢٠٦/٢-٢٠٧.

[4] ـ النسفي: تفسير النسفي:١٣٤/١، وينظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي:٥٧٥/٢، وعبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:١١٧.

(٥) ـ الشيرازي: الأمثل:٣٤١/٢.

ثمّ تمضي الآيات المباركة في طريق الاستدراج فبعد أن بيَّنت حكم من تعامل به قبل التحريم وأن لا شيء عليه وأمره راجعٌ إلى الله تعالى فتتوَّعد الذين يتعاملون به بعد تحريمه بالخلود في النار حيث يقول تعالى: (وَمَنْ عادَ فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ)فإنَّ ((معنى الآية ومن عاد لأكل الرِّبا بعد التحريم؛ وقال ما كان يقوله قبل مجيء الموعظة من أن البيع مثل الرِّبا (فَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) لأنَّ ذلك لا يصدر إلا من كافر؛ لأن مستحل الرِّبا كافر بالإجماع فلذلك توعده بعذاب الأبد والخلود والوعيد في الآية يتوجه إلى من أربى، وإن لم يأكله وإنَّما ذكر الله الذين يأكلون الرِّبا لأنها نزلت في قوم كانوا يأكلونه، فوصفهم بصفتهم وحكمها سائر في جميع من أربى))[1] ومن بعد هذا الوعيد الذي يزرع في نفس السامع الخوف من تعاطي الرِّبا لأنَّ ذلك سيكون سبباً لخلوده في النار ثمَّ يُبين القرآن الكريم ثمرته وما يتوقعه المرابي من زيادةٍ في ماله فيكشف له النصُّ المقدس حقيقة الأمر ليرتدع عنه لأنَّه سبب لخسارة الدنيا والآخرة؛ حيث يقول عزَّ وجلَّ: (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ) فقد ((أكدَّ سبحانه ما تقدَّم بقول (يمحق الله) أي: ينقص الله (الرِّبا) حالا بعد حال إلى أن يتلف المال كله؛ والنكتة في الآية أنَّ المرابي إنَّما يطلب بالرِّبا زيادة المال، ومانع الصدقة إنَّما يمنعها لطلب زيادة المال، فبيَّن الله سبحانه أنَّ الرِّبا سبب النقصان دون النماء، وأنَّ الصدقة سبب النماء دون النقصان (وَاللهُ لا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ)... ومعناه: والله يبغض كل كفَّار لنعمته باستحلال الرِّبا، منهمك في غوايته، متماد في إثمه بأكله؛ وإنَّما لم يقل كلّ كافر، لأنه إذا استحل الرِّبا صار كافرا، لأنه إذا كثر أكله للرِّبا مع الاستحلال، فقد ضمَّ كفرا إلى كفر؛ وإذا استحل الرِّبا، ولم يعقد عقد الرِّبا، لم يلحقه من المندمة ما يلحق من جمع بين الأمرين؛ فالجمع بين الأمرين يستدعي من غضب الله ما لا يستدعيه أحد الأمرين))[2] ، ونجد عند التأمل في قوله تعالى (يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا وَيُرْبِي الصَّدَقاتِ) أنَّ ثَمة صياغة خطابية بارعة في استدراج المتلقي إلى الإيمان بحرمة الرِّبا ووجوب الابتعاد عنه وتكمن روعة تلك الصياغة في المقابلة ما بين القيدين (الرِّبا) من جهة و(الصدقات) من جهة أخرى إذ نجد الله تعالى قد صاغ التعبير عن القيدين بدقة عالية البراعة؛ فنلحظ أنَّ لفظة الرِّبا قد وردت مفردة فالله سبحانه لم يقل (يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبوات) على حين نجد أنَّ لفظة (الصدقات) قد وردت جمعا محلى بـ (ال) مما يدل على العموم ولم تأتِ مفردةً فلم يقل سبحانه (وَيُرْبِي الصَّدَقة) والظاهر أنَّ ثمرة هذا التباين في الجمع والإفراد يعود إلى تحقيق سمة القناعة في استدراج المتلقي الى ضرورة اجتناب الرِّبا؛ ذلك

---

(١) ـ الطوسي: التبيان:٣٦٢/٢، وينظر: الزمخشري: الكشاف:٤٠٠/١.

(٢) الطبرسي: مجمع البيان:٢٠٨/٢-٢٠٩، وينظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي:٥٧٥/١، وأبو السعود: تفسير أبي السعود:٢٦٧/١، الشيرازي: الأمثل:٢٤٢/٢-٢٤٣.

بأنَّ الله تعالى قد ذكر مع (الرِّبا) فعل الإمحاق فقال (يمحق) والمحاق هو الذوبان والذبول والإنتهاء فيمحقه يعني ((ينقصه ويهلكه ويذهب ببركته))[1] وهذا الفعل يناسبه تماماً أن ترد لفظة (الرِّبا) مفردة دون جمع؛ على حين جاء بالفعل (يربي) مع (الصدقات) ومعنى (يربي) هو يُنمي أي أنَّ الله تعالى يزيدها و((يثمرها ويبارك فيها في الدنيا ويضاعف بها الأجر والثواب في العقبى))[2]؛ لهذا ناسب أن ترد لفظة (الصدقات) جمعا في هذا الموضع حتى تتناغم صفة التنمية والمباركة في الفعل (يربي) مع الكثرة في لفظة (الصدقات) جمعاً، فكان في هذا توجيه واضح من أنَّ الله تعالى بزيادة أجر صاحب الصدقات لذا عليه أن يجتهد في هذا الجانب ويُكثّف عمله في هذا النطاق حتّى يضاعف له الأجر بالحتمية؛ على حين أفاد الإفراد في لفظة (الرِّبا) توجيهاً دقيقاً إلى الامتناع من هذا العمل والدعوة إلى عدم الولوج إلى نطاق النقص البتة؛ لأنَّ صاحب الرِّبا في حيز الخسران - لا الربح- في الدنيا والآخرة، والظاهر أنَّ الله سبحانه قد انتقى الفعل (يربي) لملحظ دلالي دقيق هو إن لفظة (الرِّبا) في المعطى المعجمي لها تدلّ على الزيادة عموماً[3]؛ من هنا كان المتعامِل بالرِّبا يفهم أنَّ هذه العملية الاقتصادية تزيد من ماله ولهذا سمي الرِّبا بـ (الرِّبا) على وفق هذا الأساس، وبناءً على هذا الفهم السائد جاء سبحانه بالفعل (يربي) وقيَّده بـ (الصدقات) للدلالة على أنَّ الرِّبا ليس زيادة في المال ولا تنمية له؛ بل انَّ (الصدقات) هي التي تُنمي المال وتباركه وتزيد صاحبها الأجر في الدنيا والآخرة؛ لهذا أورد سبحانه الفعل (يمحق) وقيَّده بـ (الرِّبا) من أجل أنْ يكشف حقيقة تنصُّ على أنَّ (الربا) ليس زيادةً؛ بل هو محاق (نقصان)، ثم أورد الفعل (يربي) وقيَّده بـ (الصدقات) ليثبت أنَّ الزيادة في المال والأجر إنَّما تكمن في (الصدقات) لا في(الرِّبا)؛ فكأنَّه سبحانه أوضح حقيقة النقصان في (الرِّبا) مرتين مرةً بالفعل (يمحق) ومرةً ثانية بالفعل (يربي) الـمُقيَّد بالصدقات، فعُلِم بذلك أنَّ الرِّبا ليس زيادة ولا تنمية البتة، من هنا نلحظ أنَّ التعبير المقدس قد وظَّفَ معنى (الرِّبا) في هذا النص بعكس المعنى الموضوع له في المعجم وذلك من أجل أنْ يَقتنعَ الناسُ أنَّ هذه العملية التعاملية ليست بصحيحة وهي لا تؤول الى المتوقع منها دلالةً وعرفاً؛ بل هي خسران مبين واثم دائم[4].

ومن بعد ذلك جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَأَقامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فتمضي الآيات في طريق

---

[1] البغوي: تفسير البغوي: ٣٤٤/١، وينظر: الشوكاني: فتح القدير:٤٤٧/١.

[2] ـ م.ن: ٣٤٤/١، وينظر: الشوكاني: فتح القدير:٤٤٧/١،والبيضاوي: تفسير البيضاوي: ٥٧٥/١.

[3] ينظر: الفراهيدي: العين: ٢٨٣/٨ مادة (ربو).

[4] ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: الاطلاق والتقييد في النص القرآني: ١٠٨- ١٠٩.

الاستدراج من خلال المقابلة بين المؤمنين والمرابين ففي ((مقابل المرابين الآثمين الكافرين بأنعم الله هناك أناس من المؤمنين تركوا حب الذات، وأحيوا عواطفهم الفطرية، وارتبطوا بالله بإقامة الصلاة، وأسرعوا لمعونة المحتاجين بدفع الزكاة، وبذلك يحولون دون تراكم الثروة وظهور الاختلاف الطبقي المؤدي إلى الكثير من الجرائم، هؤلاء ثوابهم محفوظ عند الله ويرون نتائج أعمالهم في الدنيا والآخرة، ثم إنَّ هؤلاء لا يعرفون القلق والحزن، ولا يهددهم الخطر الذي يتوجه إلى المرابين من قبل ضحاياهم في المجتمع، وأخيرا فإنَّهم يعيشون في اطمئنان تام ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون))[1] ثم وجهت الآية التالية الخطاب للمؤمنين لتحكم في ما بقي لهم عند الناس من الربا فيقول عزَّ من قائل: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) حيث ((بين سبحانه حكم ما بقي من الرِّبا، فقال: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ) في أمر الرِّبا، وفي جميع ما نهاكم عنه (وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا) أي : واتركوا ما بقي من الرِّبا، فلا تأخذوه، واقتصروا على رؤوس أموالكم، وقوله : (إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) معناه : من كان مؤمنا فهذا حكمه، فأما من ليس بمؤمن، فإنَّه يكون حربا، وقيل: معناه إن كنتم مؤمنين بتحريم الرِّبا، مصدقين به، وبما فيه من المفسدة التي يعلمها الله))[2] .

ففي النصّ الكريم ((خطاب للمؤمنين وأمر لهم بتقوى الله وهو توطئة لما يتعقبه من الأمر بقوله وذروا ما بقي من الرِّبا، وهو يدل على أنَّه كان من المؤمنين في عهد نزول الآيات من يأخذ الرِّبا ، وله بقايا منه في ذمة الناس من الرِّبا فأمر بتركها))[3] فالقرآن الكريم لم يقل لهم مباشرة (ذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا) لأنَّ هذا الكلام الذي يخلوا من اللين قد يواجه بالرفض من المتعاملين بالرِّبا فبدأ الخطاب بندائهم بـ (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فيذكِّرهم بإيمانهم بالله تعالى والمؤمن لا بدَّ من أن يكون مطيعاً لله تعالى في كل ما أمره به وإن كان ذلك يتعارض مع مصالحه فترك ما بقي من الرِّبا من لوازم الإيمان كما يؤكده آخر الآية بقوله تعالى(إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) أي: إن كنتم مؤمنين تتركوا بقية أموالكم طاعةً لله تعالى؛ وممَّا ((يلاحظ أنَّ الآية بدأت بذكر الإيمان بالله واختتمت بذكره، مما يدل بوضوح على عدم انسجام الرِّبا مع الإيمان بالله))[4]وبهذا الأسلوب الهادئ الذي يتّخذ من الإقناع وسيلة لاستدراج المتلقي إلى القبول بالحكم الشرعي قد تحقق في هذه الآية؛ ثمَّ جاء قوله تعالى:﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُؤُوسُ أَمْوالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ﴾

(١) ـ الشيرازي: الأمثل:٢/٢٤٣.

(٢) ـ الطبرسي: مجمع البيان:٢/٢١١، وينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:١١٧.

(٣) ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٤٢٢.

(٤) ـ الشيرازي: الأمثل:٢/٣٤٦.

فالآية تقول:(((فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا) أي ما أمرتم به من الاتقاء وترك البقايا إما مع إنكار حرمته وأمَّا مع الاعتراف بها (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ)))[1] فـ ((تتغير في هذه الآية لهجة السياق القرآني، فبعد أن كانت الآيات السابقة تنصح وتعظ، تهاجم هذه الآية المرابين بكل شدة، وتنذرهم بلهجة صارمة أنَّهم إذا واصلوا عملهم الربوي ولم يستسلموا لأوامر الله في الحق والعدل واستمروا في امتصاص دماء الكادحين المحرومين فلا يسع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا أن يتوسل بالقوة لإيقافهم عند حدهم وإخضاعهم للحق، وهذا بمثابة إعلان الحرب عليهم؛ وهي الحرب التي تنطلق من قانون: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾[2]))[3] فإن لم يتركوا الرِّبا ((فإنَّهم محاربون لله ورسوله وهذا من أعظم ما يدل على شناعة الرِّبا حيث جعل المصر عليه محاربا لله ورسوله ثم قال (وإن تبتم) يعني من المعاملات الربوية (فلكم رؤوس أموالكم) (لا تَظْلِمُونَ) الناس بأخذ الرِّبا (وَلا تُظْلَمُونَ) ببخسكم رؤوس أموالكم فكل من تاب من الرِّبا فإن كانت معاملات سالفة فله ما سلف وأمره منظور فيه))[4].

ونلاحظ شدة الوعيد والترهيب في تنكيره سبحانه للفظة (حرب) ذلك بأنَّ ((تنكير حرب للتفخيم ... أي بنوع من الحرب عظيم لا يقادر قدره كائن من عند الله ورسوله روى أنَّه لما نزلت قالت ثقيف لابد لنا بحرب الله ورسوله))[5] فالتهديد بحرب عظيمة من الله ورسوله لا يعلم حقيقتها لابد من يكون له أبلغ الأثر في نفوسهم ليرتدعوا عن الربا ويتركوه، فكما أنَّ الآيات السابقة استدرجت المتلقي من خلال أسلوب الإرشاد والنصح والترغيب نجد أنَّ هذه الآية قد تحقق الاستدراج فيها من خلال أسلوب الترهيب؛ فما أعظمه من تهديد بأنَّ الإنسان إن لم يترك الرِّبا فإنَّه بذلك أصبح محارباً لله ورسوله؛ وكيف للإنسان أن يواجه هذه الحرب التي لا يعلم حقيقتها؛ فالإنسان إذا حدثت خصومه بينه وبين قوم أصحاب قوة وبأس وهو لا يمتلك ما يمتلكون فتراه يكون خائفاً ومذعوراً ومستعداً لفعل كل ما يريده هؤلاء من أجل أن يحفظ سلامته؛ فكيف به إذا كان الذي يحاربه الله تعالى ورسوله؛ فهو يحارب رب العالمين وخالق كل شيء الذي بيده كل شيء ولا يعجزه شيء؛ فمن الطبيعي حينئذٍ يترك الإنسان الرِّبا إن لم يكن رغبةً في طاعة الله تعالى ورسوله فخوفاً من الحرب الإلهية التي لا طاقة للإنسان بمواجهتها.

---

(١) ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢٦٧/١.

(٢) ـ سورة الحجرات:٩.

(٣) ـ الشيرازي: الأمثل:٣٤٦/٢.

(٤) ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:١١٧.

(٥) ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:٢٦٧/١.

ومن خلال الآيات التي نزلت في الرِّبا نجد أنَّ الاستدراج الذي يهدف إلى تحريمه كان يعتمد جملة من الأساليب والمنظومات الخطابية التي من شأنها أن تنّفر الناس منه وتبعدهم عنه، وتجعلهم مستعدين لإمتثال الأمر الإلهي، وقد كانت على النحو الآتي:

١. اتّبع القرآن الكريم في ابتداء تحريم الرِّبا أسلوب النصح والتوجيه، فالمال الذي يعطونه من أجل أن يزيد من دون أن يكون العطاء لوجه الله تعالى فإنَّه لا ينمو ولا يزيد، بخلاف الزكاة التي تكون النية فيها خالصة لوجه الله تعالى فهي تجلب البركة وزيادة الأموال .
٢. الإشارة في المرحلة الثانية من التحريم إلى حرمته من خلال ذمه لليهود لأنَّهم كانوا يتعاطونه على الرغم من كونه محرَّماً عليه، وهذا يدل على كونه محرّماً على المسلمين ضمناً .
٣. انتقل القرآن الكريم في المرحلة الثالثة إلى التحريم الصريح عن أكل الرِّبا بشكل مضاعف، وأمرهم بتجنب النار التي يدخلونها بسببه فهم بعملهم هذا يستحقون العذاب الذي أعدّ للكافرين ترهيباً لهم، ثم تبع ذلك الأمر بطاعة الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله) في ترك الرِّبا لأنها سبب الرحمة .

وفي المرحلة الأخيرة قدّمت الآيات وصفاً لحال المرابي حيث شبهته بالمجنون الذي يتخبط في تصرفاته، وصرَّحت بتحريم الرِّبا بكل أشكاله، ثم اتِّباع حيثية المقابلة بين صياغة الرِّبا على الافراد وصياغة الصدقات على الجمع، ثم التهديد لمن عاد للتعامل به بالخلود في النار ونقصان المال وتلفه، وكون المرابي مبغوضاً عند الله تعالى لأنَّه مصرٌ على إنكار الحكم الشرعي وتعدي حدود الله تعالى، وإنَّه بإصراره على العمل بالرِّبا بعد تحريمه يعد محارباً لله ولرسوله واستعمال أسلوب الترهيب والتهديد بتنكير لفظة (حرب) في قوله تعالى: (فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ) إذ ورد تنكير الحرب لزرع الخوف والذعر في نفوس المرابين ومن ثَمَّ قيدها سبحانه بنفسه وبالرسول(صلى الله عليه وآله وسلم)، في قوله (بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ) فكانت الحرب أعظم بحكم الجهة التي يحاربها المرابي فالحرب محسومة النتيجة بالمحصلة لا محالة.

المبحث الثالث: الاستدراج في نطاق وجوب الصوم:

إنَّ المعنى اللغوي لـ(الصوم) مأخوذة من الجذر الثلاثي (صَوَمَ) اذ ورد في كتاب (العين) عن الخليل (ت١٧٠هـ) إنَّ: ((الصَّوْمُ: تَرْك الأَكْلِ وتَرْكُ الكلام وقوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾[١]أي صَمتاً))[٢]؛ بهذا نلحظ أنَّ الصوم في اللغة يقترب كثيراً من معناه الاصطلاحي فهو يعني الامتناع من الأكل والشرب، وقد يدلُّ على الصمت كما هو مدلول المفردة في الآية الكريمة، وقد يُراد به معنى السكون وعدم الحركة كما في قول الخليل: ((وصامَتِ الرِّيحُ إذا رَكَدَت))[٣] ثُمَّ يُعقِّب قائلاً: ((ويقال: رجل صَومٌ ورجلانِ صَوْمٌ وامرأةٌ صوْمٌ ولا يُثَنَّى ولا يُجمَع لأنّه نعت بالمصدر وتلخيصه: رجل ذو صَوم وامرأة ذات صَوم ورجلٌ صَوّامٌ قَوّامٌ إذا كان يصومُ النهارَ ويقومُ اللَيْلَ ورجالٌ ونِساءٌ صُوَّمٌ وصُيَّم وصُوّام وصُيّام كل ذلك يقال))[٤]؛ من هنا نقف على أنَّ معنى الصوم في اللغة هو الامتناع من الأكل، والصمت عن الكلام، والسكون عن الحركة[٥].

أمَّا الجوهري (ت٣٩٣هـ) فهو يتَّفق مع الخليل في أنَّ الدلالة اللغوية للصوم هي الامتناع عن الطعام وقد يدل على السكون أيضاً؛ اذ يقول مقرراً هذا المعنى تسالمًا مع الخليل:((الصوم: الإمساك عن الطعم. وقد صام الرجل صوما وصياما ... وصام الفرس صوما، أي قام على غير اعتلاف... والصوم: ركود الريح))[٦] .

أمَّا ابن منظور(ت٧١١هـ) فهو يوافق الفراهيديَّ والجوهري فيما أفصحا عنه من معنى للصوم؛ بَيدَ انَّه زاد عليهما في بيان بعض المعاني التي لم يذكراها؛ إذ يقول: ((الصَّوْم: تَرْكُ الطعام والشَّرابِ والنِّكاحِ والكلامِ صامَ صُوم صَوْماً وصِياماً واصْطامَ ورجل صائمٌ وصَوْمٌ من قومٍ صُوَّمٍ

---

[١]- سورة مريم: ٢٦.

[٢]- الفراهيدي: العين:١٧١/٧،مادة(صوم)، وينظر: الرازي: مختار الصحاح:٣٧٥، مادة(صوم).

[٣] - م.ن: ١٧١/٧، مادة(صوم)، وينظر: الرازي: مختار الصحاح:٣٧٥، مادة(صوم).

[٤]- الفراهيدي: العين:١٧٢/٧، مادة(صوم).

٥- ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: قراءة دلالية في وجوب الصوم:٢-٣.

٦- الجوهري: الصحاح:١٩٧٠/٥، مادة(صوم).

وصُيّام ٍوصُوَّم ٍبالتشديد))[1]فنلحظ أنَّ ابن منظور في بيانه للمعطى اللغوي للصوم يقترب من التعريف الاصطلاحي له[2] .

ومن خلال ما تقدَّم يتَّضح أنَّ الصوم في اللغة يدلُّ على معانٍ ثلاثة هي: الامتناع عن الطعام، والصمت، والسكون وانعدام الحركة ومن خلال الربط بين هذه المعاني نجد أنَّه يدل على الإمساك أو الامتناع عن شيء مطلقاً.

أمّا التعريف الاصطلاحي للصوم فقد عرَّفه الجرجاني بقوله: ((عبارة عن إمساك مخصوص وهو الإمساك عن الأكل والشرب والجماع من الصبح إلى المغرب مع النِيّة))[3]ففي تعريفه هذا((نجده قد أوضح زمن الصوم وحدَّده من وقت اليوم بدقة وزاد على ذلك بذكره لشرط (النيَّة) في الصوم؛ ذلك بأنَّ النِيَّة أساس كل عمل يؤدَّى في الشريعة أو الحياة))[4] ونجد أنَّ الطوسي(ت٤٦٠هـ) قد عرَّفه أيضاً وأشار إلى طريقة الإمساك في حال الصيام ولم يغفل عنها حيث يقول: ((والصوم في الشرع: هو الإمساك عن أشياء مخصوصة على وجه مخصوص ممن هو على صفات مخصوصة في زمان مخصوص، ومن شرط انعقاده النِيَّة))[5] عند التأمل في هذا التعريف نجد أنَّ قوله (على وجه خصوص) يريد به صوم الجوارح وهو المعنى الحقيقي لمفهوم الصوم؛ فالإمساك لا يكون عن الأكل والشرب والنكاح فقط؛ بل يجري الإمساك على الجوارح أصالةً ومن ثم يسري الصبر على الغرائز تباعاً ولا خير فيمن صام غريزياً ولم يمسك نفسه عن فعل الذنب جوارحاً[6] وقد عرّفه أحد المعاصرين بقوله: ((هو التعبد لله تعالى بالإمساك بنِيَّة: عن الأكل، والشرب، وسائر

---

[1]ابن منظور: لسان العرب:٣٥٠/١٢، وينظر: ابن قتيبة: غريب الحديث:٢١٧/١.

٢- ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: قراءة دلالية في وجوب الصوم:٣.

[3]الجرجاني: التعريفات: ١٧٨.

٤- سيروان عبد الزهرة الجنابي: قراءة دلالية في وجوب الصوم:٥.

[5]الطوسي: التبيان: ١١٥/٢.

٦- ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: قراءة دلالية في وجوب الصوم:٥.

المفطرات، من طلوع الفجر الثاني إلى غروب الشمس، من شخص مخصوص، بشروط مخصوصة))[1].

ومن الواضح أنَّ هناك علاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي فكلاهما يدلان على الامتناع والترك، لكن في اللغة دلَّت المفردة على الامتناع عن شيء ما غير محدد، أمّا في الاصطلاح فقد حدد جهة الامتناع إذ يقع الامتناع على المفطرات التي حددتها الشريعة الإسلامية، فضلاً عن الامتناع عن المعاصي عموما فالصوم الأصل فيه هو صوم الجوارح فهو غاية الامتناع من الأكل والشرب أصالة.

وسند ذلك هو حديث الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) عن حقيقة الصوم إذ يقول ما نصه: ((الصوم جنةٌ آفات الدنيا وحجاب من عذاب الآخرة، فإذا صمت فانو بصومك كف النفس عن الشهوات، وقطع الهمة عن خطوات الشيطان والشياطين، وانزل نفسك منزلة المرضى لا تشتهى طعاماً ولا شراباً، وتوقع في كل لحظة شفاك من مرض الذنوب، وطهَّر باطنك من كل كذب وكدر وغفلة وظلمة يقطعك عن معنى الإخلاص لوجه الله تعالى))[2] فينبغي أن لا يكون نصيب الإنسان من الصوم هو الجوع والعطش فقط؛ بل لا بدَّ أن تنعكس آثار الصوم على تصرفات الإنسان وطريقة تعامله مع الناس .

وإنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ فريضة الصوم لها أهمية كبيرة في تهذيب المسلمين فهي تربِّي المسلم روحاً وجسداً، إذ تتجسد فيها الطاعة المطلقة لله تعالى والإخلاص له تعالى وحده حيث ((تأتي فريضة الصوم بعد فريضة الصلاة في ترسيخ ملكة التقوى في نفس المؤمن بحسب ما تقتضيه من كبحٍ لجماحها ومنع لها من تناول ما هي بحاجة ماسَّة له من الطعام والشراب والمعاشرة الخاصة المعهودة أو أصبح حاجة ملحة لها بسبب تعودها عليه وصعوبة تركها له، وعندما تنتصر النفس الإنسانية في معركة جهادها الأكبر على تلك الميول والحاجات والعادات والتقاليد نتيجة اعتصامها بحبل الله وامتثالها تكليفه خلال أيام شهر رمضان فهي تخرج من هذه المعركة منتصرة وقادرة على الاحتفاظ بهذا النصر بالاستمرار في كبح جماح هوى النفس الأمَّارة بالسوء في كل الشهور والأوقات ... لأنَّ

١ـ سعيد بن علي القحطاني: الصيام في الإسلام: ٨.

[2] المجلسي: بحار الأنوار:٢٥٤/٩٣، ومصباح الشريعة: المنسوب للإمام الصادق (ع): ١٣٥.□

الدافع لامتثال أمر الله سبحانه بالصوم والمانع من مخالفته وهو تقواه سبحانه وخوف عقابه مع رجاء ثوابه هو نفسه يبقى مع المكلَّف دافعاً ومانعاً بعد أن تترسخ ملكة التقوى في نفسه وتصبح جزءاً من كيانه وقد صرحَّ الله سبحانه في كتابه الكريم بأنَّ الغاية من تشريع فريضة الصوم هي التوصل إلى هذه الملكة الثابتة حيث قال سبحانه: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[1]))[2] فالغاية من إيجاب الصوم هو وصول المؤمن إلى مرتبة التقوى ((وبهذا يجمع رمضان الليل والنهار في قلب المؤمن أعياد، وعبادة، وشرف وامتثال من سلبية الحرمان والامتناع إلى إيجابية التلاوة والذكر، ثمَّ امتثال الأوامر، واجتناب النواهي: وهي الثمرة والغاية المحمودة لتشريع الصوم))[3] .

وقد أوجبه الله تعالى ((على كل مسلم بالغ، عاقل، قادر، مقيم، خالٍ من الموانع))[4]ولم يشرّع وجوب الصيام في بداية الدعوة الإسلامية لأنّه من التكاليف الصعبة لأنَّه يمنع الإنسان ممّا اعتاد عليه من حاجاته الأساسية في الحياة ذلك بأنَّ الأكل والشراب من متع الحياة بل هي أجمل متع الحياة التي لا يسع أي انسان أن يصبر عليها؛ وتأسيساً على هذا المنطلق تأخر فرض الصوم ولم يرد في مطلع الدعوة الاسلامية، إذ ((لَّما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشقّ الأمور وأصعبها، تأخر فرض صيام رمضان إلى وسط الإسلام بعد الهجرة لَّما توطَّنت النفوس على التوحيد، والصلاة، وأُلِفَت أوامر القرآن فنقلت إليه بالتدرج، وكان فرض صيام رمضان في السنة الثانية للهجرة، فتوفي رسول الله (صلى الله عليه (وآله) وسلم) وقد صام تسع رمضانات))[5].

وقد جاء تشريع الصيام في ثلاثة آيات متتاليات ليفصِّل القرآن الكريم الحكم فيه ويوضح حيثياته، حيث يقول تعالى:﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ❖ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ

---

[1]- سورة البقرة:١٨٣.

[2]- حسن طراد: من وحي الإسلام:٢/٣٤- ٣٥.

[3]- أحمد مصطفى سليمان: فقه الصيام:٨٦.

[4]- سعيد بن علي القحطاني: الصيام في الإسلام:٤٨.

[5]- م.ن:٥١.

تَعْلَمُونَ ❖ شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]

وعندما نعود إلى كتب التفسير نجد أنَّ كثيراً من المفسرين تحدثوا عن النسخ في هذه الآيات وأنَّ الصوم لم يفرض مباشرة بصيام شهر رمضان كله؛ بل كان هناك فرض لصيام بعض الأيام، ثمَّ التخيير بين الصوم وإعطاء الفدية ثم من بعد ذلك جاء الحكم بوجوب صوم شهر رمضان بكامله، وقد تحدّث الثعلبي(ت٤٢٧هـ) عن ذلك في تفسيره حيث يقول: ((اختلف العلماء في تأويل هذه الآية وحكمها: فقال قوم : كان ذلك أول ما فرض الصوم؛ وذلك أنَّ الله تعالى لما أنزل فرض صيام شهر رمضان على رسوله {صلى الله عليه(وآله) وسلم} وأمر أصحابه بذلك شقَّ عليهم، وكانوا قوما لم يتعودوا الصيام فخيرهم الله بين الصيام والإطعام؛ فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وافتدى بالطعام، ثم نسخ الله تعالى ذلك بقوله :(فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) ونزلت العزيمة في إيجاب الصوم ... وقال آخرون: بل هو خاص للشيخ الكبير والعجوز الكبيرة واللذين يطيقان الصوم ولمن يشقُّ عليهما رخص لهما: إن شاء أن يفطر مع القدرة ويطعما لكل يوم مسكينا، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) وثبت الرخصة للذين لا يطيقون... وقال الحسن: هذا في المريض كان إذا وقع عليه اسم المرض وإن كان يستطيع الصيام الخيار إن شاء صام، وإن شاء أفطر وأطعم حتى نسخ ذلك؛ فعلى هذه الأقاويل الآية منسوخة وهو (قول) أكثر الفقهاء المفسرين، وقال قوم: لم تنسخ هذه الآية ولا شيء منها، وإنَّما تأويل ذلك أو على الذين يطيقونه في حال شبابهم وفي حال صحتهم وقوتهم، ثم عجزوا عن الصوم فدية طعام مساكين ؛ لأنَّ للقوم كان رخص لهم في الإفطار وهم على الصوم (قادرون إذا اقتدروا، وآخرون أضمروا) في الآية وقالوا: هذه عبارة عن أول حالهم وجعلوا الآية محكمة))[2].

---

[1] ـ سورة البقرة:١٨٣-١٨٥.

[2] ـ الثعلبي:تفسيرالثعلبي:٢/٦٤-٦٥،وينظر:البغوي:تفسيرالبغوي:١/١٤٩-١٥٠،والطبرسي: جوامع الجامع:١/١٨٣-١٨٤، وأبو السعود: تفسير أبي السعود:١/١٩٩.

وفي مقابل ما ذكره الثعلبي وغيره من المفسرين نجد أنَّ الطباطبائي (ت١٤١٢هـ) يعارض هذه الآراء ويرى أنَّ هذه الآيات جاءت بوجوب الصوم ولكن بأسلوب يهيئ النفوس للقبول بالحكم الشرعي على الرغم من صعوبته وقد اتَّضح ذلك من خلال ملاحظة سياق الآيات المباركة، وهذا الرأي هو الذي ترَّجحه الباحثة لتجلِّي الاستدراج فيه، حيث يقول ما نصُّه: ((سياق الآيات الثلاث يدلُّ أولاً على أنَّها جميعا نازلة معاً فإنَّ قوله تعالى: (أَيَّاماً مَعْدُودات)، في أول الآية الثانية ظرف متعلق بقوله: (الصيام) في الآية الأولى، وقوله تعالى: (شَهْرُ رَمَضانَ)، في الآية الثالثة: إمَّا خبر لمبتدأ محذوف وهو الضمير الراجع إلى قوله (أَيَّاماً مَعْدُودات)، والتقدير: هي شهر رمضان؛ أو مبتدأ لخبر محذوف، والتقدير: شهر رمضان هو الذي كتب عليكم صيامه، أو هو بدل من الصيام في قوله : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ)، في الآية الأولى، وعلى أي تقدير هو بيان وإيضاح للأيام المعدودات التي كتب فيها الصيام؛ فالآيات الثلاث جميعا كلام واحد مسوق لغرض واحد وهو بيان فرض صوم شهر رمضان، وسياق الآيات يدلُّ ثانياً على أنَّ شطرا من الكلام الموضوع في هذه الآيات الثلاث بمنزله التوطئة والتمهيد بالنسبة إلى شطر آخر، أعني: أنَّ الآيتين الأوليين سرد الكلام فيهما ليكون كالمقدمة التي تساق لتسكين طيش النفوس والحصول على اطمينانها واستقرارها عن القلق والاضطراب، إذا كان غرض المتكلم بيان ما لا يؤمن فيه التخلف والتأبي عن القبول، لكون ما يأتي من الحكم أو الخبر ثقيلا شاقا بطبعه على المخاطب، ولذلك ترى الآيتين الأوليين تألف فيهما الكلام من جمل لا يخلو واحدة منها عن هداية ذهن المخاطب إلى تشريع صوم رمضان بإرفاق وملائمة، بذكر ما يرتفع معه الاستيحاش والاضطراب، ويحصل به تطيب النفس، وتنكسر به سورة الجماح والاستكبار، بالإشارة إلى أنواع من التخفيف والتسهيل، روعيت في تشريع هذا الحكم مع ما فيه من الخير العاجل والآجل))[1] .

فكانت هذه الآيات المباركات تهدف إلى استدراج المسلمين شيئاً فشيئاً للقبول بوجوب الصوم على الرغم من أنَّ النفس الإنسانية لا تميل إليه لما فيه من المشقة ومجاهدة للنفس من أجل الكف عن محرمات الصيام التي هي حلٌّ لهم في حال الإفطار، ((ولذلك لما ذكر كتابة الصيام عليهم بقوله: (يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ) أردفه بقوله :(كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) أي لا ينبغي

[1] ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٤ـ٥.

لكم أن تستثقلوه وتستوحشوا من تشريعه في حقكم وكتابته عليكم فليس هذا الحكم بمقصور عليكم؛ بل هو حكم مجعول في حق الأمم السابقة عليكم ولستم أنتم متفردين فيه، على أنَّ في العمل بهذا الحكم رجاء ما تبتغون وتطلبونه بإيمانكم وهو التقوى التي هي خير زاد لمن آمن بالله واليوم الآخر، وأنتم المؤمنون وهو قوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) ، على أنَّ هذا العمل الذي فيه رجاء التقوى لكم ولمن كان قبلكم لا يستوعب جميع أوقاتكم ولا أكثرها بل إنَّما هو في أيام قلائل معينة معدودة، وهو قوله تعالى: (أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ)، فإنَّ في تنكير(أياما) دلالة على التحقير، وفي التوصيف بالعدد إشهار بهوان الأمر كما في قوله تعالى:﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَراهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾[1]))[2] فنلحظ أنَّ الخطاب القرآني قد جاء متهاونا مع المخاطَب ليستميل نفسه الى تقبل هذه الفريضة، إذ قوله (أياماً) على سبيل التنكير يدلَّ على التحقير –كما ذكر الطباطبائي- وهذا يوحي للمتلقي بأنَّ هذه الأيام هي قليلة في حقيقة أمرها وليست كثيرة فليس الصيام يشمل السنة بأجمعها او جزءاً كبيرا منها بل هو مجموعة أيام يمكن أن تُعد، والذي ساعد على تهوين الأمر هو الوصف (معدودات) وقد تنبَّه على هذا الطباطبائي فكانت منه التفاتة رائعة ذلك بأنَّ وجود هذه الصفة ينقل المتلقي إلى نطاق التسهيل وعدم حمل الهم وتصور المشقة في الصوم، ذلك بأنَّ كل ما هو معدود إنَّما هو قليل وكل ما هو قليل لا بد من أن ينقضي سريعا، وعند التأمل في هذه الصفة نجد أنَّها جمعا، بَيدَ أنَّ هذا الجمع جاء على سبيل جمع القلة ليوحي للمتلقي بأنَّ أيام الصوم قليلة، إذ صيغ الجمع على هيأة جمع المؤنث السالم الذي يفيد القلة، ولم يرد هذا الجمع على أحد صيغ جمع الكثرة لأنَّ جمع الكثرة يثير القلق لدى المتلقي فيذهب بعامل الاقتناع لديه بأنَّ الصوم أيام قليلة، زيادة على هذا انَّنا لو عدنا لقراءة صيغة لفظة (أياما) الموصوف نفسه نجدها أيضا قد بُنيت على صيغة (أفعال) وهي من صيغ جمع القلة وبهذا يكون هناك تناغم دلالي ومضموني بين الصفة (معدودات) جمع القلة، وبين الموصوف المنكر (أياما) الذي هو جمع تكسير للقلة، وكل هذه الصياغات إنَّما تصب في حيز إقناع المتلقي أو المخاطب بأنَّ الصوم ما هو إلا أيام معدودات قليلة جدا لذا عليك أن تصبر لتستحصل التقوى بالمآل.

---

[1] ـ سورة يوسف:٢٠.

[2] الطباطبائي: الميزان:٥/٢.

فضلا عن هذا وذاك فقد راعى سبحانه من لا يستطيع الصوم من الناس بإتباع منطق الفدية فكان في هذا باب آخر من الاستدراج والتمهيد لقبول فريضة الصوم فمن لا يقوى عليها له أن يتفدّى منه، يقول الطباطبائي: ((على أنّا راعينا جانب من يشقّ عليه أصل الصيام كمن يطيق الصيام ، فعليه أن يبدله من فدية لا تشقه ولا يستثقلها، وهو طعام مسكين وهو قوله تعالى : (فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ) إلى قوله: (فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ) ... وإذا كان هذا العمل مشتملا على خيركم ومراعي فيه ما أمكن من التخفيف والتسهيل عليكم كان خيركم أن تأتوا به بالطوع والرغبة من غير كره وتثاقل وتثبط، فإنَّ من تطوع خيرا فهو خير له من أن يأتي به عن كره وهو قوله تعالى : (فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ) الخ، فالكلام الموضوع في الآيتين كما ترى توطئة وتمهيد لقوله تعالى في الآية الثالثة: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ)))[1].

تأسيساً عليه يكون ((قوله تعالى في الآية الأولى : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ) ، إخباراً عن تحقق الكتابة وليس بإنشاء للحكم كما في قوله تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ فِي الْقَتْلى﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْراً الْوَصِيَّةُ لِلْوالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾[3]، فإنَّ بين القصاص في القتلى والوصية للوالدين والأقربين وبين الصيام فرقا، وهو أن القصاص في القتلى أمر يوافق حس الانتقام الثائر في نفوس أولياء المقتولين ويلائم الشح الغريزي الذي في الطباع أن ترى القاتل حيا سالما يعيش ولا يعبأ بما جنى من القتل، وكذلك حسُّ الشفقة والرأفة بالرحم يدعو النفوس إلى الترحم على الوالدين والأقربين، وخاصة عند الموت والفراق الدائم ، فهذان أعني القصاص، والوصية حكمان مقبولان بالطبع عند الطباع، موافقان لما تقتضيها فلا يحتاج الإنباء عنها بإنشائها إلى تمهيد مقدمة وتوطئة بيان بخلاف حكم الصيام، فإنَّه يلازم حرمان النفوس من أعظم مشتهياتها ومعظم ما تميل إليها وهو الأكل والشرب ... ولذلك فهو ثقيل على الطبع، كريه عند النفس، يحتاج في توجيه حكمه إلى المخاطبين، وهم عامة الناس من المكلفين إلى تمهيد وتوطئة تطيب بها نفوسهم وتحنُّ بسببها إلى قبوله وأخذه طباعهم ، ولهذا السبب

---

[1]- الطباطبائي: الميزان:٦/٢.

[2]- سورة البقرة:١٧٨.

[3]- سورة البقرة:١٨٠.

كان قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصاصُ﴾[1]... وقوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾[2]، إنشاء للحكم من غير حاجة إلى تمهيد مقدمة بخلاف قوله: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ) فإنَّه إخبار عن الحكم وتمهيد لإنشائه بقوله: (فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ)، بمجموع ما في الآيتين من الفقرات السبع))[3].

وعند التأمل في الآية الكريمة يظهر أنَّ الله تعالى قد صاغها بحيثية غاية في الإبداع الإقناعي للمتلقي ليستدرجه إلى التسليم بوجوب الصوم إذ حينما ننظر الى الآية الكريمة ف((نجد أنَّها قد ابتدأت بعبارة (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فكانت توحي أصالة بأنَّ الآية تشريعية؛ إذ غالباً ما تبتدئ الآيات التي يريد سبحانه أن يشرِّع فيها أمراً أو يفرض فيها شيئاً ما على العباد بهذه العبارة)) [4] و((لَّما كانت هذه العبادة مقرونة بمعاناة وصبر على ترك اللذائذ المادية، وخاصة في فصل الصيف، فإنَّ الآية طرحت موضوع الصوم بأساليب متنوعة لتهيئ روح الإنسان لقبول هذا الحكم؛ تبتدئ الآية أولاً بأسلوب خطابي وتقول : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) وهو نداء يفتح شغاف القلب، ويرفع معنويات الإنسان، ويشحذ همته، وفيه لذة))[5] وينقل الثعلبي(ت٤٢٧هـ) عن الحسن ما يقوله عن حقيقة هذا النداء حيث يقول الثعلبي: ((قال الحسن : إذا سمعت الله تعالى يقول: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا) فادعُ لها سمعك فإنَّها لأمر يؤمر به أو لنهي تنهى عنه، وقال جعفر الصادق (رضي الله عنه): {لذة ما في النداء أزالت تعب العبادة والعناء}[6]))[7] فإنَّ القرآن الكريم يريد من الناس أن يقتنعوا بالحكم ويذعنوا له وذلك لا يكون إلاَّ من خلال اللين في الكلام ((وتكرير النداء لإظهار مزيد الاعتناء))[8]، ولا يقتصر الغرض على الاعتناء فقط فهو يسعى أيضاً ((لتذكيرهم بوصف فيهم وهو الإيمان، يجب عليهم إذا التفتوا إليه أن يقبلوا ما يواجههُم ربهم به من الحكم وإن كان

---

[1] ـ سورة البقرة:١٧٨.

[2] ـ سورة البقرة:١٨٠.

[3] ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٥ـ٦.

٤ ـ سيروان عبد الزهرة الجنابي: قراءة دلالية في وجوب الصوم:٧.

[5] ـ الشيرازي: الأمثل:١/٥١٨.

[6] ـ الراوندي: فقه القرآن:١/٧٢.

[7] ـ الثعلبي: تفسير الثعلبي:٢/٦١.

[8] ـ أبو السعود: تفسير أبي السعود:١/١٩٨.

على خلاف مشتهياتهم وعاداتهم))[1]، فكأنَّ القرآن الكريم يخاطب المسلمين بأنَّكم إن كنتم قد آمنتم بالله تعالى ورسوله(صلى الله عليه وآله) فإنَّ الإيمان ليس مجرّد إدِّعاء؛ بل لابدَّ لتحقيقه وتحققه من أن تسلَّموا لكل ما جاء به القرآن الكريم من واجبات وأحكام، من هنا تصدرت الآية بنداء المؤمنين، ذلك بأنَّ ((توجيه النداء ابتداءً للمؤمنين يعود إلى أنَّ المؤمنين هم أول من يبادر إلى العمل بما فرض الله سبحانه فكان المُلبِّي مذكور أولاً من باب الأولى؛ لأنَّ تلبيته للواجب محروزة ومضمونة بلا جدال فكان النداء - من هنا – تحفيزياً وتكريماً لأولئك المؤمنين لأنَّهم يهرعون لأداء المطلوب قبل غيرهم))[2] فهم الذي آمنوا بالله تعالى ورسوله(صلى الله عليه وآله) وكانوا يتسابقون في تنفيذ أحكام القرآن وتعاليمه، ((ثم تبيِّن الآية أنَّ الصوم فريضة كتبت أيضا على الأمم السابقة، ثم تبين الآية فلسفة الصوم وما يعود به على الإنسان من منافع، لتكون هذه العبادة محبوبة ملتصقة بالنفس))[3] فتعلن الآية المباركة وجوب الصوم، حيث يقول تعالى:(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) وعند الوقوف على جملة (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ) يتجلَّى لنا بـ ((أنَّ هذه الجملة وإن كانت إخبارية في مبناها غير أنَّها إنشائية في معناها فهي تدلُّ على الأمر الوجوبي لأنَّها بمعنى فعل الأمر (صوموا) إلاَّ انَّه سبحانه لم يأتِ بفعل الأمر صراحةً للتعبير عن هذا المعنى، والعلة في ذاك هي أنَّ الله تعالى قد صاغ كتابه العزيز بعبارة عالية الدقة رفيعة المستوى جليلة القدر وكان من تداعيات هذه الرفعة المعمارية في البناء الكلامي أن يمتاز النصّ القرآني بأدبيات خطابية وجماليات غاية في الروعة فالناظر في آيات القرآن الكريم لا يستطيع أن يعثر على آية واحد قد ذكر فيها سبحانه لفظة (صوموا) بفعل الأمر صراحة؛ بل يعبر عنه بالجملة الإخبارية (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ) دائماً؛ لأنَّ الصيام من الأمور الشاقة على الإنسان؛ إذ ليس من اليسير على المرء أن يمتنع من الأكل والشراب والنكاح مدة طويلة من اليوم؛ لانَّ الأكل والشرب متعتان من متع الحياة التي لا غنى للإنسان عنها البته هذا من جانب، ومن جانب آخر يُعدَّان من الأمور المهمة التي تمد الإنسان بالطاقة ليؤدي واجبات الحياة الشاقة، فالإنسان لا يقوى حتّى على التفكير في الكثير من الأحيان إذا كان خالي البطن ظمئ الجسم، من هنا آثر سبحانه أن يخاطب الناس بالجملة الفعلية

---

١ ـ الطباطبائي: الميزان:٦/٢.

٢ ـ سيروان عبد الزهرة الجنابي: قراءة دلالية في وجوب الصوم:١٠.

٣ ـ الشيرازي: الأمثل:٥١٨.

الماضية بدلاً من أن يخاطبهم مباشرة بفعل الأمر (صوموا) فيكون وقع الفعل عليهم أشد مما لو صيغ كما هو الآن في القرآن الكريم))[1] وفي هذا الخطاب تتجلى روعة الاستدراج فالقرآن الكريم لا يأمرهم مباشرة بالصيام؛ بل يختار الأساليب الكلامية المناسبة بعيداً عن الأمر المباشر، و((الكتابة معروفة المعنى ويكنى به عن الفرض والعزيمة والقضاء))[2] فقوله تعالى(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ) ((أي فرض وأوجب الصوم))[3] فهو فرض يجب عليكم أداءه في وقته، ثم يتلوه قوله تعالى: (كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) فالتشبيه ((عائد إلى أصل إيجاب الصوم، يعني هذه العبادة كانت مكتوبة واجبة على الأنبياء والأمم من لدن آدم إلى عهدكم، ما أخلى الله أمة من إيجابها عليهم لا يفرضها عليكم وحدكم وفائدة هذا الكلام أن الصوم عبادة شاقة، والشيء الشاق إذا عَمَّ سهل تحمله))[4] فالأمم السابقة كانت تصوم أيضاً بَيدَ أنَّ صوم تلك الأمم يغاير صومنا من حيث الخصوصية وإن اتَّفق معهم من حيث الماهية أو المفهوم (الامتناع)؛ فالصوم في الإسلام يعني الإمساك عن المأكل والمشرب والمحرمات منذ الفجر إلى أذان المغرب على حين أن صوم أهل الكتاب يباين صومنا؛ إذ يرى صاحب الميزان ((إنَّ الصوم المكتوب عليهم هو غير الصوم المكتوب علينا من حيث الوقت والخصوصيات والأوصاف، فالتنظير في الآية إنَّما هو من حيث أصل الصوم لا من حيث خصوصياته))[5] من هنا كان الصوم في الإسلام بهذه الخصوصية لم يكن عند أحد من قبل، أمَّا من حيث ماهية الصوم أي الإمساك فإنَّه موجود عند الأمم الأخرى وهذا ما أراده سبحانه بقوله (كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) ثم إنَّ وجود الكاف التشبيهية في هذه المقولة له سبحانه تدلّ على أنَّ الصوم أمر ثابت وقديم بقدم وجود الإنسان[6]وهذا الكلام ((فيه توكيد للحكم وترغيب في الفعل وتطييب على النفس))[7] فهذه العبادة واجبة عليكم ولا تشكُّوا في

---

١ ـ سيروان عبد الزهرة الجنابي: قراءة دلالية في وجوب الصوم:٧.

٢ ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٧.

٣ ـ البغوي: تفسير البغوي:١/١٤٨.

٤ ـ الرازي: التفسير الكبير:٥/٧٦، وينظر: أبو السعود: تفسير أبي السعود:١/١٩٨.

(٥) الطباطبائي: الميزان: ٢/٤.

٦ ـ ينظر: سيروان عبد الزهرة الجنابي: قراءة دلالية في وجوب الصوم:١٠-١١.

٧ ـ البيضاوي: تفسير البيضاوي:١/٤٦١.

قدرتكم على أدائها لصعوبتها فإنَّ الأنبياء(عليهم السلام) الذين سبقوا النبي محمد(صلى الله عليه وآله) قد أمروا أقوامهم بها وقد أدوها من قبلكم ولو لم تكن هذه العبادة تعود فائدتها على دينهم ودنياهم لما أمرهم الله تعالى بها فـ ((يخبر تعالى بما منَّ به على عباده بأنَّه فرض عليهم الصيام كما فرضه على الأمم السابقة لأنَّه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان وفيه تنشيط لهذه الأمة بأنَّه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم في تكميل الأعمال والمسارعة إلى صالح الخصال وأنه ليس من الأمور الثقيلة التي اختصّيتم بها))[1] فإنَّ الإنسان المؤمن إذا صام ونيته خالصة لله تعالى فلا يتخوَّف من الصيام لمشقته لأنَّه يرجو بتحمل ما فيه من صعوبة رضا الله تعالى والثواب الجزيل الذي أعدَّه للمطيعين من عباده.

ثمَّ بيّنت الآية المباركة الهدف من الصيام بقوله تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) فتصبحوا من المتَّقين ((بالصوم لأنَّ الصوم وصلة إلى التقوى لما فيه من قهر النفس وكسر الشهوات))[2]ويعدُّ ((من أكبر أسباب التقوى لأنَّ فيه امتثال أمر الله واجتناب نهيه فمما اشتمل عليه من التقوى: أنَّ الصائم يترك ما حرم الله عليه من الأكل والشرب ... ونحوها التي تميل إليها نفسه متقربا بذلك إلى الله راجيا بتركها ثوابه فهذا من التقوى ومنها: أنَّ الصائم يدرب نفسه على مراقبة الله تعالى فيترك ما تهوى نفسه مع قدرته عليه لعلمه باطلاع الله عليه ومنها: أنَّ الصيام يضيق مجاري الشيطان فإنَّه يجري من ابن آدم مجرى الدم فبالصيام يضعف نفوذه وتقلُّ منه المعاصي ومنها: أنَّ الصائم في الغالب تكثر طاعته والطاعات من خصال التقوى ومنها: أنَّ الغني إذا ذاق ألم الجوع أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين وهذا من خصال التقوى))[3] فهم المستفيدون من الصيام لما فيه من خير الدنيا والآخرة، فالصيام يطهر النفس ويزيدها قرباً من خالقها، فـ ((كل إنسان يشعر بفطرته أن من أراد الاتصال بعالم الطهارة والرفعة، والارتقاء إلى مدرجة الكمال والروحانية فأول ما يلزمه أن يتنزه عن الاسترسال في استيفاء لذائذ الجسم وينقبض عن الجماح في شهوات البدن ويتقدَّس عن الإخلاد إلى الأرض، وبالجملة أن يتَّقي ما يبعده الاشتغال به عن الرب تبارك وتعالى فهذه تقوى

---

١ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسر الكريم الرحمن:٨٦.

٢ ـ البغوي: تفسير البغوي:١٤٩/١، وينظر: الرازي: التفسير الكبير:٧٧/٥، والبيضاوي: تفسير البيضاوي:٤٦١/١.

٣ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٨٦.

إنَّما تحصل بالصوم والكف عن الشهوات، وأقرب من ذلك وأمس لحال عموم الناس من أهل الدنيا وأهل الآخرة أن يتَّقي ما يعم به البلوى من المشتهيات المباحة كالأكل والشرب والمباشرة حتى يحصل له التدرب على اتقاء المحرمات واجتنابها))[1] فالصوم عبادة تقوي عزيمة الإنسان وإرادته فـ ((تتربى على ذلك إرادته في الكف عن المعاصي والتقرب إلى الله سبحانه، فإنَّ من أجاب داعي الله في المشتهيات المباحة وسمع وأطاع فهو في محارم الله ومعاصيه أسمع وأطوع))[2] فيكون مستعداً لتحمل المشقة والعناء من أجل الفوز برضوان الله تعالى واستحقاق جنَّته في يوم القيامة.

من هنا يكون تعليلُ الصيامِ بتحقق التقوى استدراجاً المسلمين إلى الرغبة في الصوم وتحمل مشقته لأجل الوصول إلى التَّقوى التي يريدها الله تعالى لهم، ومن بعد هذا الترغيب في الصيام جاء قوله تعالى: ﴿ أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فالآية المباركة تقول: ((كتب عليكم أن تصوموا اياماً (معدودات) موقتات بعدد معلوم أي قلائل))[3] فهي ((تتجه أيضا إلى التخفيف من تعب الصوم ... فالفريضة لا تحتل إلا مساحة صغيرة من أيام السنة))[4]فالله رؤوف بعباده جعل صيامكم محدد بأيام قليلة تقدرون على الصيام فيها، و((أنَّ المراد بهذه الأيام المعدودات : شهر رمضان قالوا، وتقريره أنه تعالى قال أولا: (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيامُ) ... وهذا محتمل ليوم ويومين وأيام ثم بينه بقوله تعالى: (أَيَّاماً مَعْدُوداتٍ) فزال بعض الاحتمال ثم بينه بقوله: (شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) ... فعلى هذا الترتيب يمكن جعل الأيام المعدودات بعينها شهر رمضان وإذا أمكن ذلك فلا وجه لحمله على غيره وإثبات النسخ فيه، لأنَّ كل ذلك زيادة لا يدل اللفظ عليها فلا يجوز القول به))[5] فالآيات تريد أن تشعر المسلمين بأنَّ هذه الفريضة ليس من المستحيل أداؤها؛ بل هم قادرون على أدائها كما أدَّاها

---

[1] ـ الطباطبائي: الميزان:٨/٢.

[2] ـ م . ن:٨/٢.

[3] ـ النسفي: تفسير النسفي:٨٩/١، وينظر: البيضاوي: تفسير البيضاوي:٤٦١/١، وأبو السعود: تفسير أبي السعود:١٩٨/١.

[4] ـ الشيرازي: الأمثل:٥١٨/١.

[5] ـ الرازي: التفسير الكبير:٧٨/٥.

المؤمنون والأنبياء(عليهم السلام) من قبلهم وإن كان هناك اختلاف فيما بينهما، فالآيات المباركات كانت تشجع المسلمين وتّرغّبهم في الصيام لأنّهم لم يألفوا هذه العبادة فتحقق الاستدراج من خلال الترغيب والتشجيع الذي تضمنته .

وبعد كل ما تقدم من طمأنة المسلمين وتسهيل أمر الصوم عليهم من كونه محدود بأيام معينة يبيّن الله تعالى لهم بأنّه يراعي في هذا التكليف من ظروف قد تسلب الإنسان القدرة على الصيام فيقول تعالى: (((وَمَنْ كانَ مَرِيضاً) فلم يقدر على الصوم (أَوْ عَلى سَفَرٍ) فلم يصم في سفره (فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) أي فعليه أن يقضيها بعد مضي الشهر مثل عدد الأيام التي فاتته))[1] وفي هذا ((دلالة على أنَّ المسافر والمريض مكتوب عليهما الإفطار وأن يصوما أياما أخر، وفي الحديث : ((الصائم في السفر كالمفطر في الحضر))[2]))[3] وبعد أن رفعت الآية التكليف بوجوب الصوم في شهر رمضان للمرضى والمسافرين وأوجبت عليهم القضاء في أيام أخرى من السنة تسهيلاً عليهم ((تصدر الآية عفوا عن الطاعنين في السن، وعن المرضى الذين لا يرجى شفاؤهم، وترفع عنهم فريضة الصوم ليدفعوا بدلها كفارة، فتقول: (وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعامُ مِسْكِينٍ)))[4] ((ثم يقول الآية (فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ) أي من تطوع للإطعام أكثر من ذلك فهو خير له. وأخيرا تبيّن الآية حقيقة هي: (وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ)))[5]، فصيام شهر رمضان فيه خيركم وصلاحكم (إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ) ((ما في الصوم من الفضيلة وبراءة الذمة ... وقيل: معناه إن كنتم من أهل العلم والتدبر علمتم أن الصوم خير لكم من ذلك))[6] فتنتهي الآية إلى نصحهم وبيان ما فيه صلاحهم وهو أنَّ الصوم إنّما أوجبه الله تعالى لأنّه يعود بالنفع عليهم لأنّه يهذّب النفوس ويزكيها.

---

١ ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:١٤٧/١، وينظر: النسفي: تفسير النسفي:٨٩/١، وعبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٨٦.

٢ ـ النسائي: السنن الكبرى/١٠٦/٢.

٣ ـ الطبرسي: مجمع البيان:١٨٣/١.

٤ ـ الشيرازي: الأمثل:٥١٨/١ ـ ٥١٩.

٥ ـ م.ن:٥١٩/١.

٦ ـ البيضاوي: تفسير البيضاوي:٤٦٣/١، وينظر: أبو السعود: تفسير أبي السعود:١٩٩/١.

ثم يحدد القرآن الكريم الشهر الذي أوجب فيه الصيام فيقول جلَّ وعلا: ﴿شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدىً لِلنَّاسِ وَبَيِّناتٍ مِنَ الْهُدى وَالْفُرْقانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]

فقوله تعالى : (((شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ) أي: الصوم المفروض عليكم هو شهر رمضان الشهر العظيم الذي قد حصل لكم فيه من الله الفضل العظيم وهو القرآن الكريم المشتمل على الهداية لمصالحكم الدينية والدنيوية وتبيين الحق بأوضح بيان والفرقان بين الحق والباطل والهدى والضلال وأهل السعادة وأهل الشقاوة فحقيق بشهر هذا فضله وهذا إحسان الله عليكم فيه أن يكون موسما للعباد مفروضا فيه الصيام فلما قرره وبيَّن فضيلته وحكمة الله تعالى في تخصيصه))[2] فكان الصيام شكراً لله تعالى على ما امتنَّ به عليهم ((فثبت أنَّ بين الصوم وبين نزول القرآن مناسبة عظيمة فلما كان هذا الشهر مختصاً بنزول القرآن، وجب أن يكون مختصا بالصوم))[3] ثمَّ بيَّنت الآية الذين يشملهم الحكم بوجوب الصوم فيقول عزَّ وجلَّ: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ) فالمقصود بـ (((شهد): أي حضر والشهود الحضور))[4] فإنَّ ((شهادة الشهر إنَّما هو ببلوغه والعلم به ... وأما كون المراد بشهود الشهر رؤية هلاله وكون الإنسان بالحضر مقابل السفر فلا دليل عليه إلا من طريق الملازمة في بعض الأوقات بحسب القرائن، ولا قرينة في الآية))[5] فمن علم بحلوله وجب عليه الصوم لكن ليس على الجميع؛ بل ((على القادر الصحيح الحاضر))[6] فالقرآن الكريم يسهل الأمر عليهم ويشجعهم على الصيام، ثمّ يذكر حكم المريض والمسافر اللذين سقط عنهما الصيام بقوله تعالى: (وَمَنْ كانَ مَرِيضاً أَوْ عَلى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ) فإنَّ ((إيراد هذه الجملة في الآية ثانيا ليس من قبيل التكرار للتأكيد ونحوه لما عرفت أنَّ

---

[1] ـ سورة البقرة:١٨٥.

٢ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٨٦.

٣ ـ الرازي: التفسير الكبير:٥/٩٢.

٤ ـ م . ن:٥/٩٢.

٥ ـ الطباطبائي: الميزان:٢/٢٤.

٦ ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٨٦.

الآيتين السابقتين مع ما تشتملان عليه مسوقتان للتوطئة والتمهيد دون بيان الحكم، وأنَّ الحكم هو الذي بين في الآية الثالثة فلا تكرار))[1] فكانت الآيات القرآنية تمضي في طريق استدراج المتلقي في موضوع فرض الصيام عليهم وإيجابه ثمَّ يقول تعالى (يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ) ((أي: يريد الله تعالى أن ييسر عليكم الطرق الموصلة إلى رضوانه أعظم تيسير ويسهلها أشدّ تسهيل؛ ولهذا كان جميع ما أمر الله به عباده في غاية السهولة في أصله وإذا حصلت بعض العوارض الموجبة لثقله سهله تسهيلا آخر؛ إمَّا بإسقاطه أو تخفيفه بأنواع التخفيفات وهذه جملة لا يمكن تفصيلها لأنَّ تفاصيلها جميع الشرعيات ويدخل فيها جميع الرخص والتخفيفات))[2] فإنَّ ((الصوم - وإن كان على الظاهر نوعا من التضييق والتحديد - مؤداه راحة الإنسان ونفعه على الصعيدين المادي والمعنوي ... ولعلَّ هذه العبارة إشارة إلى أنَّ الأوامر الإلهية ليست كأوامر الحاكم الظالم، ففي الصوم رخص حيثما كان فيه مشقة على الصائم؛ لذلك رفع تكليف الصوم - على أهميته - عن المريض والمسافر والضعيف)) [3] فالله تعالى في فرضه للصيام على المسلمين لم يجعله طوال السنة؛ بل حدّده بشهر واحد وهو شهر رمضان الذي شرَّفه الله تعالى بنزول القرآن الكريم فيه، ومع ما للصوم من فضل عظيم فقد رفع التكليف عن المرضى الذين يتأذون من الصوم وعن المسافرين أيضاً فكلّ هذه التسهيلات من شأنها أن تستدرج المتلقي إلى التسليم والصيام لما فيه من مصلحة كبيرة وفضل عظيم، ثم تقول الآية بعد ذلك: (وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ) فينصُّ القرآن الكريم على أنَّه ((يلزم على كل إنسان سليم أن يصوم شهرا، فذلك ضروري لتربية جسمه ونفسه؛ لذلك وجب على المريض والمسافر أن يقضي ما فاته من شهر رمضان ليكمل العدة))[4] فالمدة التي أراد الله تعالى للإنسان أن يصومها هي ثلاثون يوماً يكون فيها قريباً من الله تعالى، ثم يعقَّب بقوله تعالى: (وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلى ما هَداكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)؛ فالمراد ((لتعظموا الله على ما هداكم الشريعة وسننه وأمر دينه ... (وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) أي لتشكروا الله تعالى على هذه النعمة حيث

---

[1] - الطباطبائي: الميزان:٢/٢٤.

[2] - عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٨٦-٨٧.

[3] - الشيرازي: الأمثل:١/٥٢٠.

[4] - م. ن:١/٥٢٠.

رخص لكم الفطر في المرض والسفر))[1] فينبغي عليهم تعظيم الله وتمجيده على ما تفضَّل عليهم من النعم والفروض التي تحقق لهم خير الدنيا والآخرة .

من خلال ما تقدّم يتَّضح أنَّ الآيات التي ذكرت الصيام والتي تضمنت الاستدراج في نطاق فرضه على الناس أنّها كانت تعتمد جملة من الوسائل الخطابية التي كانت تهدف إلى إقناع المتلقي بوجوب الصوم والانقياد لأوامر الله تعالى واشتماله على فوائد عظيمة تطهر النفوس وتهذبها ؛ وكانت تلك الوسائل على النحو الآتي:

١. الإشارة إلى أنَّ الصوم كان مفروضاً على أمم الأنبياء السابقين(عليهم السلام) فإنَّ ذلك من شأنه أن يسهل الأمر عليهم إذا علموا بأنَّهم ليسوا الوحيدين الذين فرضت عليهم هذه العبادة الصعبة فإنَّ الصعب إذا عمَّ سَهُل، فضلاً عن ذلك فإنّ ذلك يعدُّ تشجيعاً لهم وشحذاً لهممهم لينافسوا الذين سبقوهم من قبل .
٢. الترغيب فيه من خلال جعل الغاية منه (التَّقوى) فلم يفرضه الله تعالى عليهم ليعاقبهم أو يشقَّ عليهم بل لتتكامل نفوسهم وتزكو من خلاله.
٣. استعمل النصُّ الكريم أسلوب التنكير في (معدودات) لتسهيل الأمر عليهم وأنَّ الصوم واجب عليهم في أيام قلائل، وتلك الأيام هي شهر رمضان الذي شرَّفه الله بنزول القرآن الكريم.
٤. إعفاء المرضى والمسافرين من وجوب الصيام في شهر رمضان وإيجاب القضاء للمريض أو الفدية للذي لا يقدر على القضاء، ووجوب القضاء على المسافر لتسهيل الأمر عليهم وعدم إثقال كواهلهم بالفروض والواجبات التي تنَّفرهم من الدين .

---

[1] ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:١٤٩/١، وينظر:الثعلبي: تفسير الثعلبي:٧٣/٢-٧٤، والبيضاوي: تفسير البيضاوي:٤٦٦/١.

المبحث الرابع: الاستدراج في نطاق عقوبة الزّنا:

من المظاهر السلوكية التي حرَّمها القرآن الكريم هي (الزّنا)؛ إذ يعدُّ من الفواحش التي نهت السماء عنها في كل الأديان السماوية وليس في النصّ القرآني فحسب؛ ولأهمية الانتهاء عن هذا الفعل القبيح وضرورة التشديد على الابتعاد عنه استعمل القرآن الكريم حيثية الاستدراج في عملية النهي عن هذا الفعل السلوكي النابي المتشعب الإساءات، حيث يقول تعالى ذكره في أول آية تتحدَّث عن الزّنا ﴿وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً ❖ وَاللذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَأَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[1]

فعند العودة إلى مدونات التفسير نجد أنَّ المفسرين قد تحدثوا عمّا تضمنته هاتان الآيتان من أحكام إذ يقول السمرقندي(ت٣٨٣هـ): (((وَاللاَّتِي يَأْتِينَ الْفاحِشَةَ مِنْ نِسائِكُمْ) يعني الزِّنى وهي المرأة الثيِّب إذا زنت (فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ) يعني اطلبوا عليهن (أَرْبَعَةً) من الشهود (مِنْكُمْ) يعني من أحرار المسلمين عدولا (فَإِنْ شَهِدُوا) عليهن بالزِّنى (فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ) يعني احبسوهن في السجن (حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ) يعني يمتن في السجن (أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) يعني محيصا ومخرجا من الحبس))[2] ولا يمكن التسليم بأنَّ المقصود بالحبس-في الآية الكريمة- هو السجن؛ بل لا، المبتغى هو البيوت ((فالحكم هو الحبس الدائم بقرينة الغاية المذكورة في الكلام أعني قوله (حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ) غير أنَّه لم يعبر عنه بالحبس والسجن بل بالإمساك لهنَّ في البيوت وهذا أيضا من واضح التسهيل والسماحة بالإغماض وقوله: (حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) أي طريقا إلى التخلص من الامساك الدائم والنجاة منه))[3] فمن خلال هذا الأسلوب اللّين يتحقق استدراجهم، فالنصّ لم يحكم بجلدهن من أول الأمر لأنَّ أسلوب التدرج في الأحكام يؤدي إلى تهيئة المتلقي للتسليم بالحكم النهائي وإن كان قاسياً، وقد تحدَّث الزمخشري(ت٥٣٨هـ) عن هذه

---

[1] ـ سورة النساء:١٥.

[2] ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:٣١٣/١-٣١٤، وينظر: الثعلبي: تفسير الثعلبي:٢٧١/٣-٢٧٢، وعبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن: ١٧١.

[3] ـ الطباطبائي: الميزان:٢٣٤/٤.

العقوبة وعن احتمال وقوع النسخ فيها؛ إذ يقول: ((وكان ذلك عقوبتهن في أول الإسلام ثم نسخ بقوله تعالى - الزانية والزاني- الآية، ويجوز أن تكون غير منسوخة بأن يترك ذكر الحد لكونه معلوما بالكتاب والسنة، ويوصى بإمساكهن في البيوت بعد أن يحددن صيانة لهن عن مثل ما جرى عليهن بسبب الخروج من البيوت والتعرض للرجال (أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) هو النكاح الذي يستغنين به عن السفاح، وقيل السبيل هو الحد لأنَّه لم يكن مشروعا ذلك الوقت))[1] غير أنَّ السمرقندي يؤكد نسخ آية الحبس للزانية بآية الجلد في النصِّ القرآني والرجم بالسنَّة للذين يقترفونها كلٌّ بحسبه؛ فيقول: ((ثم نسخ فصار حدهنَّ الرجم لما روي عن عبادة بن الصامت أنَّ النبيّ (صلى الله عليه(وآله) وسلم) قال: ((خذوا عني قد جعل لهنَّ سبيلا الثيب بالثيب والبكر بالبكر والثيب جلد مائة ثم رجم بالحجارة والبكر جلد مائة ثم نفي سنة))[2]))[3] .

بَيدَ أنَّ الشيرازي يرى بأنَّ الآية ليست بمنسوخة❖ وإنَّما هي حكم مؤقت سيتغير لاحقاً حيث يقول: ((لكنه تعالى أردف هذا الحكم بقوله: (أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) فإذن لابدَّ أن يستمر هذا الحبس في حقهنَّ إلى الأبد حتى يأتي أجلهن، أو يعيَّن لهن قانون جديد من جانب الله سبحانه، ويستفاد من هذه العبارة أنَّ هذا الحكم (أي الحبس الأبدي للمحصنة الزانية) حكم مؤقت، ولهذا ذكر من بداية الأمر أنَّه سوف ينزل في حقهن قانون جديد ، وحكم آخر في المستقبل (وبعد أن تتهيأ الظروف والأفكار لمثل ذلك) حينئذ سيتخلص النساء اللاتي شملهن ذلك الحكم (أي الحكم بالحبس أبدا) من ذلك السجن إذا كنَّ على قيد الحياة طبعا، ولا يشملهنَّ حكم جزائي آخر، وليس الخلاص من السجن إلاَّ بسبب إلغاء الحكم السابق، وأما عدم شمول الحكم الجديد لهنَّ فلأنَّ الحكم الجزائي لا يشمل الموارد التي سبقت مجيئه، وبهذا يكون الحكم والقانون الذي سيصدر في ما بعد - مهما كان - سببا لنجاة هذه السجينات، على أنَّ هذا الحكم الجديد يشمل حتما كل الذين

---

[1] ـ الزمخشري: الكشاف:٥١١/١، وينظر: الطبرسي: جوامع الجامع:٣٨٠/١-٣٨١.

[2] ـ النسائي: السنن الكبرى:٤/٥.

[3] ـ السمرقندي: تفسير السمرقندي:٣١٤/١.

❖ معنى النسخ الذي تسالم عليه العلماء هو((رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر))، السدوسي: الناسخ والمنسوخ:٦،وينظر: ابن الجوزي: نواسخ القرآن:٢٠،ومحمد باقر الحكيم: علوم القرآن:١٩٤.

سيرتكبون هذا المنكر في ما بعد))[1]، وقد نقدَ الشيرازي من قال بأنَّ السبيل الذي ذكرته الآية هو الرجم حيث يقول: ((وأمَّا ما احتمله البعض من أنَّ المراد من قوله تعالى: (أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) هو أنَّ الله سبحانه قد جعل الرجم للمحصنات الزانيات في ما بعد، وبذلك سيكون للسجينات سبيلا إلى النجاة والخلاص من عقوبة السجن، فهو احتمال مردود، لأنَّ لفظة (لَهُنَّ سَبِيلاً) لا تتلاءم أبدا مع مسألة الإعدام، فعبارة(لهنَّ) تعني ما يكون نافع لهن وليس الإعدام سبيلا لنجاتهنَّ، والحكم الذي قرره الله في الإسلام للمحصنات الزانيات في ما بعد هو الرجم (وقد ورد هذا الحكم في لسان السنة النبوية الشريفة أي الأحاديث قطعا، وإن لم ترد في القرآن الكريم أية إشارة إليها)؛ من كل ما قلناه اتَّضح أنَّ الآية الحاضرة لم تنسخ قط، لأنَّ النسخ إنَّما يكون في الأحكام التي ترد مطلقة من أول الأمر لا التي تذكر مؤقتة ومحدودة كذلك، والحكم المذكور في الآية الحاضرة (أي الحبس الأبدي) من القسم الثاني، أي أنَّه حكم مؤقت محدود، وما نجده في بعض الروايات من التصريح بأنَّ الآية الحاضرة قد نسخت بالأحكام التي وردت في عقوبة مرتكبي الفاحشة، فالمراد منه ليس هو النسخ المصطلح، لأنَّ النسخ في لسان الروايات والأخبار يطلق على كل تقييد وتخصيص... ثم لابدَّ من الالتفات إلى ناحية مهمة، وهي أنَّ الحكم بحبس هذا النوع من النساء في (البيوت) من صالحهنَّ من بعض الجهات، لأنَّه أفضل - بكثير - من سجنهن في السجون العامة المتعارفة، هذا مضافا إلى أنَّ التجربة قد دلت أنَّ للسجون والمعتقلات العامة أثرا سيئا وعميقا في إفساد المجتمع؛ إذ إنَّ هذه المراكز تتحول - شيئا فشيئا - إلى معاهد كبرى لتعليم شتى ألوان الجريمة والفساد بسبب أنَّ المجرمين سيتبادلون فيها - من خلال المعاشرة واللقاء وفي سعة من الوقت وفراغ من الشغل - تجاربهم في الجريمة))[2]، ولو حاولنا مقاربة نصّ الشيرازي في مسألة نفيه لوجود نسخ لآية الامساك بآية الجلد أو الرجم، فإنَّنا نقول إنَّ العلة التي دفعت الشيرازي إلى نفى مسألة وجود نسخ وإنَّ حكم الإمساك وقتي وإنَّ الحكم الأصل هو الجلد أو الرجم وانَّه لا نسخ بين الآيتين؛ هي أنَّه قيد نظرته إلى النصِّ بحال من يُمسَكنَّ في البيوت، فمن هذه الناحية نجد أنَّ حكم الإمساك معهن وقتي لأنَّه بنزول حكم الجلد للزانية أو الرجم للمحصنة الزانية يزول حكم الإمساك

---

[1] - الشيرازي: الأمثل:١٤٩/٣.

[2] - م.ن:١٤٩/٣-١٥٠.

عليهن وبهذا لا نسخ، ولكن لو تحرر الشيرازي من حال الممسوكات في البيوت ونظر إلى المسألة نظرة مطلقة لوجد أنَّ آية الجلد ناسخة لآية الإمساك من حيث أصل الموضوع الذي هو (الزِّنا) ذلك بأنَّ الحكم الأول كان يكمن في أنَّ التي تزني تمسك في البيت، أمَّا الآن فإنَّ حكمها أن تُجلَدَ؛ وبهذا اللحاظ يعدُّ حكم الإمساك منسوخاً بحكم الجلد من دون النظر إلى حال الممسوكة وقت نزول حكم الجلد وانَّها قد تحررت من إمساكها لهذا غدا حكمها وقتي، ويبدو أنَّ الذي تمسك به الشيرازي هو قوله تعالى (أَوْ يَجْعَلَ اللهُ لَهُنَّ سَبِيلاً) إذ أسس على لفظة السبيل أنَّ حكم الجلد ليس نسخا إنّما هو تحرير للممسوكات ولكنَّه في حقيقة الأمر من وجه آخر قد اُستُبدِلَ حكم الإمساك بحكم الجلد لمن تزني مجددا؛ وبهذا فهو نسخ من وجه من حيث النظر إلى موضوع الزِّنا وحدوثه بعد نزول النصّ وهو ليس بنسخ حيث نظرنا إلى حال الممسوكات في البيوت بعد نزول حكم الجلد، وفي كلتا الحالتين فإنَّ الآيتين لا تخرجان من قيد الاستدراج البتة.

ثم يضيف النصّ القرآني حكماً آخراً يضاف إلى الإمساك في البيوت فيقول تعالى:﴿وَاللَّذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ فَآذُوهُما فَإِنْ تابا وَأَصْلَحا فَأَعْرِضُوا عَنْهُما إِنَّ اللهَ كانَ تَوَّاباً رَحِيماً﴾[1]

حيث يقول الزمخشري(ت٥٣٨): (((وَاللذانِ يَأْتِيانِها مِنْكُمْ) يريد الزاني والزانية (فَآذُوهُما) فوبخوهما وذموهما وقولوا لهما أما استحييتما أما خفتما الله (فَإِنْ تابا وَأَصْلَحا) وغيرا الحال (فَأَعْرِضُوا عَنْهُما) واقطعوا التوبيخ والمذمة فإنَّ التوبة تمنع استحقاق الذم والعقاب، ويحتمل أن يكون خطابا للشهود العاثرين على سرهما، ويراد بالإيذاء ذمهما وتعنيفهما وتهديدهما بالرفع إلى الامام والحد، فإن تابا قبل الرفع إلى الامام فأعرضوا عنهما ولا تتعرضوا لهما))[2] .

فقد قررت الآيتان حكم هذه الفاحشة فقد ((كان الرجال إذا فعلوا الفاحشة يؤذون، والنساء يحبسهن ويؤذين؛ فالحبس غايته للموت، والأذية نهايتها إلى التوبة والإصلاح))[3] وقد تحدّث الرازي(ت٦٠٦هـ) عن السبب والحكمة في هذا الحكم الإلهي قائلا: ((ثمَّ إنَّه تعالى خصَّ

---

[1] ـ سورة النساء:١٥.

[2] ـ الزمخشري: الكشاف:٥١٣/١، وينظر: الطبرسي: جوامع الجامع: ٣٨١/١، وابن الجوزي: زاد المسير:٩٧/٢، والعز بن عبد السلام: تفسير العز بن عبد السلام السلمي الدمشقي:٣١٠.

[3] ـ عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:١٧١.

الحبس في البيت بالمرأة وخص الإيذاء بالرجل، والسبب فيه أنَّ المرأة إنَّما تقع في الزِّنا عند الخروج والبروز، فإذا حبست في البيت انقطعت مادة هذه المعصية، وأمَّا الرجل فإنَّه لا يمكن حبسه في البيت، لأنَّه يحتاج إلى الخروج في إصلاح معاشه وترتيب مهماته وإكتساب قوت عياله، فلا جرم جعلت عقوبة المرأة الزانية الحبس في البيت، وجعلت عقوبة الرجل الزاني أن يؤذى، فإذا تاب ترك إيذاؤه، ويحتمل أيضا أن يقال إنَّ الايذاء كان مشتركا بين الرجل والمرأة، والحبس كان من خواص المرأة، فإذا تابا أزيل الإيذاء عنهما وبقي الحبس على المرأة، وهذا أحسن الوجوه المذكورة))[1].

وهكذا فإنَّ القرآن الكريم كان يتدرج في بيان العقوبة من أجل أن يستدرجهم إلى القبول بها والعمل بمقتضاها، فقد ابتدأ الحكم بالإمساك والإيذاء وبعد أن تقبل المسلمون الحكم وسلَّموا له جاء الحكم النهائي في الوقت الذي يريده الله تعالى، فنزل قوله عزَّ وجل: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾[2]

فبيَّن القرآن الكريم ((حكم الزِّنا، فقال: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي) معناه: التي تزني، والذي يزني، أي: من زنى من النساء، ومن زنى من الرجال، فيفيد العموم في الجنس، (فَاجْلِدُوا كُلَّ واحِدٍ مِنْهُما مِائَةَ جَلْدَةٍ) يعني إذا كانا حرين بالغين بكرين غير محصنين، فأما إذا كانا محصنين❖، أو كان أحدهما محصنا، كان عليه الرجم بلا خلاف))[3] فبعد أن جاء الحكم بالإمساك في البيوت والإيذاء جاء الحكم بالجلد والرجم الذي بينته السنة الشريفة، فإنَّ هذا الحكم وإن كان قاسياً لكن يجب تنفيذه حيث ينهاهم القرآن الكريم عن التردد فيه فيقول (وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) يقول البيضاوي(ت٦٨٢هـ) في تفسيره لهذه الآية: (((وَلا تَأْخُذْكُمْ بِهِما رَأْفَةٌ) رحمة (فِي دِينِ اللهِ) في طاعته وإقامة حده فتعطلوه أن تسامحوا فيه ... (إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ) فإنَّ الإيمان يقتضي الجد في طاعة الله تعالى والاجتهاد في إقامة حدوده وأحكامه وهو

---

[1] ـ الرازي: التفسير الكبير:٩/٢٣٥.

[2] ـ سورة النور:٢.

❖((يقصد بالمحصن: الرجل الذي له زوجة تعيش معه، والمحصنة: هي المرأة المتزوجة التي يعيش زوجها معها))الشيرازي: الأمثل:١١/١٥.

[3] ـ الطبرسي: مجمع البيان:٧/٢١٩، وينظر: الطباطبائي: الميزان: ١٥/٧٨-٧٩.

من باب التهييج))[1] فيستميلهم لتنفيذه من خلال تذكيرهم بإيمانهم بالله تعالى وبالرسول الكريم (صلى الله عليه وآله) فإنَّ كلَّ ما جاء به القرآن الكريم إنَّما فيه خيرهم وصلاحهم فلا ينبغي أن تدفعهم العاطفة لتعطيل حدود الله تعالى ثمّ دعاهم إلى أن تتم هذه العقوبة على مرأى ومسمع من الناس حيث يقول: (وَلْيَشْهَدْ عَذابَهُما طائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) فإنَّ في ذلك ((زيادة في التنكيل فإنَّ التفضيح قد ينكل أكثر مما ينكل التعذيب والـ (طائفة) فرقة يمكن أن تكون حافة حول شيء من الطوف وأقلها ثلاثة وقيل واحد واثنان والمراد جمع يحصل به التشهير))[2] فيتَّعظ كل من تسول له نفسه القيام بهذه الفاحشة ويرتدع عن ذلك لأنَّه سيلاقي هذا العقاب المخزي في الدنيا ولا ينحصر ذلك بهذا العقاب؛ بل إنَّ الله تعالى سوف يعذب الزناة الذين يصرون على هذه الكبيرة في يوم القيامة .

وبعد أن بيَّن القرآن الكريم حكم الجلد وردت بعد ذلك آيات توثق حكم الرجم للزاني المتزوج والزانية المتزوجة وذلك بعد ثبات هذه الجريمة فإذا ما اتَّهم الزوج زوجته فإنَّ ثَمة طريقة لإثبات ذلك بينهما وقد كشف عنها النصُّ تحديدا ضمن سياق الآيات التي تحدث بها عن حكم الزِّنا عند المتزوجين إذ يقول سبحانه:

﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْواجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَداءُ إِلاَّ أَنْفُسُهُمْ فَشَهادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهاداتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ❖ وَالْخامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ❖ وَيَدْرَؤُا عَنْهَا الْعَذابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهاداتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكاذِبِينَ❖ وَالْخامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللهِ عَلَيْها إِنْ كانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[3]

فإنَّ((من رمى زوجته بالزنا تلاعنا، والملاعنة: أن يبدأ الرجل فيحلف أربع مرات بالله الذي لا إله إلا هو إنَّه صادق فيما رماها به، ويحتاج أن يقول أشهد بالله أنِّي صادق، لأنَّ شهادته أربع مرات تقوم مقام أربعة شهود في دفع الحد عنه، ثم يشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين

---

[1] ـ البيضاوي: تفسير البيضاوي:١٧٣/٤، وينظر: عبد الرحمن بن ناصر السعدي: تيسير الكريم الرحمن:٥١٦.

[2] ـ البيضاوي: تفسير البيضاوي:١٧٣/٤، وينظر: الغرناطي الكلبي: التسهيل لعلوم التنزيل: ٥٩/٣، والثعالبي: تفسير الثعالبي:١٦٨/٤.

[3] ـ سورة النور:٦-٩.

فيما رماها به، وإذا جحدت المرأة ذلك شهدت أربع شهادات بالله إنَّه لمن الكاذبين فيما رماها به وتشهد الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين. ثم يفرق بينهما، ولا يجتمعان أبدا، كما فرَّق رسول الله (صلى الله عليه وآله) بين هلال بن أمية وزوجته، وقضى أنَّ الولد لها، ولا يدعى لأب، ولا ترمى هي، ولا يرمى ولدها. وقال ابن عباس: متى لم تحلف رجمت))[1] فالمرأة التي يثبت عليها ارتكابها لهذه الفاحشة ترجم، وقد استشعر بعض المفسرين الحكم بالرجم من لفظة العذاب الواردة في الآية حيث يقول الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ): (((وَيَدْرَؤُا) يعنى يدفع الحاكم (عَنْهَا الْعَذابَ) عن المرأة العذاب بالرجم))[2] فإذا شهدت بالشهادات الخمس بأنَّ الزوج كاذب في إتّهامها بالزِّنا فإنَّها بذلك تدفع عن نفسها الرجم، وأمَّا إذا ما أقرّت بالتهمة الموجهة لها ولم تكذِّب دعوى الزوج فهي بذلك تستحق الرجم، وقد عمل الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله) بحكم الرجم حيث يروى بأنَّه قد ((أتى رجلان إلى النبي (صلى الله عليه(وآله) وسلم) فقال: يا رسول الله اقض بيني وبين هذا، كان ابني أجيرا لامرأته وابني لم يحصن فزنا بها فسألت من لا يعلم فأخبروني أنَّ على ابني الرجم فافتديت منه بكذا وكذا ثم سألت من يعلم فأخبروني أن ليس على ابني الرجم قال النبي (صلى الله عليه(وآله) وسلم): لأقضين بينكما بالحقِّ أمَّا ما أعطيته فرد عليك وأما ابنك فيجلد مائة وتغريب سنة وأمَّا امرأته فترجم))[3] وهكذا فقد حكم بينهما النبيُّ(صلى الله عليه وآله) بما أمره الله تعالى به.

وهكذا استدرجهم القرآن الكريم إلى تطبيق عقوبة الزِّنا شيئاً فشيئاً فإبتدأ أول الأمر بالحكم بالإمساك في البيوت والإيذاء ثمَّ جاء الحكم النهائي بالجلد لغير المتزوجين والرجم للمتزوجين حينما تهيأت النفوس لتقبله، حيث أنَّ الآيات الكريمات كانت تستدرجهم للعمل بها وتدعوهم إلى عدم التردد في تنفيذ حكم الزاني لأنَّه حكم سماوي واجب الأداء مطلقاً .

---

١ ـ الطوسي: التبيان:٤١٢/٧، وينظر: أبو السعود: تفسير أبي السعود:١٥٨/٦-١٥٩، والشيرازي: الأمثل:٢٩/١١

٢ ـ الفيروزآبادي: تنوير المقباس:٢٩٢، وينظر: الفيض الكاشاني: التفسير الأصفى:٨٣٧/٢، والحويزي: تفسير نور الثقلين:٥٧٧/٣.

٣ ـ النسائي: السنن الكبرى:٢٨٦/٤.

من خلال ما تقدَّم نلحظ أنَّ الاستدراج الذي يهدف إلى تطبيق عقوبة الزِّنا قد جاء في الخطاب القرآني بوسائل عديدة وهي على النحو الآتي:

١. التلطُف في صياغة العبارات التي جاءت بالحكم في المرحلة الأولى من خلال الأمر بـ (الإمساك في البيوت) فلم تقل الآية (اسجنوهن في البيوت) ليكون ذلك مقبولا ومستساغاً عند المتلقي لأنَّ الأمر بالسجن يصعب تقبله.
٢. في المرحلة الثانية ذكرَّهم الله سبحانه بأنَّهم آمنوا بالنبي محمد(صلى الله عليه وآله) لهذا فهم أولى الناس بقبول الحكم الشرعي وتنفيذه وإن كان شديدا، فالمؤمن مطيعٌ لله تعالى ولرسوله(صلى الله عليه وآله) في كل أحواله .
٣. أمَّا في المرحلة الأخيرة فقد وصف الله تعالى حكم الزاني المتزوج بلفظة (العذاب)؛ وذلك لبيان شناعة صدور هذا الفعل منه تحديدا دون غيره، فضلا عن الوصف بهذه المفردة فقد اتَّبع النصّ مع متلقي الحكم حيثية الإبهام ثم البيان إذ أجمل سبحانه حكم الزاني المتزوج ابتداءً في الآية الكريمة ليفصله الرسول(صلى الله عليه وآله) بالسنَّة، والإجمال المبهم في سياق العقوبات يثير الرعب في داخل المتلقي حتى يرد بيانه، و لعل هذا الإجمال ومن ثم ورود التفصيل بعده من الرسول(صلى الله عليه وآله) فيه دلالة رعب وتخويف للمتلقي للابتعاد عن هذا الفعل المشين مطلقا، ولعلَّ هذه الحيثية الترهيبية التي انتهى إليها الاستدراج في حكم الزنا وصولا إلى هذا الحكم الغليظ، تكمن علتها في أنَّ زنى المتزوج أكثر شناعة من زنى غير المتزوج وإن كان كلا الفعلين جريمة بَيدَ أنَّ بينهما مراتب فمرتبة المتزوج أعلى عقوبة لأنَّها أفضع آثارا على نفسه وعلى المجتمع لأنَّ المرأة المتزوجة إذا زنت ورُجِمَت فإنَّ العار سيلحق حتى أبنائها وبناتها وقد يتردد الكثير من الرجال على الإقدام عليهن للزواج بهن لهذا الداعي وكذا الحال للرجل الزاني؛ من هنا لما كانت آثار هذه الجريمة لدى المتزوج أعظم مما هي عند غير المتزوج جاء أسلوب بيان عاقبتها بهذه الدرجة من الترهيب والتخويف ليكف عنها المتزوجون جميعا لحفظ السمعة والحفاظ على ذرياتهم من الحرج.

الخاتمة

من المسيرة العلمية للباحثة في دراسة ظاهرة الاستدراج في النصّ القرآني استطاعت أن تتوصل إلى جملة من القناعات التي يمكن أن ينظر إليها بوصفها نتائج لهذا الجهد العلمي والتي يمكن تلخيصها على النحو الآتي:

١. اتَّضح لدى الباحثة أنَّ الاستدراج في اللغة إنَّما هو مشتق من الأصل (درج) وهو يعني الانتقال من شيء إلى آخر ومن منزلة الى أخرى من أجل إقناع المتلقي بأمر ما أو لجعله يفعل شيئاً ما يريده المستدرِج منه ولكن لا يتحقق ذلك الشيء دفعة واحدة لهذا يقسمه إليه الشيء تلو الآخر حتى يبلغه المتلقي و يؤديه على وفق ما يبتغيه المستدرِج .

أمَّا الاستدراج في مفهومه الإصطلاحي فقد وجدت الباحثة بأنَّه ينقسم على منظورين معرفيين هما:

الأول: وهو المفهوم الشائع الذي ورد في قوله تعالى:﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[1] وقد تحدَّث عنه الرسول الأكرم(صلى الله عليه وآله) وأئمة أهل البيت(عليهم السلام) حيث ذكروا بأنَّ المقصود منه هو إدناء العبد من العذاب من قبل الله تعالى تدريجياً من خلال تتابع العطاء الإلهي لذلك العبد على الرغم من استمراره في المعصية، فيفتتن بما أعطاه الله تعالى له فلا يستغفر من ذنوبه ولا يعود إلى الله تعالى فيستحق بذلك العقاب دون هوادة أو غفران البتة وهو أسلوب عملي فعلي.

أمَّا المفهوم الثاني: فهو ينصُّ على أنَّ مضمون الاستدراج لا ينحصر بما أشارت إليه الآيتان المباركتان حيث يدلّ على استدراج الله تعالى العبد للعذاب، بل هو مفهوم أوسع وأشمل لأنَّه يمثل وسلة خطابية أو ظاهرة أسلوبية نصية غايتها إخضاع المتلقي لما يريده منشيء النصّ باستعمال مهارات كلامية عالية الدقة من أجل إيصال ذلك المخاطَب إلى الإيمان والقناعة الكافية لأداء المطلب المضموني الذي يمليه عليه ذلك النصّ المعجز من دون تردد أو هوادة، وهذا المفهوم الأخير هو الذي تبتغيه الباحثة من دراستها هذه تحديداً.

٢. من خلال الاستقراء والتمحيص اتَّضح لدى الباحثة بأنَّ ظاهرة الاستدراج في نطاق العقائد كانت تعتمد على جملة من الأساليب الخطابية التي من شأنها أن تستدرج المتلقي وتقنعه بفساد عقيدته، وإنَّ ما ذكره القرآن الكريم هو الحق لا غيره، ومن أبرز تلك الأساليب الآتي:

أ- اعتماد أسلوب الحوار الهاديء الممزوج بالكلام اللّين واللطيف مع الكفَّار والمشركين وأصحاب الديانات السماوية الأخرى من أجل أن يؤمنوا بما جاء به القرآن الكريم ويسلموا له،

---

[1] سورة الاعراف:١٨٢، وسورة القلم:٤٤.

ولكن حينما يرى منهم عدم الإيمان والتسليم أو التكذيب يستعمل النصّ القرآني الكلام الذي ينطوي على سمة التهديد والوعيد.

ب- استعمل القرآن الكريم الكلام غير المباشر في مخاطبة الكفار والمشركين وحتى مع المسلمين لأنَّ الكلام غير المباشر يؤثر في نفس السامع أكثر من الكلام المباشر الذي يواجه في أكثر الأحيان بالرفض.

ت- كان أسلوب الاستفهام الإنكاري من أكثر الأساليب الخطابية استعمالاً، لأنَّه يدعو المتلقي إلى التأمل وإعادة النظر فيما يعتقده فيكتشف الحقيقة بنفسه.

ث- ذكر الأدلة التي تثبت بطلان ما يعتقدون به، فإنَّ ذكر الحجة والدليل الذي يثبت لهم أنَّهم على باطل وضلال، يجعلهم وجهاً لوجه مع الحقيقة فلا تكون لهم حجةً حينئذٍ وعند ذلك يتحقق استدراجهم لما يريده القرآن الكريم.

ج- التذكير بنعم الله التي أنعم بها تعالى عليهم والدعوة إلى التأمل فيها، فإنَّ ذلك يوصلهم إلى معرفة الله تعالى والإقرار بأنَّه خالقهم ورازقهم.

ح- تأكيد قدرة الله تعالى المطلقة، فهو سبحانه لا يعجزه شيء من إحياء الأموات وبعثهم من قبورهم فهو الذي خلقهم من قبل.

خ- استعمل النصُّ المقدَّس أسلوب المثل لإقناع اليهود والنصارى بصدق ما جاء به النبي محمد(صلى الله عليه وآله) عن حقيقة خلق النبي عيسى(عليه السلام) ليكون ذلك شاهداً على صدق نبوته(صلى الله عليه وآله).

د- استعمل القرآن الكريم أسلوب الابتهال عند عدم إيمانهم بما جاء به النبي محمد(صلى الله عليه وآله) من علمٍ من الله تعالى، ليتبيَّن الصادق من الكاذب كما حصل مع النصارى الذين انسحبوا من المباهلة لعلمهم بصدقه(صلى الله عليه وآله) وأنَّهم على باطل فيحلّ العذاب بهم ويفتضح أمرهم.

ذ- وظَّف القرآن الكريم أسلوب النصح والإرشاد واظهار الشفقة في الحوار مع الكفار والمشركين فإنَّ ذلك يستميل قلوبهم ويتحقق من خلاله استدراجهم من غير أن يشعروا بذلك .

ر- استعمال النصّ المقدس أسلوب الشرط والقسم لتوثيق عصمة النبي الأكرم(صلى الله عليه وآله) ، وذلك لما لهذين الأسلوبين من قدرة عالية على زرع المعنى في نفس المتلقي بيقين وتمكن لأنَّ القسم يعد من أجلى ثوابت المعنى لدى السامع توكيداً لأنَّه يزيح عنه الشبهة ويثبت الحق، وكذا الحال للشرط فهو أسلوب خطابي يعتمد مبدأ المطالبة بالفعل لتحقيق الجواب وبهذا فهو يعمد إلى منهجية السبب والنتيجة من وجهة نظر منطقية فإذا ما تحقق السبب فلا من وجود النتيجة، وبهذا لا

يسع المتلقي المراوغة بل يدعو هذان الأسلوبان المتلقي الى التفكير وإعادة النظر وصولا إلى الحقيقة التي يثبتانها غاية لإستعمالهما في نطاق الاستدراج.

٣- أمَّا في نطاق الأخلاق فقد تجسدت ظاهرة الاستدراج بجملة من الأساليب والوسائل الخطابية التي من شأنها بلا تردد أن تقنع المتلقي بما تريده السماء شيئاً فشيئاً من دون إرسال المعنى دفعة واحدة مما يؤول الى وجود عوائق لتقبله في النفوس؛ بل سيواجه بالرفض وسيقابل بالإنكار، ففي نطاق رعاية المرأة –مثلاً- واحترامها بوصفها إنساناً نجد انَّ القرآن الكريم قد استدرج الرجل لإقناعه بهذا المنحى المضموني على مراحل فتدرج معه مرحلة مرحلة وصولاً إلى الهدف المنشود، وقد استعمل بذلك مجموعة من الوسائل الدلالية لتحقيق المراد منها:

أ- أكدَّ النص القرآني أنَّ الرجل والمرأة هما اللذان اختارهما الله تعالى لخلافة الأرض على حدٍ سواء، ولا فرق بينهما في ذلك.

ب- اثبت القرآن الكريم أنَّ أصل الخلق واحد لكليهما فالنبي آدم(عليه السلام) هو أبو البشر جميعاً، الرجل والمرأة على السواء .

ت- أثبت القرآن الكريم للمرأة حق الميراث كما أنَّ للرجل حقا فيه فهما متساويان في ذلك.

٣- أمَّا في نطاق اثبات حق اليتيم وضرورة الإهتمام به ورعايته حق الرعاية فقد استدرج النصُّ القرآني المتلقي إلى هذا المعنى المنشود من خلال وسائل متعددة لتحقيق هذه الغاية السامية:

أ- نهت الآية الأولى التي نزلت بشأن اليتامى عن التصرف بأموالهم إلاَّ بما يضمن مصالحهم ويحفظها من الضياع والتلف.

ب- استعمل القرآن الكريم أسلوب الترغيب من أجل استدراجهم إلى الإهتمام باليتيم ورعايته من خلال الوعد بالجنة والنعيم لمن يطعم اليتيم وإنَّ إطعامه سبب لفلاح الإنسان وفوزه في الدنيا والآخرة.

ت- كما نهى القرآن الكريم عن إيذاء اليتيم بقول أو فعل.

٤- وجدت الباحثة أنَّ النصّ القرآني قد حثَّ المسلمين على الإنفاق في سبيل الله تعالى بأساليب متعددة، فقد تجلّى ذلك:

أ- من خلال الآيات التي تدعو إلى الإنفاق صراحة أو تلك التي تدعو إليه ضمناً وأخرى عبرت عنه بأنَّه جهاد.

ب- أوجب الإسلام الزكاة والخمس على المسلمين من أجل تحقيق التكافل الاجتماعي، وكذلك رغَّب في الإنفاق المستحب.

ت- استعمل النصُّ الكريم أسلوب الترغيب في الإنفاق من خلال الوعد من الله تعالى بمضاعفة ما أنفقوا بسبعمائة ضعف أو أكثر، وكذلك شبَّه الإنفاق في سبيل الله بأنَّه إقراض له تعالى ذكره ترغيباً وتشجيعاً لهم على الإنفاق، وممّا رغبهم تعالى به لكي ينفقوا من أموالهم هو تأكيد أنَّ ثمرة إنفاقهم سيجدونها في الدنيا والآخرة.

٥- لقد تضمن القرآن الكريم العديد من الآيات التي تهدف إلى استدراج المسلمين إلى نبذ النفاق وتركه، فقد بيَّن القرآن الكريم صفات المنافقين حتى يعرفهم المسلمون ويبتعدوا عنهم .

وقد استعمل القرآن الكريم أسلوب الترهيب فقد هدّدهم بإبعادهم عن رحمة الله تعالى، وأخبرهم بأنَّهم في أسفل نار جهنم، أنَّهم استحقوا أشدَّ العذاب لأنَّهم جمعوا بين الكفر والنفاق، فقد أخبرهم الله عمَّا ينتظرهم من العذاب المهين، وفي المقابل ذكر تعالى ما أعدَّه للمؤمنين من التوبة جزاءً على أعمالهم الحسنة فيتحقق استدراجهم إلى نبذ النفاق من خلال مقارنة عاقبة كلٍ منهما.

٦-استعمل النص المقدس أساليب متعددة في الاستدراج في نطاق الأحكام الشرعية من أجل إقناع المتلقي بضرورة الإلتزام بالحكم الشرعي وتطبيقه، فلم تصرح الآيات بالحكم النهائي منذ البداية بل كانت تستدرج المتلقي إلى الحكم شيئاً فشيئاً وعلى مراحل متعددة من أجل تسهيل الأمر عليهم، ففي تحريم الخمر تضمنت الآية الأولى أسلوب العتاب والمِنَّة فقد تضمنت الإشارة إلى كونه الخمر غير مرغوباً فيها لأنَّهم وظفوا ما سمَّته الآية بـ (الرزق الحسن) واتخذوا منه خمراً ليسكرهم على الرغم من أنَّه نعمة حسنة مباركة من نعم الله تعالى عليهم.

وفي المرحلة الثانية كانت الحرمة أشدّ حيث صرَّحت الآية باشتماله على الإثم والنفع، وإنَّ ضرره أكثر من نفعه.

وفي المرحلة الثالثة كان التحريم أشدّ حيث نهوا عن الصلاة حال السكر لكن الآية لم تبين حكم شرب الخمر في غير وقت الصلاة ويعدّ ذلك نهياً ضمنياً عن شربه في سائر الأوقات .

ومن ثم استعمل القرآن الكريم النهي الصريح في المرحلة النهائية من التحريم عن طريق استعمال فعل الأمر(اجتنبوا) فهو يجمع بين معنى الإلزام والنهي.

وقد استعمل النصُّ المقدس أسلوب التوكيد بأداة التوكيد والحصر(إنَّما) في بيان ما يريد الشيطان أن يوقعه بين المؤمنين من خلال شربه لكي يبتعدوا عنه لأنَّه من منافذ الشيطان التي يتسلط من خلالها على الإنسان ويؤثر عليه من خلالها.

ومن ثم استعمال أسلوب الاستفهام بمعنى النهي لكي يكون لذلك الأثر البليغ في النفس أكثر ممّا لو كان النهي بغير هذا الأسلوب.

أمَّا في نطاق تحريم الرِّبا فقد ابتدأ القرآن الكريم أولاً بأسلوب النصح والتوجيه كبداية لتحريمه لأنَّ الناس كانوا يتعاملون به، فبيَّن لهم أنَّه ينقص الأموال ويتلفها، بخلاف الزكاة التي تنمي المال وتزيد في بركته.

ث- أمَّا في المرحلة الثانية لتأسيس حرمته فقد كان القرآن الكريم يشير إلى تحريمه ضمناً لأنّه ذمَّ اليهود لأنَّهم كانوا يتعاملون به على الرغم من تحريمه.

ج- وفي المرحلة الثالثة اشتدَّ التحريم فحرَّم الكريم أكل الرِّبا بشكل مضاعف.

ح- أمَّا في المرحلة النهائية من التحريم فقد استعمل القرآن الكريم أسلوب الترهيب كوسيلة لاستدراجهم الى تركه حيث أمرهم بإجتناب النار التي سيدخلونها بسبب الرِّبا، وقدّم لهم وصفاً لحال المرابي وأنَّه كالمجنون فإنَّ ذلك ينَّفر الناس من التعامل به خوفاً من سوء العاقبة، وممَّا ذكره القرآن الكريم وزاد في ترهيبهم هو أنَّ المرابي من المبغوضين عند الله تعالى وإنَّه محارب لله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وآله)لإصراره على الرِّبا، فمن أشدّ صور الترهيب هو استعمال أسلوب التنكير في لفظة(حرب) في قوله تعالى:(فَإِذَنُوا بِحَربٍ) ليزرع الذعر في نفس المرابي، ثمَّ قيدها سبحانه بذاته المقدسة وبالرسول(صلى الله عليه وآله) فثبت بذلك عظمة الجهة التي يحاربها المرابي فهذه الحرب محسومة بإذلاله وخسرانه.

أمَّا في نطاق فرض الصوم فكانت هناك أساليب متعددة تحقق هذا الهدف، فلم تصرِّح الآيات مباشرةً بوجوبه فلم تقل: (صوموا شهراً كاملاً) بل ابتدأ القرآن الكريم بتطمين نفوسهم بأنَّ هذه الفريضة كانت مفروضة على أتباع الأنبياء(عليهم السلام) لأنَّ ذلك يسهل الأمر عليهم، فإنَّ الأمر الصعب إذا عمَّ سهل أمره، ويعد ذلك أيضاً تشجيعاً للمسلمين لينافسوا من سبقوهم من المؤمنين .

وقد استعمل القرآن الكريم أسلوب الترغيب في صيامه، حيث جعل الغاية منه حصول التقوى لأنَّ الصوم سبب لتكامل النفوس وتهذيبها.

ومن وجوه الاستدراج في الخطاب لإستمالة النفوس إلى الصوم في النصِّ المقدس صياغة لفظة (معدودات) وتنكيرها ليسهل الأمر عليهم وأنَّ الصوم واجب عليهم في أيام قلائل، وتلك الأيام هي شهر رمضان الذي شرَّفه الله تعالى بنزول القرآن الكريم.

ومن إعفاء المرضى والمسافرين من وجوب الصيام في شهر رمضان وإيجاب القضاء للمريض أو الفدية للذي لا يقدر على القضاء، ووجوب القضاء على المسافر لتسهيل الأمر عليهم وعدم إثقال كواهلهم بالفروض والواجبات التي تنَّفرهم من الدين عموما.

أمّا في نطاق تحريم الزِّنا فقد حقق القرآن الكريم غايته من خلال التلطف في صياغة العبارات في المرحلة الأولى من الحكم، وذلك من خلال الأمر ب(الإمساك في البيوت) فلم تقل الآية(اسجنوهن في البيوت) ليكون ذلك أكثر تقبلا عند المتلقي.

وفي المرحلة الثانية من الحكم ذكرتهم الآية بإيمانهم بالله تعالى وبنبيه الكريم(صلى الله عليه وآله) فبما أنَّهم مؤمنين فعليهم أن يسلِّموا لأوامر الله تعالى وتشريعاته، فالمؤمن مطيع لله على كل حال.

٨- وجدت الباحثة أنَّ أسلوب الاستدراج يعدُّ من أهم الأساليب الخطابية في النصِّ القرآني لأنَّه يقوم على غاية اقناع المتلقي بالمراد الذي يريده المكلم لتتحقق بذلك ثلاث غايات:

الأولى: استيعاب المتلقي للمضمون الذي يبتغيه المتحدث بدقة عالية وتفكر كبيرين مما يؤول إلى الإيمان به عن وعي وتأمل فيتمسك بالمراد من دون تردد.

الثانية: جعل هذا الأسلوب حجة على المتلقي في حال الرفض وعدم الإقتناع، ذلك بأنَّ الاستدراج يثبت المعنى والمضمون السماوي بالدليل والسند والحجة، وإنَّ مجانبة الحجة ورفض الدليل وطعن السند من دون سند أو دليل أو حجة فان هذا يلزم الرافض بالإدانة والذنب؛ لأنَّ الحق ظاهر لكل ذي نظر والحال هذه فإذا ما رفض المتلقي الحق فهو إلى الباطل أدخل وألصق.

الثالثة: إنَّ وجود هذه السمة الأسلوبية في الخطاب القرآني تجعل المتلقي هو من يصل الى المعنى المراد أو المبتغى الإلهي بتفكيره وإعادة نظره في الحجج التي يعرضها أسلوب الاستدراج بوصفه وسيلة إقناعية، فالاستدراج الخطابي في النصِّ المقدس لا يُلقي الكلام ويريد منه ظاهر دلالته أو دلالته المباشرة؛ بل يجعل من المتلقي مشاركا في إنتاج المعنى وهذا وجها من وجوه تحقق التداولية في التعبير القرآني وهو أن تجعل من مخاطبك قسيما لك في استنباط المعنى وبناء الدلالة ولا تكون الدلالة حكراً على عاتق المتكلم ولزاما عليه في إيصال المعنى مباشرة من جهد عقلي وعناء تفكري من التلقي، والوصول إلى الدلالة وبلوغ المعنى بجهد ومشاركة مع المتكلم أثبت في توطيد تلك الدلالة وذلك المعنى في نفس المتلقي من إلقاء الكلام إليه على سبيل الجاهل من دون تفكُّر وعناء، من هنا يكون الأداء -افتراضا على غاية الاستدراج – واجباً على المتلقي بلحاظ وجود الاستدراج في الكلام بإعتبار أنَّ المتلقي قد فهم الكلام وأدركه بكل تفاصيله من خلال التأمل والتدبر والوعي الكافي بالنصّ، ومن هنا تلزمه الحجة بالرفض مطلقاً.

٩- وجدت الباحثة أنَّ الاستدراج عملية خطابية تؤسس على ثلاثة أركان أساسية لا تستغني عن أي واحد منها بل إنَّ إقصاء أي ركن يهدم هذه العملية بالمحصلة، وهذه الأركان هي (مؤسس الاستدراج)أولاً ونقصد به (منشيء النص) فهو الأصل الذي يعول عليه في بناء الاستدراج في مفاصل النص وترك إشارات وإثارات نصية فيه لجعل المتلقي يفكر ويتأمل، وثاني الأركان هو (مآل الاستدراج) ونريد به (متلقي النص) وهو الشريك الذي يسهم في بناء المعنى مع المتكلم لتحقيق غاية الاستدراج وهو (فهم المعنى) أو (إدراك المغزى من الكلام الاستدراجي)، وثالث الأركان هو (غاية الاستدراج) ونقصد به (المعنى او الفكرة الذي اسس المتكلم من أجلها كلامه على سبيل الاستدراج) وهو الفكرة يجب أن تكون متحركة على طول الخطاب الاستدراجي ولا تغادر أي مفصل منه لتكون جلية لدى المتلقي في نهاية الخطاب، وبناء على هذه الأركان نقول إنَّ مؤسس الاستدراج هو الله تعالى الذات المنشئة للنص ومآل الاستدراج هم الناس، ومغزى الاستدراج هو المراد الذي تريد السماء إيصاله إلى المتلقي سواء أكان مضمونا عقائديا أم معنى أخلاقيا أم حكما شرعيا، من هنا نقول باطمئنان إنَّ أسلوب الاستدراج يعد من أهم أساليب بناء المعنى القرآني ذلك بأنَّ القرآن الكريم هو كتاب هداية وبيان ولَّما كان كذلك وجب إيجاد وسيلة خطابية لتحقيق هذه الغاية واقناع الذات الرافضة هي الإنسان وصولا به إلى التسليم والإيمان بمرادات الذات الخالقة وهو الله تعالى، فضلاً عن أنَّ هذه الظاهرة الاسلوبية تثبت خالقية لله تعالى والمخلوقية للإنسان بلا تردد ذلك بأنَّ الله تعالى لما كان خالقا للبشرية كان هو الأعلم بكيفية إقناعهم وحيثية مخاطبتهم بلوغاً بهم إلى الإيمان بما يقول من هنا ثبت بالمنطق العقلي بأنَّ الله تعالى هو خالق البشر وهو الأعلم على وجه الإطلاق بخبايا نفوسهم ومكامن عقولهم وكيفية التعامل معهم جميعا.

وتأسيسا عليه يمكن التقرير بالقول إنَّ ظاهرة الاستدراج في الخطاب القرآني هي الغالبة في إيصال المعنى الى المتلقين والتسليم منهم بما يريده النصُّ مطلقاً، ومن هنا تتجلى دراسة هذه الظاهرة دون أدنى تأمل أو إعادة نظر البتة.

فهرس المصادر والمراجع

الكتب المطبوعة

القرآن الكريم

١ـ ابن أبي حاتم الرازي(ت٣٢٧هـ): تفسير ابن أبي حاتم، تحقيق: أسعد محمد الطيب، المكتبة العصرية- صيدا، د.ت .

٢ـ ابن أبي زمنين: أبي عبد الله محمد بن عبد الله(ت٣٩٩هـ): تفسير ابن أبي زمنين، تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة-محمد بن مصطفى الكنز، مطبعة الفاروق الحديثة- مصر-القاهرة،ط١، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

٣ـ ابن أبي شيبة الكوفي : عبد الله بن محمد (٢٣٥هـ): المصنف، تحقيق وتعليق: سعيد اللحام، دار الفكر- بيروت – لبنان، ط١، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩ م.

٤ ـ ابن الأثير: ضياء الدين(ت٦٣٧هـ): الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور، تحقيق وتعليق: مصطفى جواد وجميل سعيد، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

-المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تقديم وتعليق: أحمد الحوفي وبدوي طبَانه، مطبعة دار النهضة- مصر- القاهرة، د.ت.

٥ ـ ابن الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد(ت٥٩٧هـ): زاد المسير في علم التفسير، تحقيق: محمد بن عبد الرحمن عبد الله، تخريج الأحاديث: أبو هاجر السعيد بن بسيوني زغلول، مطبعة دار الفكر، ط١، ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م .

- نواسخ القرآن: دار الكتب العلمية – بيروت، د.ت .

٦ ـ ابن العربي(ت٥٤٣هـ): أحكام القرآن، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الفكر- لبنان، د.ت.

٧- ابن العربي:(ت٦٣٨هـ): تفسير ابن عربي، ضبطه وصححه وقدم له: الشيخ عبد الوارث محمد علي، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ط١، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

٨- ابن حجر العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي بن محمد(ت٨٥٢هـ): تحقيق: عبد الحكيم محمد الأنيس، دار ابن الجوزي- السعودية، ط١، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

٩- ابن حزم: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد(ت٤٥٦هـ): الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم، تحقيق: د. عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية - بيروت ، ط١، ١٤٠٦هـ.

١٠- ابن حنبل: الإمام أحمد(ت٢٤١هـ): المسند، دار صادر - بيروت – لبنان، د.ت .

١١- ابن شعبة الحراني: الحسن بن علي بن الحسين(ت ق٤هـ): تحف العقول: تصحيح وتعليق : علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين – قم المشرفة، ط٢،١٤٠٤هـ .

١٢- ابن عاشور: محمد بن طاهر: التحرير والتنوير المعروف بـ (تفسير ابن عاشور)، مؤسسة التاريخ، د.ت.

١٣- ابن عطية الأندلسي: أبو محمد عبد الحق(ت٥٤٦هـ): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية – لبنان، ط١،١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

١٤- ابن فارس: أبو الحسين أحمد(ت٣٩٥هـ): معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون،د.مط، ١٤٠٤هـ .

١٥- ابن قتيبة: أبو محمد عبد الله بن مسلم الدينوري: غريب الحديث، تحقيق : د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني – بغداد/ الطبعة الأولى ، ١٣٩٧هـ.

١٦- ابن قيِّم الجوزية: أبو عبدالله محمد(ت٧٥١هـ): الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، تصحيح: بدر الدين النعساني، مطبعة السعادة – مصر، ١٣٢٧هـ .

١٧- ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل بن عمر الدمشقي(ت٧٧٤هـ)، تفسير القرآن العظيم المشهور بـ(تفسير ابن كثير)، تقديم: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مطبعة دار المعرفة - بيروت - لبنان ، ١٤١٢ هـ- ١٩٩٢ م .

١٨- ابن منظور: أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ): لسان العرب، نشر أدب الحوزة - قم – ايران، ١٤٠٥هـ .

١٩- ابو السعود: محمد بن محمد العمادي(ت٩٥١هـ): إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، والمشهور بـ (تفسير أبي السعود)، مطبعة دار إحياء التراث العربي – بيروت، د.ت.

٢٠- أبو حبيب: سعدي (معاصر): القاموس الفقهي، دار الفكر - دمشق – سوريا، ط٢، ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

٢١- أبو حيان الاندلسي: اثير الدين أبو عبد الله محمد بن يوسف(ت٧٤٥هـ):البحر المحيط، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود - الشيخ علي محمد معوض - د.زكريا عبد المجيد النوقي -د. أحمد النجولي الجمل، مطبعة دار الكتب العلمية- بيروت، لبنان، ط١،١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م .

٢٢- أبو زهرة: الشيخ محمد، تحريم الرِّبا في الإسلام تنظيم اقتصادي، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٢٣- ابو هلال العسكري(ت٣٩٥هـ): معجم الفروق اللغوية، مؤسسة النشر الاسلامي- قم المقدسة،ط١، ١٤١٢هـ.

٢٤- أحمد فتح الله: (معاصر): معجم ألفاظ الفقه الجعفري، مطابع المدوخل ، الدمام، ط١، ١٤١٥ - ١٩٩٥ م .

٢٥- أحمد مصطفى سليمان: فقه الصيام في الإسلام، مطبعة الزهراء - الموصل العراق، ط١٤٠٥،١هـ- ١٩٨٥م.

٢٦- الإسكافي: محمد بن همام(ت٣٣٦ ه): كتاب التمحيص، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهدي(ع) - قم المشرفة، د.ت.

٢٧- الآلوسي: أبو الفضل شهاب الدين محمود(ت١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، د.مط، د.ت.

٢٨- الامام جعفر الصادق (ع) (استشهد١٤٨هـ): مصباح الشريعة {منسوب الى الامام الصادق (ع) }، مؤسسة الاعلمي، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ.

٢٩- الإمام علي بن أبي طالب (ع) (استشهد ٤٠هـ): نهج البلاغة، {منسوب إلى الإمام علي بن أبي طالب (ع)}، شرح: الشيخ محمد عبده، مطبعة النهضة – قم المشرفة، ط١، ١٤١٢هـ.

٣٠- الآمدي: عبد الواحد بن محمد بن عبد الواحد، غرر الحكم ودرر الكلم، من كلام الإمام علي بن أبي طالب(ع)، مطبعة العرفان- صيدا، ١٣٣٩هـ -١٩٣١م .

٣١- البدر: عبد الرزاق بن عبد المحسن: تكريم الإسلام للمرأة، د.مط، المدينة المنورة، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

٣٢- البغوي: أبو محمد الحسين بن مسعود الفراء: معالم التنزيل، تحقيق: خالد عبد الرحمن العك، مطبعة دار المعرفة، د.ت.

٣٣- البيضاوي: أبو سعيد الشيرازي(ت٦٨٢هـ): تفسير البيضاوي، مطبعة دار الفكر – بيروت، د.ت.

٣٤- الثعالبي: عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف (ت٨٧٥هـ): تفسير الثعالبي المسمى بـ (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، تحقيق: د. عبد الفتاح أبو سنة- الشيخ علي محمد معوض - والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط١، ١٤١٨هـ .

٣٥- الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن إبراهيم النيشابوري(ت٤٢٧هـ) : الكشف والبيان عن تفسير القرآن، مطبعة دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٢ هـ.

٣٦- الجرجاني(ت٨١٦هـ): علي بن محمد بن علي : التعريفات، تحقيق : محمد صدّيق المنشاوي، د.مط، الناشر: دار الفضيلة– القاهرة، د.ت.

٣٧- الجصاص: أحمد بن علي الرازي (ت٣٧٠هـ): تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ط١، ١٤١٥ هـ- ١٩٩٥ م .

٣٨- الجوهري: اسماعيل بن حمّاد(ت٣٩٣هـ): الصحاح، تحقيق: أحمد عبد الغفور العطار، دار العلم للملايين - بيروت – لبنان، ط٤، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧ م .

٣٩- الحائري: مير سيد علي الطهراني(ت١٣٤٠هـ): مقتنيات الدرر ، مطبعة دار الكتب الإسلامية – طهران، ١٣٧٧هـ.

٤٠- الحر العاملي: محمد بن الحسن(١١٠٤هـ): وسائل الشيعة، تحقيق: مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، مطبعة مهر- قم المشرفة، ط٢، ١٤١٤هـ

٤١- الحسيني: صلاح الدين(معاصر): الإبتلاء سنّة إلهية على بساط العبودية، د.مط، د.ت.

٤٢- الحسيني الشيرازي: محمد مهدي: أنفقوا لكي تتقدموا، مطبعة دار المؤمل – بيروت – لبنان، ط١، ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

٤٣- الحكيم: محمد باقر: علوم القرآن، مؤسسة الهادي – قم المشرفة، ط٣،١٤١٧هـ .

٤٤- الحكيم: السيد محمد تقي: الأصول العامة للفقه المقارن، مؤسسة آل البيت (ع) ،ط٢، ١٣٩٠هـ

٤٥- حماده: عباس متولي: السُّنة النبوية ومكانتها في التشريع، الدار القومية للطباعة والنشر – القاهرة، د.ت.

٤٦- الحويزي: عبد علي بن جمعة: تفسير نور الثقلين، مؤسسة اسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم المقدسة- إيران، د.ت .

٤٧- الخزازي: السيد محسن(معاصر): بداية المعارف الإلهية في شرح عقائد الإمامية، مؤسسة النشر الإسلامي – قم المشرفة، ط٥، ١٤١٨هـ .

٤٨- الدارقطني : علي بن عمر(ت٣٨٥هـ): سنن الدارقطني، تعليق وتخريج : مجدي بن منصور سيد الشوري، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان،ط١،١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م .

٤٩- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين (ت ٦٠٦ هـ): التفسير الكبير، د.مط، ط٣، د.ت.

-المحصول في علم الأصول: تحقيق: طه جابر فياض العلواني، الناشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- الرياض، ط١، ١٤٠٠هـ.

٥٠- الريشهري: محمد(معاصر): ميزان الحكمة، مطبعة دار الحديث، ط١، د.ت.

٥١- الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني(ت١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: علي شيري، دار الفكر – بيروت، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.

٥٢- الزرقاني: محمد عبد العظيم: مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة دار الفكر – لبنان،ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

٥٣- الزركشي: بدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الشافعي (ت ٧٩٤ هـ): البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية، ط١، ١٣٧٦هـ - ١٩٥٧م .

٥٤- الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ): الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر ، عباس ومحمد محمود الحلبي وشركاهم – خلفاء، ١٣٨٥هـ - ١٩٦٦ م .

- الفائق في غريب الحديث، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م .

٥٥- السامرائي: فاضل صالح: معاني النحو، دار الفكر للطبعة والنشر، ط٢، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م.

- أسرار البيان في التعبير القرآني، د.مط، د.ت .

- لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د.مط، د.ت .

٥٦- السباعي: مصطفى: المرأة بين الفقه والقانون، د.مط، الناشر: دار الورّاق – الرياض – السعودية، ط٧، ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م.

٥٧- السبحاني: جعفر(معاصر): العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ع)، ترجمة: جعفر الهادي، مطبعة اعتماد – قم المشرفة، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨ م .
_ الأقسام في القرآن: مطبعة اعتماد – قم المشرفة، ط١٤٢٠،١هـ .
– محاضرات في الإلهيات: مؤسسة الإمام الصادق (ع) – قم المشرفة، د.ت .
– التوحيد والشرك في القرآن: د.مط، د.ت.
– رسائل ومقالات: د.مط، الناشر: مؤسسة الإمام الصادق (ع) – قم المشرفة، ايران .
٥٨- السدوسي: ابو الخطاب قتادة بن دعامة بن قتادة: الناسخ والنسوخ، تحقيق: حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة – بيرت، ط٣، ١٤٠٩هـ .

٥٩- سعاد محمد صبحي: مظاهر تكريم المرأة في الإسلام، دار ابن الجوزي- السعودية، ط١، ١٤٣٠هـ .

٦٠- السعدي: عبد الرحمن بن ناصر(ت ١٣٧٦هـ):تيسير الكريم الرحمن في كلام المنان، تحقيق: ابن عثيمين، مؤسسة الرسالة ، بيروت، د. ط، ١٤٢١ - ٢٠٠٠م .

٦١- السلمي(ت٤١٢هـ): تفسير السلمي، تحقيق: سيد عمران، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ط١،١٤٢١هـ- ٢٠٠١م .

٦٢- السلمي الدمشقي الشافعي: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام(ت٦٦٠هـ): تفسير العز بن عبد السلام، تحقيق: د. عبد الله بن إبراهيم الوهبي، مطبعة دار ابن حزم- بيروت، ط١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦م .

٦٣- السمرقندي: نصر بن محمد بن احمد(ت٣٨٣هـ): تفسير السمرقندي، تحقيق: .محمود مطرجي، مطبعة دار الفكر- بيروت، د.ت .
٦٤- السمعاني: (ت٤٩٨هـ): تفسير السمعاني، تحقيق: ياسر بن إبراهيم و غنيم بن عباس بن غنيم، مطبعة دار الوطن _ الرياض _ السعودية، ط١، ١٤١٨ - ١٩٩٧م .

٦٥- سيروان عبد الزهرة الجنابي: الإجمال والتفصيل في التعبير القرآني – دراسة في الدلالة القرآنية، المركز الوطني لعلوم القرآن والتراث الاقرائي- ديوان الوقف الشيعي، مطبعة النماء- بغداد- العراق، ط١، ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

- الإطلاق والتقييد في النص القرآني- قراءة في المفهوم والدلالة، المركز الوطني لعلوم القرآن والتراث الاقرائي - ديوان الوقف الشيعي، مطبعة النماء- بغداد- العراق ، ط١ ، ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م.

٦٦- السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (ت ٩١١ هـ):الدُّر المنثور، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت – لبنان، د.ت .

- الإتقان في علوم القرآن: تحقيق: سعيد المندوب، مطبعة دار الفكر- لبنان، ط١،١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

- لباب النقول، دار إحياء العلوم – بيروت، د.ت .

٦٧- الشريف المرتضى: علي بن الحسين الموسوي(ت٤٣٦هـ): تنزيه الأنبياء، دار الأضواء - بيروت – لبنان، ط٢،١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م .

٦٨- الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد(ت١٣٩٣هـ):أضواء البيان، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات، مطبعة دار الفكر- بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

٦٩- الشوكاني :محمد بن علي بن محمد (ت١٢٥٠ هـ): ارشاد الفحول ، مطبعة مصطفى البابي الحلبي و اولاده – مصر ،ط١ ،د.ت

- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، مطبعة عالم الكتب، د.ت.

٧٠- الشيرازي: ناصر مكارم(معاصر): الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، طبعة جديدة منقحة، د. مط، د.ت.

٧١- الصدوق: أبي جعفر محمد علي بن الحسين بن بابويه القمي(٣٨١هـ) التوحيد، تصحيح وتعليق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية-قم المقدسة، د.ت .

٧٢- الصنعاني: عبد الرزاق بن همام(ت٢١١هـ): تفسير القرآن، المعروف بـ (تفسير الصنعاني)، تحقيق: د.مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد – الرياض، ط١ ، ١٤١٠هـ- ١٩٨٩ م.

٧٣- الصنعاني: محمد بن إسماعيل الأمير: أصول الفقه المسمى (إجابة السائل شرح بغية الآمل)، تحقيق : القاضي حسين بن أحمد السياغي و الدكتور حسن محمد مقبولي الأهدل، الناشر : مؤسسة الرسالة – بيروت، ط١، ١٩٨٦م.

٧٤- الطباطبائي: السيد محمد حسين (ت١٤١٢ هـ): الميزان، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية – قم المشرفة ، د.ت.

٧٥- الطبرسي: أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق وتعليق: لجنة من العلماء والمحققين الأخصائيين، تقديم: السيد محسن الأمين العاملي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات – بيروت - لبنان، ط١،١٤١٥ هـ- ١٩٩٥م.

- جوامع الجامع: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين- قم المشرفة،ط١، ١٤٢٠هـ .

٧٦- الطبرسي: أبو الفضل علي(ت ق٧هـ): مشكاة الأنوار في غرر الأخبار، تحقيق: مهدي هوشمند، مطبعة: دار الحديث، ط١، ١٤١٨هـ .

٧٧- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠هـ): جامع البيان في تأويل آي القرآن المشهور بإسم (تفسير الطبري)، تقديم: الشيخ خليل الميس، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطار، دار الفكر – بيروت – لبنان، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م .

٧٨- طراد: الشيخ حسن(معاصر): من وحي الإسلام، د.مط، الناشر دار الزهراء، ط٢، ١٤٢٠هـ.

٧٩- الطريحي: الشيخ فخر الدين(ت١٠٨٥هـ): مجمع البحرين، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، أعاد بناءه على الحرف الأول من الكلمة وما بعده على طريقة المعاجم العصرية: محمود عادل، مكتب النشر الثقافة الإسلامية،ط٢، ١٤٠٨هـ .

٨٠- الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠ هـ): التبيان في تفسير القرآن ،تحقيق: أحمد حبيب قصير العاملي، مطبعة قم – مكتبة الإعلام الإسلامي،ط١، ١٤٠٩هـ. - تهذيب الأحكام في شرح المقنعة، تحقيق وتعليق: السيد حسن الموسوي الخرسان، مطبعة خورشيد- طهران، ط٣، ١٣٦٤ هـ ش.

٨١- عبد الله ناصح علوان: تربية الأولاد في الإسلام، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢١، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

٨٢- العلامة الحلي: جمال الدين الحسن بن يوسف(ت٧٢٦هـ): النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادى عشر، شرح : المقداد السيوري، دار الأضواء للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت – لبنان، ط٢، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦ م .

٨٣- العلوي: يحيى بن حمزة بن علي(ت٧٤٥هـ): الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، مطبعة المقتطف- مصر، ١٢٢٢هـ - ١٩١٤م.

٨٤- الغرناطي الكلبي: محمد المدعو بالقاسم بن أحمد(ت٧٤١هـ): مطبعة دار الكتاب العربي- لبنان، ط٤،١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

٨٥- الفراهيدي: الخليل بن أحمد (١٧٠هـ): العين، تحقيق: د. مهدي المخزومي ود.إبراهيم السامرائي، مؤسسة دار الهجرة، ط٢، ١٤٠٩هـ .

٨٦- فضل الله: محمد حسين: الحوار في القرآن الكريم، مطبعة الصدر، ط٦، ١٤١٨هـ- ١٩٩٨م.

٨٧- فضل الله: مريم نور الدين(معاصر): المرأة في ظل الإسلام، مطبعة دار الزهراء – بيروت – لبنان، د.ت.

٨٨- الفيروز آبادي: محمد بن يعقوب بن محمد(٨١٧هـ): القاموس المحيط، د.مط، د.ت .

٨٩- الفيض الكاشاني: المولى محسن(ت١٠٩١هـ): التفسير الصافي، مؤسسة الهادي- قم المشرفة، ط٢،١٤١٦هـ .

-التفسير الأصفى: مطبعة مكتب الإعلام الإسلامي، ط١، ١٤١٨هـ .

٩٠- القحطاني: سعيد بن علي بن وهف: الربا أضراره وآثاره في الكتاب والسّنة، تقديم: صالح بن فوزان الفوزان، د.مط، توزيع: مؤسسة الجريسي- الرياض، د.ت.

-الصيام في الإسلام، د.مط، السعودية، ط٢، ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

٩١- القرطبي: محمد بن احمد بن أبي بكر (ت ٦٧١ هـ): الجامع لأحكام القرآن المعروف بـ (تفسير القرطبي)، تحقيق: احمد عبد العليم البردوني ، مطبعة دار الشعب- القاهرة، ط٢، ١٣٧٢ هـ.

٩٢- قطب الدين الراوندي: أبو الحسين سعيد بن هبة الله (ت٥٧٣هـ): فقه القرآن في شرح آيات الأحكام، تحقيق: السيد احمد الحسيني باهتمام السيد محمود الهاشمي،مطبعة الولاية – قم المقدسة –ط٢، ١٤٠٥هـ.

٩٣- الكفوي: أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني(ت١٠٩٤هـ): الكليات، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، د.مط، الناشر: مؤسسة الرسالة- بيروت، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.

٩٤- الكليني: محمد بن يعقوب بن إسحاق (ت٣٢٨ / ٣٢٩ هـ): الكافي: تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري، مطبعة حيدري، طهران، الناشر: دار الكتب الاسلامية ، ط٣، ١٣٨٨هـ .

٩٥- اللاري: مجتبى الموسوي: دراسة في المشاكل الأخلاقية والنفسية، تعريب: محمد هادي اليوسفي الغروي، مطابع مكتب نشر الثقافة الإسلامية، ط٣، ١٤٠٥هـ .

٩٦- المترك: عمر بن عبد العزيز(ت١٤٠٥هـ)، الرِّبا والمعاملات المصرفية في نظر الشريعة الإسلامية، اخراج وترجمة المؤلف: بكر بن عبد الله أبو زيد، د.مط، الناشر: دار العاصمة، د.ت.

٩٧- المتَّقي الهندي: علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين(٩٧٥هـ): كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة - بيروت – لبنان، ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩ م .

٩٨- المجلسي: محمد باقر(ت١١١١هـ): بحار الأنوار، تحقيق: يحيى العابدي الزنجاني ، عبد الرحيم الرباني الشيرازي، مؤسسة الوفاء - بيروت – لبنان، ط٢،١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .

٩٩- المظفر: محمد رضا(ت١٣٨١هـ): عقائد الإمامية، تقديم : الدكتور حامد حفني داود، مطبعة بهمن- قم المشرفة- ايران، د.ت.

١٠٠- مغنية: محمد جواد (ت١٤٠٠هـ): الكاشف، دار الكتب الإسلامية – طهران، ط١، ١٤٢٤هـ.
١٠١- المفيد: محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم أبي عبد الله (ت٤١٣هـ): أوائل المقالات، تحقيق: الشيخ إبراهيم الأنصاري، دار المفيد - بيروت – لبنان، ط٢،١٤١٤هـ - ١٩٩٣ م .

-النكت الإعتقادية، تحقيق: رضا المختاري، دار المفيد - بيروت – لبنان، ط٢، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

١٠٢- الملكي: محمد باقر(معاصر): توحيد الإمامية، تنظيم: محمد البيابانى الاسكوئي، إهتمام : علي الملكي الميانجي، مؤسسة الطباعة والنشر، وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي – ايران، ط١، ١٤١٥هـ .

١٠٣- المنّاوي: محمد عبد الرؤوف(ت١٠٣١هـ): التوقيف على مهمات التعاريف، الناشر: عالم الكتب- القاهرة، ط١، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م.

١٠٤- الميلاني: السيد علي(معاصر): العصمة، مركز الأبحاث العقائدية – قم المشرفة – ايران، ط١، ١٤٢١هـ .

١٠٥- النحاس: أبو جعفر(ت٣٣٨هـ)، معاني القرآن الكريم، تحقيق : محمد علي الصابوني، مطبعة جامعة أم القرى - مكة المكرمة ، ط١ ، ١٤٠٩هـ.

١٠٦- النسائي: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب(ت٣٠٣هـ): السنن الكبرى، تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري و سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١ م .

١٠٧- النسفي: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود(ت٥٣٧هـ): تفسير النسفي، د.مط، د.ت.

١٠٨- الهيثمي: نور الدين علي بن أبي بكر (ت٨٠٧هـ): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م .

١٠٩- هيئة محمد الأمين(ص): الأخلاق والآداب الإسلامية، د.مط، ط١، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

١١٠- الواحدي النيسابوري: أبو الحسن علي بن أحمد(٤٦٨هـ): أسباب نزول الآيات، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع – القاهرة، ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م .

- الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٥هـ .

البحوث:

سيروان عبد الزهرة الجنابي: (عصمة الرسول محمد (صلى الله عليه وآل وسلم) من الضلالة في النص القرآني - قراءة بمنطق تحليل الخطاب)، بحث منشور في (المؤتمر العلمي الدولي عن شخصية الرسول الاكرم {صلى الله عليه وآله وسلم}) المنعقد في كلية الآداب في جامعة الكوفة في المدة ٢/١٧ – ٢٠١١/٢/٢٢م.

- (قراءة دلالية لعصمة الأنبياء في النص القرآني- النبي موسى (عليه السلام) أنموذجاً)، بحث منشور في وقائع المؤتمر العلمي الخامس لكلية التربية جامعة واسط المنعقد في ١٣ – ٢٠١٢/٣/١٤م، تحت شعار (أقلام باحثينا تصنع الحياة).

- قراءة دلالية في وجوب الصوم في التعبير القرآني، مجلة نون القلم وما يسطرون، ديوان الوقف الشيعي- المركز الوطني لعلوم القرآن والتراث الإقرائي، بغداد، العدد(١٩)، حزيران،٢٠١٠م.

- تحليل سورة النساء: مجموعة محاضرات علمية أُلقِيَتْ على طلبة كلية الآداب من المرحلة الرابعة منذ عام ٢٠٠٥م، وهي مطبوعة غير منشورة.

Abstract

The Quran is the divine miraculous speech which was and is still as a pure resource for researchers since it contains different types of miracles; the Quran consists of a lot of kinds of miracles which many scientists had mentioned in their books in different aspects.

Since the Quran is a guidance book for all people and it was on highest levels of creative speech; thus the reason of the Quran existence is to be as a guidance for people to the way of goodness to let them out of darkness to light, so this research highlights on a study of (The concept of Luring in the Quranic text) and its tools, a study of semantics for those tools; that is why the researcher chose (The luring phenomenon in the Quranic text-An ExplanatoryStudy), as the main title for this research. By "Luring" the researcher meant is the process of using a set of oratorical tools and speaking systems in the Qurannic text to let the recipient aware of semantic step by step.

The process of luring does not only mean that good dose lure his disobedient worshipper through continues fortune feeding which makes him goes on his disobedience and will deserve torture for his ill deeds, but it the concept of luring' her is wider and more comprehensive the researcher means by "luring" the non – actual luring and it is so clear in many of Quanic texts, dogma, morals and legal provision's; when the holy Quran tries to make people believe in god and prophets (peace be upon than) or let people avoid hypocrisy take care of orphans, or deprives wine and usury, means that it lures people step by step to the right way without using direct speech which may be refused or denied but it uses its soft styles to the convince them and controls their hearts in that way the Quran will prove that its styles are the only troths which cannot be denied and in such a way the Quranic miracles will clearly appear by luring the recipient step by step and stage by stage which makes him fully convinced. About the Quran without feeling that, by using the best style which simulates the mind and the soul because it is the speech of His Almighty God.

Ministry of Higher Education
and scientific Research
University of Kufa
Faculty Of Jurisprudence

The Luring phenomenon in the Quranic Text
An Explanatory study

A Thesis
Submitted to :-

The Council Of The Faculty Of Jurisprudence/ University of Kufa
by:-

Zainab Hakeem Obaid Al-Wetfe

In Partial Fulfillment of the Requirements for
The Degree in the science of Qura`n and Holy Hadeeth

Supervised by:-

Asst. Prof.Dr. Serwan Abed Al-Zahra Al-janaby

2014 A.D. **1435 A.H.**